سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

١٤٣١

دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة
٢٠١٥-١٤٣٦

مركز العصر للثقافة والنشر
alasrr@gmail.com

بينات من فقه القرآن.. دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم - **سورة النمل**.

* **المؤلف**: آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

* **تحقيق**: مركز العصر للثقافة والنشر.

* **الطبعة**: الأولى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م. (٣٢٧ صفحة).

* **الناشر**: دار المحجة البيضاء - لبنان بيروت.

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال.
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سورة النمل)

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ (٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)﴾

المحتويات

المقدمة ١٣

تلك آيات القرآن ١٥

هدى وبشرى ٢١

وهم بالآخرة هم يوقنون ٢٤

فهم يعمهون ٢٧

في الآخرة هم الأخسرون ٣٢

لتلقّى القرآن من حكيم عليم ٣٥

إني آنست ناراً ٣٨

بورك من في النار ومن حولها ٤١

أنا اللّـه العزيز الحكيم ٤٤

إني لا يخاف لدي المرسلون ٤٧

فإني غفور رحيم ٥١

تسع آيات إلى فرعون ٥٦

قالوا هذا سحر مبين ٥٩

فانظر كيف كان عاقبة المفسدين؟ ٦٢

ولقد آتينا داود وسليمان علماً........................ ٦٥
وورث سليمان داود................................ ٧٠
وحشر لسليمان جنوده.............................. ٧٩
حتى إذا أتوا على واد النمل......................... ٨١
رب أوزعني أن أشكر نعمتك......................... ٨٤
وتفقَّد الطير.. ٨٨
ليأتينِّي بسلطان مبين............................... ٩١
وجئتك من سبأ بنبأ يقين............................ ٩٤
إني وجدت امرأة تملكهم............................ ٩٨
وجدتها وقومها يسجدون للشمس.................. ١٠٣
ألا يسجدوا للَّـه.................................... ١٠٧
رب العرش العظيم.................................. ١١٠
قال سننظر... ١١٢
اذهب بكتاب هذا.................................. ١١٥
أُلقي إليَّ كتاب كريم................................ ١١٧
إنه من سليمان...................................... ١١٩
ألَّا تعلوا عليَّ.. ١٢٢
أفتوني في أمري..................................... ١٢٤
فانظري ماذا تأمرين................................. ١٢٨
إذا دخلوا قرية أفسدوها............................. ١٣٠
فناظرة بم يرجع المرسلون........................... ١٣٦
فما آتاني اللَّـه خير مما آتاكم......................... ١٣٨
فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها....................... ١٤٣
أيكم يأتيني بعرشها؟................................ ١٤٧

إني عليه لقوي أمين ١٤٩

هذا من فضل ربي ١٥١

نكروا لها عرشها ١٦٠

أهكذا عرشك؟ ١٦٢

وصدها ما كانت تعبد من دون اللَّـه ١٦٤

رب إني ظلمت نفسي ١٦٦

أعبدوا اللَّـه ١٧٣

لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ ١٧٨

بل أنتم قوم تفتنون ١٨٢

يفسدون في الأرض ولا يصلحون ١٨٦

قالوا تقاسموا باللَّـه ١٨٩

ومكروا مكراً ١٩٢

أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ١٩٥

فتلك بيوتهم خاوية ١٩٨

وأنجينا الذين آمنوا ٢٠٠

أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟ ٢٠٢

بل أنتم قوم تجهلون ٢٠٧

أخرجوا آل لوط من قريتكم ٢١٠

فأنجيناه وأهله ٢١٣

فساء مطر المنذرين ٢١٥

اللَّـه خير أما يشركون؟ ٢١٧

بل هم قوم يعدلون ٢٢٢

بل أكثرهم لا يعلمون ٢٢٦

قليلاً ما تذكرون ٢٢٩

تعالى اللّـه عمَّا يشركون ٢٣٢
هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ٢٣٤
قل لا يعلم الغيب إلا اللّـه ٢٣٧
بل هم منها عمون ٢٤٣
أئنا لمخرجون؟ ٢٤٨
إن هذا إلا أساطير الأولين ٢٥١
فانظروا كيف كانت عاقبة المجرمين ٢٥٣
ولا تحزن عليهم........................ ٢٥٦
متى هذا الوعد؟ ٢٥٨
ردف لكم بعض الذي تستعجلون........................ ٢٦٠
وإن ربك لذو فضل على الناس ٢٦٣
وإن ربك ليعلم.. .... ٢٦٥
إلا في كتاب مبين........................ ٢٦٧
القرآن يقص على بني إسرائيل ٢٧٠
وإنه لهدى ورحمة........................ ٢٧٣
إن ربك يقضي بينهم بحكمه ٢٧٥
إنك على الحق المبين ٢٧٧
إنك لا تُسمع الموتى ٢٨٠
وما أنت بهادي العمي ٢٨٣
بآياتنا لا يوقنون........................ ٢٨٦
فهم يوزعون........................ ٢٩١
أمّاذا كنتم تعملون؟........................ ٢٩٤
فهم لا ينطقون........................ ٢٩٦
إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ٢٩٩

وكل أتوه داخرين ٣٠٣
صنع اللّـه ٣٠٦
وهم من فزع يومئذ آمنون ٣١٠
هل تجزون إلا ما كنتم تعملون؟ ٣١٤
وأمرت أن أكون من المسلمين ٣١٧
إنما أنا من المنذرين ٣٢٠
وما ربك بغافل عما تعملون ٣٢٣

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ.

سيبقى كتاب ربنا المجيد الأكثر تأثيراً في مسار العالم، ذلك لأن الله قد فرضه على خلقه فرضاً. قال الله سبحانه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

بلى؛ وهو الكتاب الذي أنزله الله لكي يكون المهيمن على الكتاب كله، وحتى يُظهره الله سبحانه على الدين كله، حيث قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[2].

وهكذا؛ طوبى ثم طوبى لمن وفّقه الله لكي يعتصم بالكتاب،

(١) سورة النور، آية ١.
(٢) سورة الفتح، آية ٢٨.

ويخدم الأمة بنشر معارفه، وترسيخ مبادئه، وصياغة الناس في بوتقته.. لكي تعود الأمة كما أرادها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطاً، أمة شاهدة على تطبيق العدل وإقامة الحق، أمة مدافعة عن كل مستضعف وداعية إلى الخير.

ونحن نشكر الله تعالى أن وفَّقنا لأداء بعض الخدمة لهذا الكتاب العزيز في تدبر آياته، واستنباط أفكار جديدة منها، لعلها تساهم في إحياء الأمة.

إننا نشكر الله شكراً متواتراً، ونسأله أن يُوفِّقنا للمزيد، وأن يجعل ذلك ذخراً عنده ليوم لا ينفع مال ولا بنون إلَّا من أتى الله بقلب سليم.

محمد تقي المدرسي

٨ شوال ١٤٣٤هـ

تلك آيات القرآن

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾.

***

من الحديث

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث: «**أَمَّا** ﴿طسٓۚ﴾ **فَمَعْنَاهُ أَنَا الطَّالِبُ السَّمِيْعُ**»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ؛ زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ**

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٢٢.

وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ. فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِيهِ مَنَارُ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، فَلْيَجْلُ جَالٍ بَصَرَهُ وَيَفْتَحُ لِلضِّيَاءِ نَظَرَهُ فَإِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَنِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ**»[2].

تفصيل القول

قبل البدء، لا بد من القول: إن آيات الله تعالى تتجلى في كتابه الحكيم الذي يُسقط الحجب التي تحول بين الإنسان وربه، كما أن بلاغته النافذة تهز الضمائر بما تُبشر به من الثواب أو تُنذر عن عظيم العقاب. وهكذا ترى القرآن المجيد كله كتاب هداية بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن أمثلة هذه الحقيقة ما نجد في سورة النمل المباركة، التي تتمحور حول تجلِّ الرب لعبده النبي موسى عليه السلام، ثم تُبيِّن قصة النبي سليمان عليه السلام.

فكما هي لحظة التجلي لموسى بن عمران عليه السلام عند الشجرة المباركة، واصطفائه بالرسالة، وتكليفه بأعباء النبوة، وأمره بمواجهة فرعون.. كذلك كانت لحظة التجلي للنبي سليمان بن داود عليهما السلام، وهي لحظة تواصل السماء والأرض، والغيب والشهود، حيث اختير سليمان -كما كان أبوه من قبل- ممثلاً للحكم الإلهي في الأرض.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٧٦.
(٢) الكافي الشيخ الكليني، ج٢، ص٦٠٠.

والقصة بمجملها تُبيِّن أن القرآن -بكل ما يحمل من حكمة وموعظة وتعاليم، كما سائر الكتب الإلهية- لم ينزل لكي يُقرأ ثم ليوضع على الرفوف، وإنما أُنزل لِيُطبق في واقع الحياة البشرية ويتحول إلى نظام اجتماعي وثقافي وسياسي بإذن الله تبارك وتعالى.

١- ﴿طسٓمٓ﴾

لعل هذه الأحرف تُشير إلى أن القرآن مكوَّن من مجموعة أحرف، أراد الله تعالى لها أن تُصبح قوالب للحكمة الربانية. وهذه نعمة إلهية عظيمة، حيث يتم توضيح معارف لا تنتهي عبر (٢٨) حرفاً عربيًّا فقط، وما أجمل ذلك من لطف ونعمة على البشرية. وقد يُراد بهذه الأحرف أيضاً الإشارة إلى أن ثمة رموزاً بين الله سبحانه وبعض عباده الذين اصطفى، وهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة المعصومون خلفاؤه الشرعيون عليهم السلام، وهم الذين أذن لهم بحمل كل علومه وأنواره.. وربما الأحرف المقطعة تكون لذكرها في مقدمات بعض السور القرآنية علل وغايات أخرى يعلمها الله تبارك اسمه والراسخون في العلم من عباده.

٢- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾

أي: إن الآيات قد تكونت من كلمات، والتي أضحت كتاباً مبيناً، وهدى وبشرى لأولئك الذين يتحلون بصفة الإيمان بالله.

وبما أن الإنسان قد حمل عقلاً، وأوتي هدىً، ورُزِق فطرة.. فإن دور القرآن دور تحفيز الفطرة واستثارة العقل.

ذلك لأن الآيات تعني العلامات، وهي تدعو الإنسان ليتفكر. وما الكلمات سوى جسر من الحقائق إلى حقائق أكبر وأعظم.

٣- ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾

القـرآن هو النص الجديـر بالقراءة، وإنما القراءة هي التي تسـبر أغـوار الكلـمات وتَتَّخِذ منهـا مفتاحاً لفتـح مغاليق العلـوم. ولذلك؛ كان حريًّا بأن تُؤخذ الكلمة القرآنية وسيلة لفض العقل وإثارته، لكي يتوجه نحو اكتشاف الحقائق.

وعليـه؛ فـإن هنـاك مهمتـين للإنسـان حيـال القـرآن؛ الأولى: قـراءة القرآن، قراءة عميقة. والثانيـة: النظر من خلاله إلى ما حوله من الكائنات.

بـلى؛ إن القـرآن وفي مطلع نزوله، أمـر بالقراءة، ولكن ليسـت كيفما تكون القراءة، وإنما هي قراءة مقرونة باسـم الله المتعال، لأن هذا الاقتران يضمن للقارئ ألَّا يدور في حلقة مفرغة تؤدي به إلى التيه، إنما هي القراءة العارفة التي توجه الإنسان إلى ربه.

ولأنه قرآن، فإنه يشـار إليه بالبنان، ثم تهوي إليه القلوب لما فيه مـن جذابية بالغة لصفـات متوفرة فيه، فهو الأكثر قراءةً على المسـتوى البشري.

٤- ﴿وَكِتَابٍ﴾

الكتاب؛ يعني الثابت، والذي يعكس الحقيقة الراسخة. وهكذا نجـد أن كتـاب الله باقٍ بـاقٍ كما أنزله الـرب. ولقد ذهـب الذين قالوا بتحريف ونسـخ القرآن، كما ذهبت وساوسهم أدراج الرياح، ذلك أن الله عز وجل هو الذي وعدنا بحفظه وصيانته عن التحريف والتزوير.

ومـا يُميِّز القرآن أنه بعد أن نزل من عند الرب واسـتقر في قلب الرسول الأعظم ﷺ، وهو النبي الصادق الأمين الذي لا يضل بإذن

ربه ولا ينسى. بعدئذٍ تمَّ تدوينه بأمر النبي وتلاوته. فصار كتاباً بين أيدي الناس، وتوافرت الحوافز لكي ينتشر بينهم ويُحفظ بدقة متناهية.

ثم إن الكتاب، والذي يعني الحق الثابت، لا ولن يتغير. لماذا؟ لأنه من الله تعالى. فهو كله علم محيط، وحكمة بالغة، وتعاليم قيمة، لم تنشأ عن رأي متذبذب، بل إنه يعكس تلك السنن الثابتة والأنظمة المستقرة التي خلق الله العالم بها، وإنما المتغيرات هي الحوادث التي تقع في إطارها. وهذا من علامات صدقه؛ ولو أنه كان يفتقر إلى الإصلاح والتغيير، لما كان من عند الله أساساً، ولتكاثرت عليه التغييرات، ولما بقي كل هذه المدة المديدة على أصله، ولما اختلف وتفاوت عن بقية الكتب.

إن القرآن تبيان الله سبحانه لصراط الهدى، والوسيلة الوحيدة للزلفى منه سبحانه؛ ولأنه من عند الله المتعال، فهو تام ومتسامٍ عن تأثير المصالح أو الضغوط.

٥- ﴿مُّبِينٍ﴾

لما كان القرآن كتاباً ثابتاً، فهو كتاب مُبين، لا يأخذ ابن آدم إلى المجاهيل والتناقضات.. بل هو كاشف عن الحق ببلاغة رائعة تحمل المؤمن المخلص المتعلم بتواضع إلى الاطمئنان القلبي والسلامة الفكرية.

بصائر وأحكام

١- إن القرآن تبيان لصراط الهدى، ووسيلة للزلفى من رب

العزة، فلا يتغير بمؤثرات المصالح أو الضغوط.

٢- إن القـرآن -بكل ما يحمل مـن حكمة وموعظة وتعاليم كما سـائر الكتب الإلهية- لم ينزل لكي يُقرأ ثـم ليوضع على الرفوف، وإنما أُنزل ليطبق ويتحول إلى نظام ثقافي واجتماعي وسـياسي بإذن الله تبارك وتعالى.

هدى وبشرى

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَالدَّرَجَةُ الْعُلْيَا، وَالشِّفَاءُ الْأَشْفَى، وَالْفَضِيلَةُ الْكُبْرَى، وَالسَّعَادَةُ الْعُظْمَى؛ مَنِ اسْتَضَاءَ بِهِ نَوَّرَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عَقَدَ بِهِ أُمُورَهُ عَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ أَنْقَذَهُ اللَّهُ، وَمَنْ لَمْ يُفَارِقْ أَحْكَامَهُ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنِ اسْتَشْفَى بِهِ شَفَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ آثَرَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ هَدَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ طَلَبَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَعَلَهُ شِعَارَهُ وَدِثَارَهُ أَسْعَدَهُ اللَّهُ، وَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ الَّذِي يَقْتَدِي بِهِ وَمُعَوَّلَهُ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ أَدَّاهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ. فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿ هُدًى ﴾ يَعْنِي هَذَا الْقُرْآنُ هُدًى ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يَعْنِي بِشَارَةٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ. وَذَلِكَ

أَنَّ الْقُـرْآنَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالرَّجُلِ الشَّـاحِبِ يَقُـولُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: [يَا رَبِّ] هَـذَا أَظْمَـأْتُ نَهَارَهُ، وَأَسْـهَرْتُ لَيْلَهُ، وَقَوَّيْـتُ فِي رَحْمَتِكَ طَمَعَهُ، وَفَسَّـحْتُ فِي مَغْفِرَتِـكَ أَمَلَهُ، فَكُنْ عِنْـدَ ظَنِّي [فِيكَ] وَظَنِّـهِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْطُوهُ الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِـمَالِهِ، وَأَقْرِنُوهُ بِأَزْوَاجِهِ مِنَ الْحُورِ الْعِـينِ، وَاكْسَـوْا وَالِدَيْـهِ حُلَّـةً لَا يَقُومُ لَهَـا الدُّنْيَا بِـمَا فِيهَا. فَيَنْظُـرُ إِلَيْهِمَا الْخَلَائِـقُ فَيُعَظِّمُونَهُمَا، وَيَنْظُرَانِ إِلَى أَنْفُسِـهِمَا فَيَعْجَبَـانِ مِنْهَا فَيَقُولَانِ: يَا رَبَّنَـا أَنَّى لَنَـا هَذِهِ وَلَمْ تَبْلُغْهَا أَعْمَالُنَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَمَعَ هَذَا تَاجُ الْكَرَامَةِ، لَمْ يَرَ مِثْلَهُ الرَّاؤُونَ، وَلَمْ يَسْـمَعْ بِمِثْلِهِ السَّـامِعُونَ، وَلَا يَتَفَكَّرُ فِي مِثْلِـهِ الْمُتَفَكِّرُونَ. فَيُقَالُ: هَذَا بِتَعْلِيمِكُمَا وَلَدَكُـمَا الْقُرْآنَ، وَتَبْصِيرِكُمَا إِيَّاهُ بِدِيـنِ الْإِسْـلَامِ، وَرِيَاضَتِكُمَا إِيَّـاهُ عَلَى حُبِّ مُحَمَّدٍ رَسُـولِ اللَّهِ وَعَلِيٍّ وَلِيِّ اللَّـهِ، وَتَفْقِيهِكُمَا إِيَّـاهُ بِفِقْهِهِمَا لِأَنَّهُمَا اللَّذَانِ لَا يَقْبَلُ اللَّـهُ لِأَحَدٍ عَمَلًا إِلَّا بِوَلَايَتِهِمَا وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِمَا عَمَلًا، وَإِنْ كَانَ مَا بَيْنَ الثَّرَى إِلَى الْعَرْشِ ذَهَباً يَتَصَدَّقُ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَتِلْكَ الْبِشَارَاتُ الَّتِي يُبَشَّرُونَ بِهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ شِـيعَةِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَمَنْ تَبِعَهُمَا مِنْ أَخْلَافِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ»[1].

تفصيل القول

للإنسـان حاجـة بالغة الأهميـة في معرفـة الحـق، وفي تحقيقه في واقعـه.. ولا تتحقق المعرفة إلَّا بالهدى، ولا يتحقق الفلاح إلَّا بالعمل به.

إن تحسـس البشر بفـراغ روحه وعقله، يدفعـه إلى حب المعرفة. مَـنْ أنا؟ ما هذه الحيـاة؟ وما كل هذه الحـوادث التي تترى من حولي؟

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام، ص٤٤٩-٤٥١.

ومئات الأسئلة الحائرة التي تقض مضجع كل أبناء آدم. وإذا عرف الإنسان الحق، وتشبَّع عقله وروحه بالعلم، أحس بحاجاته المادية، فإذا به يبحث عن تحقيقها بأيّة وسيلة مثلى.

وهكذا أنزل الله كتابه للوفاء بهاتين الحاجتين؛ الحاجة إلى معرفة الحق، والحاجة إلى تطبيقه للوصول إلى الفلاح.

وكذلك كان القرآن هدى إلى الحق، وبشرى للوفاء بكل الحاجات. إنما هناك شرط أساس يتمثل في الإيمان، لأنه من دون الإيمان بالقرآن وأنه كتاب مبين، أنّى للبشر أن يستوعب معارفه، ثم أنّى له أن يطبقها في واقعه. وهكذا قال ربنا سبحانه:

﴿ هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق، ويُؤمِّن حاجات البشر المعنوية.

﴿وَبُشْرَىٰ﴾ إلى الحياة السعيدة التي تحقق حاجاته المادية.

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فعليك أيها الإنسان أن تتقدم خطوة إلى القرآن ليقدم لك القرآن ما تحتاجه، وذلك بالإيمان الذي يمثل في الحقائق التالية.

بصائر وأحكام

للإنسان نمطان من الحاجة؛ **الأول**: حاجته إلى الهدى لإرواء ظمئه إلى المعرفة، **والثاني**: حاجته إلى الفلاح. وكذلك أنزل الله كتاباً يهديه إلى الحق، ويبشره بحياة طيبة، ولكن عليه أن يؤمن به عمليًّا حتى ينفعه القرآن.

وهم بالآخرة هم يوقنون

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾.

***

من الحديث

عن إسحاق بن عمار قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم صَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ، فَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَخْفِقُ وَيَهْوِي بِرَأْسِهِ، مُصْفَرّاً لَوْنُهُ، قَدْ نَحِفَ جِسْمُهُ، وَغَارَتْ عَيْنَاهُ فِي رَأْسِهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مُوقِناً. فَعَجِبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ قَوْلِهِ، وَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي، وَأَسْهَرَ لَيْلِي، وَأَظْمَأَ هَوَاجِرِي؛ فَعَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي وَقَدْ نُصِبَ

لِلْحِسَابِ، وَحُشِرَ الخَلَائِقُ لِذَلِكَ وَأَنَا فِيهِمْ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الجَنَّةِ وَيَتَعَارَفُونَ وَعَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِخُونَ، وَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» ثُمَّ قَالَ لَهُ: الزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ. فَقَالَ الشَّابُّ: ادْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ أُرْزَقَ الشَّهَادَةَ مَعَكَ. فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتُشْهِدَ بَعْدَ تِسْعَةِ نَفَرٍ وَكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ»[(١)].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «أَيُّهَا النَّاسُ، سَلُوا اللَّهَ الْيَقِينَ، وَارْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الْعَافِيَةِ، فَإِنَّ أَجَلَّ النِّعْمَةِ الْعَافِيَةُ، وَخَيْرَ مَا دَارَ فِي الْقَلْبِ الْيَقِينُ. وَالمَغْبُونُ مَنْ غُبِنَ دِينُهُ، وَالمَغْبُوطُ مَنْ غُبِطَ يَقِينُهُ»[(٢)].

تفصيل القول

أفضل ما يفوز به العاقل في حياته اليقين، لأنه يُعرِّفه الحقائق ويجعله متفاعلاً معها؛ يعايشها في عقله وقلبه وسلوكه، فلا يشذّ عمله عن خطِّها المستقيم. ولعل أعظم حقيقة تغيب عن ابن آدم، العالَم الآخر، لأنه محجوب عنه بدنياه. أرأيت من يختبئ وراء شجرة، كيف تغيب عنه الغابة على سعتها؟ كذلك الذي يستبد بعقله ما في دنياه من شهوات ضاغطة، ومن بيئة اجتماعية جامحة، ومن غفلة نفسية، وغيرها.. إنه يلهو عن الآخرة وهي محيطة به، وهو صائر إليها بخطى

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٥٣.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤٨.

حثيثة.. وهكذا الذي يفوز باليقين بها حقًّا، يفوز بنعمة كبيرة.

والمؤمنون الذين ترتكز علاقتهم بربهم عبر الصلاة، وعلاقاتهم بالناس عبر الزكاة، يجعلون من صلواتهم معراجاً إلى اليقين بالله وباليوم الآخر، وكذلك يخرجون بالزكاة من شح أنفسهم ليطَّلعوا على العالم الآخر.

حقًّا؛ إنهم يُقيمون الصلاة التي تُذكِّرهم بربهم، وتُنبِّههم من غفلة، ويُؤتون الزكاة التي تُنقذهم من حجاب حب الدنيا وشهواتهم، فينظرون إلى آيات الآخرة فإذا بهم يوقنون.

بصائر وأحكام

اليقين مغنم عظيم يفوز المؤمنون به بالصلاةالتي تعرج بهم إلى رحاب ربهم، وبالزكاة التي تُنجيهم من شح أنفسهم.

فهم يعمهون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾ .

***

من الحديث

روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال: «**هُوِ الرَّجُلُ يَكْتَسِبُ المَالَ، وَلَا يَعْمَلُ فِيْهِ خَيْراً، فَيَرِثهُ مَنْ يَعْمَل فِيْهِ عَمَلاً صَالِحاً، فَيَرَى الأَوَّلُ مَا كَسَبَهَ حَسْرَةً فِيْ مِيْزَانِ غَيْرِهِ**»[1].

وروي عن طاووس اليماني، عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في حديث قال: «**مَعَاشِرَ أَصْحَابِي؛ أُوصِيكُمْ بِالْآخِرَةِ، وَلَسْتُ أُوصِيكُمْ بِالدُّنْيَا، فَإِنَّكُمْ بِهَا مُسْتَوْصَوْنَ، وَعَلَيْهَا حَرِيصُونَ، وَبِهَا مُسْتَمْسِكُونَ.**

(١) تفسير التبيان، الشيخ الطوسي، ج٢، ص٦٩ .

مَعَاشِرَ أَصْحَابِي؛ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ، وَالْآخِرَةَ دَارُ مَقَرٍّ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ، أَمَا رَأَيْتُمْ وَسَمِعْتُمْ مَا اسْتُدْرِجَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ؟ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ فُضِحَ مَسْتُورُهُمْ وَأُمْطِرَ مَوَاطِرُ الْهَوَانِ عَلَيْهِمْ، بِتَبْدِيلِ سُرُورِهِمْ بَعْدَ خَفْضِ عَيْشِهِمْ وَلِينِ رَفَاهِيَتِهِمْ صَارُوا حَصَائِدَ النِّقَمِ وَمَدَارِجَ الْمَثُلَاثِ»(١).

تفصيل القول

لما كان الإيمان بالآخرة تجسيداً لإقرار عقلي ونفسي بأن الحياة الدنيا إنما خُلِقت لحكمة مشيدة على أساس الحق والمنطق، وهي وجود سُنَّة الجزاء وعدم إيكال مصير الدنيا إلى اللهو واللعب والباطل، وبما أن الناس فيها على أنماط متعددة، فإنه لا يعقل أن تنتهي مصائرهم إلى نقطة واحدة، وإنما سيحاسبون دقيقاً، ثم سيجزون جزاءً متفاوتاً حسب أعمالهم.

وكل هذه الحقائق العقلية تُزوِّد الإنسان بنور يهديه إلى مزيد من الحق، والذي يرفض الإقرار بها، فإنما يرفض النور. فما بالك بمن يرفض النور، فهل يعيش إلَّا في الظلام؟

إن عدم الإيمان بالآخرة، وإن كان خياراً من الخيارات المتاحة أمام الإنسان، أتيح للبشر لكي يمتحن؛ وأن لهذا الخيار تبعات على صعيد دنيا الإنسان وآخرته، لأنه مسؤول عمَّا يختار، إن خيراً أو شرًّا.

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٢٨٩.

والدنيـا بتركيباتهـا ممتدة إلى الآخـرة. إنها حياة واحدة منقسـمة إلى شـطرين؛ الشطر الأول منها مزرعة للشطر الثاني، فيما الشطر الثاني انعـكاس جلي لما أقدم عليـه ابن آدم في الشـطر الأول الدنيا. فمن كفر في الشـطر الأول سـيعجز عن تصور الهناء في الشطر الثاني، ناهيك عن لمسه والعيش فيه.

أمـا عاقبة عدم الإيـمان بالآخرة، فهي الضـلال البعيد، وضياع كل الفرص.

ويُصـوِّر السـياق هـذا الضياع بصورتـين متشـابكتين؛ الأولى: صورة التزيين. والثانية: صورة العَمَه.

أمـا التزيين؛ فهـو أن يرى الحقائق أباطيل. فغير المؤمن سـتتغير لديه المقاييس، فيرى الحق باطلاً والباطل حقًّا. لماذا؟

لأنه رفض الإيمان بحقيقة عقلية وفطرية، هي الأكبر بين حقائق الخلق، ونعني بها حقيقة الآخرة.

وهكـذا يُصبـح ترك العمـل بالعقل ومقاييسـه، ثـم تبرير ذلك الترك بتفسـيرات خاطئة لأحكام العقل سـبباً لاختـلال الرؤية وقلب المعايير عند الفرد.

أتـرى الـذي يُكذِّب بالحقيقة الكـبرى المتمثلـة في حتمية الآخرة باعتبار أنها تجلٍّ لأسـماء الله سبحانه وتعالى؛ مثل عدله وحكمته وقدرته وما تدل عليه منطقية الحياة وهدفيتها وعدم عبثيتها.. مثل هذا الفرد إنما يرمي بنفسـه في أتون ورطة، تتمثل في قلب المقاييس؛ فتراه يتصوَّر الحق باطلاً، والصح خطأً، والمنطـق جنوناً، والتيه هدىً.. يصير بذلك أطوع مطية للشيطان العدو الأول والأكبر للبشرية يسوقه أينما وكيفما شاء.

لماذا وكيف يعمهون؟

وأمـا العَمَه، فإنها لغةً العمى الخلقـي؛ أي منذ الولادة. والفرق كبـير في تصـورات الفرد المصاب بالعمى منـذ ولادته، وتصورات من يصاب بالعمى بعد أن كان بصيراً.

فـالأول تنقصه تصورات حقائق كثيرة (قـد) تؤدي به إلى مزيد مـن النقص. فهو يجهـل مثلاً حقيقة النور أو اللـون وأمثالها، مما يلحق بتصوراتـه للأشـياء والأمور والحالات أضراراً بالغـة، (قد) لا يعانيها المصاب بالعمى بعد حين.

والذي يكفر بالآخرة، وبسـبب تزيـين النفس لكفره، إنما يكون شأنه شأن المصاب بالعَمَه، حيث يفقد حتى تصور الحقائق.

فكـما الأخـير هـذا عاجـز عن فعل مـا يفعل السـالم البـاصر أو المصـاب بالعمـى بعد أن تعـرف إلى ما حولـه واختـزل كل الصور في مخيلته وذاكرته.

كذلـك من لا يؤمـن بالآخـرة نظريًّـا وعمليًّا يعجز عـن تقييم مـا يقوم به مـن الأعمال والنشـاطات، لأنه انعدم فيـه المعيار الصحيح للتقييـم.. هـذا المعيار الذي يمكن أن نطلق عليه اسـم النفس اللوامة، أو الفطرة السـليمة بعلّة رفضه للحقيقة الكبرى، وهي حتمية حصول الآخـرة، ومسـار الدنيـا إلى نقطـة التقييم والمحاسـبة العظمـى، وهي المتجسدة في اليوم المسمى بيوم الدين.

ومثـال الذين لا يؤمنون بالآخرة، أولئـك الذين قَتَلوا وأزهقوا أرواح عـشرات الآلاف في لحظة إجرام واحدة لدى إسـقاطهم القنبلة

الذريـة عـلى مدينتـي هيروشـيما ونكازاكـي اليابانيتـين، حيـث تراهم لا يزالون يبررون جريمتهم العظيمة هذه بداعي (الدور الايجابي) لهذه الجريمة بفرض السلم العالمي.

وهـذا الخبـط نابـع مـن أن الله تعالى قد سـلب هـؤلاء عقولهم، وهَمّـش فطرتهم عـن أن تلعـب دوراً بنَّـاءً في تصوراتهـم وتصرفاتهم، نتيجة كفرهم بالآخرة الذي يستتبع كفراً على سائر الأصعدة.

بصائر وأحكام

من لا يستجيب لمعايير عقله ولنداء فطرته بالإيمان بالآخرة التي تتجلّى فيها أسـماء الله سبحانه من الحكمة والعدالة والقدرة.. إنه يخسر تلك المعايير، فيُصاب بالعَمَه، فإذا به يفقد حتى مجرَّد تصوُّر الحقائق في نفسه، نستجير بالله تعالى.

في الآخرة هم الأخسرون

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**مَا أَخْسَرَ مَنْ لَيْسَ لَهُ فِيْ الآخِرَةِ نَصِيْبٌ**»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾

إن من ضيّع على نفسه الكرامة الإلهية المتمثلة في قدرة التمييز بين

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٤٥، حديث رقم ٢٦٠٩.

الحق والباطل، سيعاني بإرادة الرب العزيز المنتقم العذاب في الدنيا مرة وفي الآخـرة أخرى. ويكـون مثله مثل الأعمى الـذي تواجهه صخرة من أمامه وحفرة من خلفه، فلا هو يرى الصخرة فيتجنب الاصطدام، ولا هو يُبصر الحفرة فيتحاشـى السـقوط. وهكذا مـن يكفر بالآخرة، إذ سُـلبت منه أداة المعرفة التي تُعينه على التكيُّف مع الطبيعة، والقدرة على تقييم ما يحيط به، فتراه يتصرف بلا هدى، وهكذا تراه يخسر الدنيا والآخرة.

٢- ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾

وهذا العذاب أشد وقعاً ومدعاة للحسرة.

فالكافـر بالآخـرة، وبعـد أن زُيِّـن له سـوء عمله، فصـار يظن أنـه على هدى، هو الأخـسر كما قال ربنا سـبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[1].

فهناك من هو خاسر في الدنيا و خاسر في الآخرة، وهناك من هو أخسر في الدارين. فمن هو الأشد خسارة؟

إنـه الذي يظن أنه يُحسـن صنعاً. لماذا؟ لأنه حينـما كفر بالآخرة ضيَّع المعايير، فرأى الخير شرًّا والشر خيراً؛ إنه تماماً كمن يعتمد بوصلة غير سليمة، فيسير بعكس الاتجاه الذي يجب أن يسلكه.

وهذه الآية الشريفة توجّه إنذاراً إلهيًّا، هو الغاية في الشدة، يجعل المتدبـر فيهـا يسـتولي عليه رعب هائـل، إذ المبتلى بهذا الخسران الأشـد

(١) سورة الكهف، آية ١٠٣-١٠٥.

درجة يضل الطريق من حيث لا يدري دون أن تبقى لديه فرصة العودة إلى الحق.. وذلك بسبب ما زُيِّن له جهله وغروره وتكبره؛ فهو يعيش في ظلمات بعضها فوق بعض، وظلمات الآخرة أحلك وأقسى.

بصائر وأحكام

إن مَنْ لا يؤمن بالآخرة يُضيِّع على نفسه الكرامة الإلهية المتمثلة في قدرة التمييز بين الحق والباطل، وأنه سيُعاني أشد خسارة لأنه يظن أنه يحسن صنعاً، فلا تبقى لديه فرصة إصلاح واقعه.

لتلقّى القرآن من حكيم عليم

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

يبـدو أن هذا النص القرآني الشريـف هو في الحقيقة من المحاور الأسـاس في سـورة النمـل، وإنما قـدّم الله تعـالى الحديث عـن الإيمان بالآخـرة، لأن الكافر بالآخرة قـد أُصيب بالعَمَـه في البصيرة، ومهدد بأكثر من عقوبة وأشد من خسارة.

وهكذا السياق القرآني قبل أن يتحدَّث عن القرآن وصفته يُحذِّر مـن الكفر، فيُذكِّرنا بأن مصير الكافر بالآخرة سـوء العذاب في الدنيا، وهو في الآخرة أخسر الناس عملاً.

ونجد مثل هذا المنهج الفريد في سـائر الآيات، فكلما ذكَّرنا ربنا بالرسالة أو بواجب مستصعَب، حذَّر من مغبَّة الكفر. لماذا؟

لأن أول رد فعـل للإنسـان في مواجهـة حقيقة كبـيرة تتمثل في الكفر بها حتى من دون أدنى تأمل فيها، فكان بحاجة إلى تحذير شـديد من الكفر، لكي يرتفع إلى مستوى التفكير في الحقائق ودراسة براهينها؛ وأنه لو فعل ذلك، إذاً هُدي إليها، وسهل عليه أمر القبول بها.

ثـم يُحدِّثنا الله سـبحانه وتعالى عن القرآن المجيـد، وكيف ينبغي أن يكون موقف النبي الأكرم ﷺ، وموقف من يكون امتداداً له، من الإمام المعصـوم، والعالم العامل، والمؤمن المسـؤول.. إنه موقف الإيمان التام بأنه الكتـاب الهادي الذي تنزّل من لدن حكيم بأمور العباد وما يصلح لهم من التعاليم، والعليم بأعمال العباد و ما يصدر عنهم من أفكار وممارسات.

وليـس غريباً أن ينزل هـذا القرآن المجيد من لـدن حكيم عليم عـلى بـشر يراه النـاس، ويـأكل الطعام، ويعتريه الألم، ويشـارك سـائر البـشر في أمورهم الفطرية.. ذلك أن الوحي قد نزل على بشر من قبله، تلقَّـوا الوحي أيضاً. وهذه الآيـات القرآنية الكريمة تصدح بقصصهم وعصمتهـم وجهادهـم ومعاناتهـم.. وهـي جديرة بـأن يُسـتمع إليها ويُتدبَّـر فيها، فيتم التعرُّف من خلالهـا إلى كيفية تلقِّي العبد (المصطفى مـن جانب العلي الأعلى) نور الوحي من رب العزة، فيكون بشراً حقًّا، ولكنه لا ينطق عن نفسه، وإنما كلامه وحي يوحى.

إن قصـة الوحـي قصة واحـدة، مـن أبينا آدم عليه السلام إلى سـيدنا ومولانـا الحبيب المصطفـى محمد ﷺ، ولكن المفـترض بنا أن نُؤمن بهـم كلهـم، ولا يجوز الإيـمان ببعضهـم والكفر ببعض آخـر. ولذلك يُـورد النص القرآني الشريـف كلمة (إذ) في مطلع الآية التالية، لدورها في الدلالـة على التذكُّـر، وهي كلمة طالما تكرَّرت في السـور والآيات، لإلفات الأنظار إلى أمر هامٍّ يُراد التحدُّث عنه والاهتمام به.

بصائر وأحكام

قصة الوحي واحدة عند كل الأنبياء، وهكذا كلما تذكرنا قصص الأنبياء عليهم السلام زدنا إيماناً ومعرفة بالنبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم. وعلينا -حين نتدبر في قصص الأنبياء عليهم السلام- أن نتأمَّل في ذلك المحتوى الذي تتكرَّر صوره وتجلياته وحقيقته واحدة.

إني آنست ناراً

﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧﴾.

* * *

تفصيل القول

١ – ﴿إِذۡ﴾

لم تُستعمل هذه الكلمة للإشارة إلى ظرف زمان، لأن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتلقّى القرآن في عصر موسى عليه السلام، وهو موقع موضوع الآية الشريفة. وإنما الكلمة تُستعمل في القرآن الكريم لأهمية تذكّر الواقعة، لقوة التشابه بين الوحي الذي نزل على النبي موسى بن عمران عليه السلام، والوحي الذي نزل على قلب نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد يكون وجه الشبه هو أصل الاتصال بين الله تعالى وعبده الذي اصطفاه للنبوة، مع الفارق في نوع الاتصال. والنبي في كلا

الحالتين يصل إلى مرحلة من مراحل الكمال والولاية الإلهية.

بلى؛ إن الله تعالى أمر الناس بالإيمان بالغيب، ومن الغيب نزول الوحي على المصطفين من عباده. ولكي يسهل الله تبارك وتعالى الأمر على الناس، فقد أوعز لهم بقراءة القرآن الكريم وما ورد فيه من أخبار الأنبياء والمرسلين.

أما نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقد أوحى الله تعالى إليه ما أوحى، فلم يكذب فؤاده المقدس الشريف ما رأى. فكانت حالة النبي لدى الاتصال بنور الله عز وجل اتصالاً بالقلب والجوهر وهو عند سدرة المنتهى وبالأفق الأعلى، حتى دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله إلى عبده المصطفى ما أوحى.. إشارة إلى العظمة في أبعاد ومديات ذلك الوحي.

النبي موسى عليه السلام على عظمته وكرامته، رأى ناراً، وسمع كلاماً، بينما النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رأى نوراً من سدرة المنتهى في الأفق الأعلى. والفرق كبير بين النار والنور.

٢- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾

هذه هي اللحظة التي سبقت لحظة الوحي، حيث الليل والبرد والصحراء، وحيث اضطر النبي موسى عليه السلام إلى البحث لأهله عمّا يمكن أن يقيهم البرد والظلام في تلك البقعة الغريبة عليهم.

وفي زاوية من الزوايا رأى ناراً وآنس بها؛ أي اطمأن لأمرها.

٣- ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾

إذ احتمل أن تكون النار لجماعة، فيطلب منهم الضيافة، أو ليعرف حقيقة هذه النار الكائنة في ذلك الوادي.

٤ - ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

يبـدو أن أهل موسـى عليه السلام كانوا أكثر من زوجتـه، وكانوا قد أزعجهـم الظـلام والبرد، فـأراد عليه السلام وهو الشريف الغيـور أن يلبي حاجتهـم بالإتيـان منها بقبس من النار ليتلمسـوا موقعهـم وطريقهم ويدفعوا عن أنفسهم البرد.

بصائر وأحكام

إن الله تعـالى أمـر النـاس بالإيمان بالغيـب، ومـن الغيب نزول الوحـي على المصطفين من عباده. ولكي يسـهل الله تبارك وتعالى ذلك عليهم، فقد ذكَّرهم بالمزيد من أنباء الأنبياء السابقين عليهم السلام.

بورك من في النار ومن حولها

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾.

***

تفصيل القول

رأى النبي موسى عليه السلام النار، وكانت مُتوهِّجة للغاية، ولكن ما يلفت النظر فيها أنها لم تكن تحرق ما فيها من ورق وأغصان، إنما كانت تزداد تلك الشجرة اخضراراً. فهذه النار إذن تختلف عن باقي النيران.

أمام هذا الواقع الجديد على النبي موسى عليه السلام، وأمام هذا التشكُّل لمهرجان الوحي، انتقل النبي موسى من عالم الدنيا المادي إلى عالم الملكوت.

١ - ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾

بلى؛ هو النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقترب من النار كل الاقتراب، ولعل يد الغيب هي التي كانت تحركه. وإنما هو جاء النار؛ أي قصدها، فوقف على مبعدة منها، فجاءَه النداء ليس من قريب أو بعيد جدًّا، ولعل توهُّج النار كان يمنعه من المزيد من الاقتراب منها.

والنداء كان يحمل رسالة، وهي حلول البركة على من في النار وليس في النار مباشرة.

ولكن من هو الذي في النار؟ وما هي حقيقة هذه البركة؟

الله تعالى هو مصدر البركة في كل شيء. وبالتأكيد لم يكن الرب أو جزء منه قد حل في النار، كما قد يظن الجهلة، إذ الله سبحانه لا يسعه متسع، ولا يحده حدّ، فهو لأنه خالق كل المتسع و الحد.

وفي الفعل إشارة إلى حلول البركة في مخلوق في النار، وقد باركه الله تعالى. وهذا المخلوق هو غير النار ولم يكن غير عاقل، وإلَّا لاحتيج لاستعمال (ما). فمن كان في تلك النار؟

بما أن النداء الذي انبعث من وسط الشجرة كان إيذاناً برسالة النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن من المحتمل أن يكون هو المقصود بِمَنْ في النار، وأن يكون تابعوه هم المراد بمن حول النار، لأن رسالة الله إلى الأنبياء بركة عليه أولاً، ثم على المؤمنين بهم.

ولعل الملائكة -ومنهم المقربون- كانوا هناك، وكانت لهم مشاركة بإذن الله في ذلك المهرجان العظيم، مهرجان اصطفاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبوة. ولعل هذا يُشبه حالة الوحي إلى النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حيث كان يرافق الوحي بعض الأحيان جموع من الملائكة الكرام.

وثَمَّ سؤال يطرح نفسه عن حقيقة رمزية النار في هذه المناسبة، ويمكن القول: إن النار في الحقيقة رمز حضارة الإنسان، وإنما تحل البركة فيها ممَّن يقف وراءها وهو الإنسان الصالح. وهذا رد على من عبد النار جهلاً، بأنها مجرد وسيلة.

ولعل ملائكة آخرين كانوا يُحيطون بالشجرة المُتَّقدة بالبركة والعطاء، لإكمال الصورة وتوضيحها للنبي موسى عليه السلام، وليعرف حقيقة الرسالة التي اصطفي من جانب الله تعالى لأجلها، ذلك أن الرسالة يُراد لها أن تكون مشروعاً متكاملاً لإنقاذ البشرية، والقضاء على حقبة مديدة من الكفر والظلم والطغيان، والتأسيس لتاريخ جديد، تاريخ التوحيد الخالص.

٢- ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

على الإنسان ألَّا ينبهر بهذا المنظر العظيم فتدخل عليه وسوسة تقديس غير الله، ويغفل عن ذكر الله تعالى، إنما عليه أن يتَّخذ هذا المنظر وسيلة لتكريس التوحيد وتنزيه رب العالمين؛ حاشا جلاله أن يتحدد بنار محصورة في طرف الصحراء، وله ما في السماوات والأرض.

بصائر وأحكام

عن رمزية النار، يمكن القول: إنها رمز مرحلة متطورة من مراحل حضارة الإنسان، وإنما تحل البركة فيها ممن يقف وراءها وهو الإنسان الصالح. وهذا رد على من قدَّسوا النار وعبدوها من دون الله خالقها سبحانه.

أنا اللّه العزيز الحكيم

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾.

***

تفصيل القول

عندما تهيج بالإنسان عواصف الفتن، وحينما يعيش ظروفاً صعبة، ولا يجد وسيلة لإنقاذه، فإن قلبه يتعلّق بِمَنْ يدبّر أمر العالم، ومَنْ هو أقوى مِنْ كل الصعاب، ألا وهو الرب العزيز الحكيم.

وتلك كانت حال موسى بن عمران عليه السلام في ظروفه الصعبة، حيث منحه الرب تبارك و تعالى قوة هائلة، استطال بها على كل الظروف، لإعلامه بأنّ مَنْ يُدبِّر الأمور والمهيمن على شؤون الكائنات، ليس العبد وإنما هو ربه سبحانه وتعالى.

ونبي كموسى عليه السلام قد حُمّل مسؤولية كبيرة، وهي مسؤولية تحطيم عرش فرعون وألوهيته الكاذبة، لا بد له من أن يستمد العزم

والقدرة والحكمة من جبار السماوات والأرض لتحقيق هذا الواجب.

١- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾

وهكـذا جاء الخطـاب تشريفاً لموسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومصداقاً لتكليم الله تعـالى لموسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ تكليماً مباشراً، فاذا به يسـمو إلى هذه الدرجة العاليـة مـن بعد أن كاد يضيع في رحاب الصحـراء، هو وأهله في ذلك الليل البهيم.

٢- ﴿إِنَّهُۥٓ﴾

أي: انتبه واعرف وتأكّد.

٣- ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾

لم يقل سبحانه وتعالى لموسى: ألَّا تخف، ولم يحمله على الاطمئنان بدءًا، وإنما لفت نظره مؤكِداً بأنه هو الله، وهو مصدر الاطمئنان، و منه تُستمد الثقة والعزة والقوة.

٤- ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

إنـه الله تعـالى واهـب كل خـير لجميـع مخلوقاتـه، وله الأسـماء الحسـنى، ومنها اسمان جليلان، هما: العزيز والحكيم. فهو قوي بعزته، وهو في الوقت نفسه حكيم في فرض قوته وعزته؛ فلا يُوجِّه قدرته ظلماً أو عبثاً، وإنما بحكمته يستعمل قوته في الوقت والمكان والغاية المناسبة وحسب الظروف المؤاتية.

ولعـل من المناسـب جـدًّا أن نقـرأ هذه الآيـة الشريفـة ونتحلَّى بمفادهـا لـدى مواجهة المصاعب والمصائب. ذلك أن الإنسـان يتطلع إلى الكرامـة، ولكنـه قد يحرم منها، بـل ويتنازل عنها بسـبب الظروف

الصعبـة التي قد تحدو به إلى فقدان الأمـل. وهنا يمنحه الله تعالى القوة ويقـول لـه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]. فـلا مـبرر لأن يُفـرط الفرد المؤمن بكرامته أو يفقد أمله، وإنما يتوجَّب عليه أن يتفوَّق على الظروف.

وقـد يكـون المـرء عزيزاً، وقـد تتوفـر لديـه الإمكانـات المادية والمعنويـة، إلَّا أن عليـه أن يتبـع نظاماً حكيماً في حياتـه، فلا يطغى على الآخرين، أو يُسخِّر قوَّته في اللعب واللهو.

بصائر وأحكام

عندما تهيج بالإنسـان عواصف الفتن، ولا يجد في المادة المحيطة به وسيلة لإنقاذه؛ عندها يتعلَّق قلبه بِمَن يُدبّر أمر العالم، وأنه أقوى من العواصف والظروف، ألا وهو الرب العزيز الحكيم.

(١) سورة المنافقون، آية ٨.

إني لا يخاف لدي المرسلون

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ١٠﴾.

* * *

من الحديث

رُوي عَـنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سِـنَانٍ قَالَ: «سَـمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: **كَانَتْ عَصَا مُوسَى قَضِيبُ آسٍ، مِنَ الجَنَّةِ أَتَاهُ بِهِ جَبْرَئِيلُ عليه السلام، لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَن**»[1].

تفصيل القول

ها هو موسى بن عمران عليه السلام أصبح كليم الرب المتعال وأمسى

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٧، ص٤٣٢.

متصلاً بالغيب، ولكنَّ حَمْلَ أعباء الرسالة بحاجة إلى آية مبصرة، لأن أولئك القوم لم يكونوا ليرتدعوا عن وضعهم المزري لولا معجزة النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بإذن الله تعالى، وها هي عصاه المباركة تلك الآية.

والعصا هنا لم تتحوَّل مثلاً إلى ناقة، كما حصل مع قوم ثمود الذين طلبوا إلى نبيهم أن يخرج لهم من الجبل ناقة فيؤمنوا له، ولكن طغيان فرعون ومَلَئِهِ، كان يستدعي التحدي بقوة رهيبة، إذ لا يفلُّ الحديد إلا الحديد.

فَمَنْ يواجه رجلاً ملتويَ الطباع لا بد وأن يتعامل معه بما يفوقه لعله يرتدع. وإذا وجد رجلاً ضعيفاً، فجدير أن يتصرف معه بأسلوب يناسبه. ولكن من يواجه رجلاً معتدٍ متعاجزاً متحدٍّ كفرعون وهامان، فإن الحاجة تكون حاجة ماسة إلى قوة تفوق قوتهما وتحديهما.

ولذلك؛ قال تعالى آمراً موسى -النبي الجديد-: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾.

فلم يتردَّد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يُماطل في تنفيذ الأمر الإلهي، ولم يتحجَّج بوضع أهله، وأنّه قد تركهم في الظلام والبرد، وأنّهم بمسيس الحاجة إلى الرعاية وإلى عودته العاجلة، وأنَّ له في تلك العصا أكثر من حاجة.

إنما ألقى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عصاه دون أن يعلم ظاهراً ماذا سيحدث بعدئذٍ، حتى رآها تتحوَّل إلى حيّة تهتز كأنّها جانٌّ، وهي تتحرك بخفة وسرعة مريبة.

إذ ذاك ظهرت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حالته البشرية، فخاف من هذه الحادثة، حتى إنه استدبر الموضع دون أن يلتفت، فقال فيه الله سبحانه وتعالى:

١- ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾

إشارة إلى لحظة الضعف الإنساني التي شملت النبي موسى عليه السلام، وهو الذي لم تمضِ فترة طويلة على نبوته واستيعابه المسؤولية الثقيلة التي ألقيت على عاتقه. أقصد؛ مسؤولية النبوة، ومسؤولية القضاء على فرعون وملئه، وذلك لدرء التصور الخاطئ بأن النبي -أي نبي- يتحوَّل إلى إله أو نصف إله. ولو صار كذلك -والأمر محال- لما هرب ذلك الهروب العظيم حيث لم يُعقِّب؛ أي لم يلتفت إلى ما خلفه خوفاً من تلك الحية.

٢- ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾

جاءت هذه الكلمة، وهذا الأمر إلهي في الوقت المناسب، حيث أخذ هذا الأمر الإلهي بيده وعاد به إلى رحاب الاطمئنان النفسي، تلافياً للحظة الضعف البشري التي حلت بساحة النبي موسى عليه السلام.

٣- ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

فأنت يا موسى قد دخلت رحاباً جديدة، ومن مميزات هذه الرحاب، التسلُّح بسلاح الشجاعة والتوكُّل على الله عز وجل؛ لا سيما وأن الله هو العزيز الحكيم المدبر المهيمن، فلا مبرر للخوف. ثم الخوف ممّن، ما دام النبي في ضيافة الرحمن وفي مقام القرب من الرب الحامي والهادي والمدافع عن المؤمنين؟

بهذه الكلمة تبلّغ موسى الرسالة، فصار كليم الله ورسوله، بعد أن تجرَّد عمَّا لا يليق بمقام النبوة. ولقد تجاوز النص القرآني هنا عن الكثير من الوقائع التي رافقت حالة النبي موسى عليه السلام وأهله، وهل أخبر بنبأ نبوته، أو عاد إليهم بقبس من النار.. وذلك لأنها أمور طبيعية ليست هي المقصود من سياق القصة.

بصائر وأحكام

مَـنْ يواجه رجـلاً ملتويَ الطبـاع لا بد وأن يتعامـل معه بذكاء وأخـلاق يفوقانـه، لعلـه يرتدع. وإذا وجـد رجلاً ضعيفـاً، فجدير أن يتصرَّف معه بأسـلوب يناسـبه. ولكن من يُواجه رجلاً متعاجزاً متحدٍّ كفرعـون وهامان، فإن الحاجة تكون حاجة ماسـة إلى قوة تفوق قوتهما وتحديهما. ولعل ذلك كان الحكمة التي جعلت آية النبي موسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ الحية التي تسعى، إلى جانب حكم بالغة أخرى.

فإني غفور رحيم

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**مَا أَحْسَنَ الحَسَنَاتِ بَعْدَ السَّيِّئَاتِ، وَمَا أَقْبَحَ السَّيِّئَاتِ بَعْدَ الحَسَنَاتِ**»[1].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**إِنِّي لَمْ أَرَ شَيْئاً قَطُّ أَشَدَّ طَلَباً وَلَا أَسْرَعَ دَرْكاً مِنْ حَسَنَةٍ مُحْدَثَةٍ لِذَنْبٍ قَدِيمٍ**»[2].

تفصيل القول

النحو بالنسبة لنا نحن العرب، يشبه المنطق بالنسبة لليونانيين.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٦٨، ص٢٤٢.
(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٦٨، ص٢٤٣.

فمنطق العرب نحوهم، ونحو اليونانيين منطقهم. ولعلماء النحو كلام عـن الاسـتثناء، فيعتبرونه تارة مُتَّصـلاً، وأخرى مُنقطعـاً. فالأول هو الذي يرتبط بما قبله، فيما المنقطع لا يتَّصل بما قبله، وإنما باعتبار مناسبة الحديـث عن شيء، يُورده المتحدث دون أن تربطه بما سـبق من الكلام علاقة حميمة. وفي القرآن استثناءات متصلة وأخرى منقطعة.

والسؤال هنا: أيُّ الاستثناءين قصده النص القرآني في القول الشريف:

١ - ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾

بعد القول: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟

فهـل هذا الذي قـد ظَلَم هو من المرسـلين، أم أن الحديث عام، للإشـارة إلى أن الخوف لا ينبغي أن يصدر عنك يا موسى في محضر الله العزيز الحكيم، لا سـيما وأن رعايتي وإرادتي في اصطفائك للنبوة كانتا قد شـملتاك ولماّ تلدك أمك، حيث درأت عنك هـذه الرعاية والإرادة كل أذًى، كما هو الشـأن في الأنبياء، فلا ينبغي لك يا موسـى أن تكون خائفـاً لأنك من المرسـلين، وإنما الـذي يخاف هو الظـالم، وهو غيرك. وعلى هذا يكون الاستثناء الوارد هنا استثناءً منقطعاً، حيث إن الحديث أولاً كان عن الأنبياء عليهم السلام، بينما الظالم غيرهم.

أمـا إذا تصوَّرنـا الاسـتثناء متصلاً، وأن من المرسـلين من يظلم نفسـه بما يحسـب عليه ذنباً بالنسـبة إلى درجته السـامية، ممَّا يُسمَّى عند العلماء بـترك الأولى، كما حصل عند آدم عليه السلام، أو يونس عليه السلام الذي قـال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. فـلا بـد لنـا مـن مقاربـة لكي نستوفي المعنى الدقيق للآية، فنقول:

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٨٧.

أولاً: إن النبي المرسل من عند الله لن يكون ظالماً بالمعنى المعروف للظلم عندنا، لأنه معصوم بربه، وإن احتمال ظلمه لنفسه يتنافى ورسالته، حيث يجوز آنئذٍ للناس ألَّا يستمعوا إليه، وألَّا يستجيبوا له، ويعتذروا عن ذلك بأنه ربما كان كاذباً. حاشا لله.

ومن هنا قال ربنا سبحانه بعد أن سأله النبي إبراهيم عليه السلام أن يجعل عهده في كل ذريته: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ثانياً: باعتبار أن الإنسان يبقى محتاجاً إلى ربِّه مهما بلغ زلفى من ربِّه سبحانه، إنه يبقى عُرضة لهفوات منشؤها امتحان الرب له. ولكيلا يتَّخذه الناس شريكاً لخالقه تعالى، وربما لكي يتذكَّر فيتوب إلى الله وتكون تلك التوبة وما فيها من التذلل معراجاً له إلى درجات أسمى من قبل. وكمثل على ذلك أن النبي داود عليه السلام استعجل شيئاً ما في إصدار الحكم بخصوص إحدى المسائل القضائية، ولكن الله تبارك وتعالى سرعان ما نبَّهه إلى الحق، لعله يزداد بذلك تذلّلاً لربِّه وليرقى مقاماً عند الله؛ من جانب، ولكي يتنبَّه الناس بأنه يبقى بشراً مهما اقترب من ربِّه، فلا ينبغي أن يكون الحب له باعثاً على تصوُّره إلهاً أو نصف إله.

إن عصمة النبي ليست ذاتية، إنما العصمة تُؤدِّي به إلى عدم الوقوع في الخطأ، بتسديد الله له. وهكذا يكون النبي دائماً مُسدَّداً بالتأييد الإلهي في كل مسألة يُواجهها.

يبقى أن نقول: إنّ ربَّنا المتعال بيَّن في هذه الآية المباركة ثلاث سُنن إلهية كبرى تُحيط بالعالم برمته، تتَّضح وتتجلَّى من خلال العزة والحكمة الإلهيتين.

السُّنّة الأولى: أن الظلم خيبة وظلام، والظلم هو الاعتداء وتجاوز

(١) سورة البقرة، آية ١٢٤.

الحق. بينما الحق هو مدار الخلق، وهو النظام الدقيق ذاته الذي جعله الله لكل شيء؛ من الذرة المتناهية في الصغر، إلى المجرة المتناهية في الحجم.

وهكذا ترى السياق يؤكد أن الظلم هو الذي يُخيف الإنسان، فيما عليه ألَّا يخاف إلَّا الله؛ فلا يخاف الطبيعة المحيطة به.

وهذا الظلم؛ ظلم للنفس وظلم للآخر. ويتجلَّى الظلم في أقبح صورة، عندما يشرك الفرد بربِّه.

السُّنّة الثانية: إن الظلم ورغم كونه مُخيفاً، إلَّا أنه ينبغي ألَّا يقود الإنسان إلى اليأس، إذ هناك سُنّة أخرى، هي سُنّة الرحمة الإلهية المتأتية من توبة العبد إلى الله، وتوبة الله على عبده. وهذه الحقيقة -كما يبدو والله العالم- متعلقة بعالم الأمر دون عالم الخلق؛ أي العالم الذي جعله الله محيطاً ومهيمناً على العالم، وهو نظام الأسباب والنتائج. وهذا يعني أن توبة العبد إلى ربِّه، وقبول هذه التوبة من جانب الله تعالى أعلى من قانون محاسبة هذا العبد الذي ارتكب المعصية، حتى إن الله تعالى قد يرحم أمةً عاصية بدعوة عالمٍ صالح، أو حتى بمروره بمدينة أوشك أهلها على العذاب.. ذلك أنَّ ربَّنا كتب على نفسه الرحمة، وهذا أمر خاص بالله تبارك اسمه، وهو حاكم على نظام الحساب والعقاب.

وهذه الحقيقة تنقلنا إلى حقيقة سامية أخرى، وهي أننا لا ينبغي أن نخاف الله تعالى فحسب، بل علينا أن نُحبّه أيضاً، لأن الخوف وحده لا يكفي أن يكون مصلحاً لسريرة ابن آدم، ولا بد أن يتعادل مع الرجاء. وهكذا قال ربنا تعالى:

٢- ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾

أي: إنه لم يكتفِ أن يمتنع عن الظلم، حيث إن ذلك كان يعني أن الظلم وجريرته لا زالا يلاحقانه، شاء أم أبى.. إنما بدَّلَ سوء ظلمه

بحسن عدله؛ بمعنى أنه غَيَّر موقفه، ممَّا جسد نقطة أساسية في حياته.

وإن من آفاق الرحمة الإلهية وكرمه، أنه يبدل سيئات التائبين بصدق إلى حسنات، حيث يرى الفرد كتابه في يوم القيامة بعد الدنيا مجموعة من الحسنات لم يكن قد قام بها، فيسأل عن أمرها، فيقال له: إنها سيئات كنت قد ارتكبتها، ولكن حين توجَّهت بالتوبة النَّصوح إلى الله، بدّلها الرب تعالى حسنات.

وهكذا هو الإسلام، لا يكتفي بأن يجعل الظالم يكفُّ يده عن الظلم، وإنما يجعل منه وسيلة للإصلاح في المجتمع.

٣- ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

السُّنّة الثالثة: سُنّة المغفرة بمعنى الستر؛ أي إن الله تعالى ليس فقط لا يُسارع إلى المحاسبة على الخطيئة، ويتجاوز عن الخطيئة، ثم يبدلها حسنة، بل إنّه بالإضافة إلى ذلك يستر على صاحبها. وهذا يشير إلى أن باب التوبة، باب واسع فتحه الله تبارك وتعالى لعباده، ومن دخله وجد نعيماً لا متناهياً قد أغدقه الرب الفياض بالعطاء على عبده التائب.

بصائر وأحكام

إن الظلم خوف وظلام، وتجاوز للحق الذي هو مدار الخلق، وهو النظام الدقيق ذاته الذي جعله الله لكل شيء؛ من الذرة المتناهية في الصغر، إلى المجرة المتناهية في الحجم الظاهري.

والله تعالى يُؤكِّد أن الظلم هو الذي يُخيف الإنسان، وليس الخليقة من حولنا وما فيها من نظام.

تسع آيات إلى فرعون

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾.

***

من الحديث

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام لرجل من أصحابه في حديث: «**وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِيْ قِصَّةِ مُوْسَى** عليه السلام ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ **يَعْنِيْ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ**»(١).

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث ذكر فيه قول الله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ قَالَ: «**مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ**»(٢).

(١) طب الأئمة، ابن سابور الزيات، ص٥٥-٥٦.
(٢) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص١٧٢.

تفصيل القول

بعـد معجزة العصـا وتحوّلها إلى ثعبان، حان الـدور لمعجزة اليد البيضاء التي أُمِر النبي موسـى عليه السلام أن يُدخلها إلى صدره، إذ الجيب هـو الصدر، أو أحد الطرفين تحت الإبط. فتحوَّلت هذه اليد السـمراء -كما جاء في أوصاف هذا النبي الجليل- يداً نورانية بيضاء.

ولعـل ذلك إشـارة إلى أن هـذه اليد البيضاء غـير الملوّثة وغير الطامعـة هي التي سـتُنقذ الناس من جبروت فرعـون وظلمه، وهي يد الرحمة التي تُمثِّل الرحمة الإلهية التي ستشـمل المسـتضعفين في بلاد مصر.

وتتبع هاتين المعجزتين سـبع آيات مُبصرات ليكون الجمع تسع آيـات إلى فرعون وقومـه. أما الآيات السـبع الأخرى، فهـي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والغرق في البحر أو انشـقاقه وعبور بنـي إسرائيـل منه ونجاتهـم، وانبجـاس عيون الماء مـن الصخرة حين ضربها النبي موسى عليه السلام بالعصا.

وقد تقدَّم اسـم فرعون هنا للإشـارة إلى أن هذا الطاغية المدعي للألوهية العليا هو أساس الظلم والطغيان ورأسه، وهو المفسد الأول في الأرض، وهو إمام الكفر الذي ينبغي أن يُقاوَم ويُقاتَل.

وحيـث إن فرعون هو إمام الكفر، فلا يعني ذلك أن أتباعه غير مسـؤولين عمَّا كان يدَّعي ويفعـل من الكفر والظلم والفسـاد، بل هم فاسقون منحرفون عن الحق باتّباعهم إياه وتولّيهم له.

***

بصائر وأحكام

وحيـث إن فرعون هو إمام الكفر، فلا يعني ذلك أن أتباعه غير مسـؤولين عمَّا كان يدّعي ويفعـل من الكفر والظلم والفسـاد، بل هم فاسقون منحرفون عن الحق باتّباعهم إياه وتولّيهم له.

قالوا هذا سحر مبين

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣)﴾.

***

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث: «**وَلَا دِيْنَ لِمَنْ دَانَ بِجُحُوْدِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾

الآيات المُبصرة هي سنام الامتحان ونهاية الابتلاء؛ ذلك أن الامتحان الإلهي بهذه الآيات التي جاءت فرعون وقومه كانت في أعلى

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٧٣.

درجات الوضوح، بحيث يعجز المتعرض لها أن يُبرِّر رفضه إياها بعدم الوضوح واللبس والشبه، فتكون له الحجة المقبولة في الرفض، إنما هي كانت واضحة جلية بإذن الله تعالى لأنها كانت آيات الله تعالى، ولا يُمكن نسبة شيء إلى الله العليم الحكيم وهو ملوث بالظلمة والشك.

٢- ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

رَفَضَ فرعون وقومه الآيات الإلهية المُبصِرة التي جاءهم بها النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فهل كان هؤلاء يعتبرون السحر كذباً، فعطفوا الآيات عليه؟ وهل كانوا يكرهون الكذب ليُدينوا السحر ومن ثم الآيات من خلاله، وهم الذين يعيشون ضمن حضارة -إن صحّ إطلاق تسمية الحضارة على معيشتهم- تعج بالظلم والفساد، ولا يقوم الظلم والفساد إلّا على الكذب؟

إنهم في الحقيقة كانوا يُحبُّون السحر ويتوسَّلون به في شتّى منعطفات معاشهم، ولكنهم نسبوا الآيات إلى السحر وهم يعلمون بأن السحر لا علاقة له بأمر الله تعالى، أو لنقل: إنهم لم يكونوا ينسبون السحر إلى الآلهة المزعومة، ولذلك وصفوا الآيات التي جاءتهم إلى مصدر أو حالة غير مقدسة بزعمهم.

أو لعلهم أرادوا بوصف الآيات بالسحر، الإشارة إلى أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد خداعهم بها كما يخدع الساحر الناس بسحره، وهم بالأساس يجهلون حقيقة السحر، وإنما يرون فيه أداة للخداع ومخادعة الجهلة، فكأن فرعون وملأه أرادوا التعمية على عقول الناس والقول لهم بأن هذه الآيات مع كونها واضحة مبصِرة وأنها قد استغرقت وقتاً ليس بالقصير والقليل من السنين ليست سوى أدوات خداع ووسائل كذب.

بصائر وأحكام

الآيـات المبصِرة هي سـنام الامتحـان ونهاية الابتـلاء؛ ذلك أن الامتحان الإلهي بهذه الآيات التي جاءت فرعون وقومه كانت في أعلى درجات الوضوح، بحيث يعجز المتعرِّض لها أن يُبرِّر رفضه إياها بعدم الوضوح واللبس والشبه، فتكون له الحجة المقبولة في الرفض، إنما هي كانـت واضحـة جلية بـإذن الله تعالى لأنهـا كانت آيـات الله تعالى، ولا يمكن نسبة شيء إلى الله العليم الحكيم وهو ملوث بالظلمة والشك.

فانظر كيف كان عاقبة المفسدين؟

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

***

من الحديث

عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ وُجُوهِ الْكُفْرِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: الْكُفْرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ.** (إلى أن قال عليه السلام:) **وَأَمَّا الْوَجْهُ الْآخَرُ مِنَ الْجُحُودِ عَلَى مَعْرِفَةٍ، وَهُوَ أَنْ يَجْحَدَ الْجَاحِدُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَقٌّ قَدِ اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾[1]، **وقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

(١) سورة النمل، آية ١٤.
(٢) سورة البقرة، آية ٨٩.

فَهَذَا تَفْسِيرُ وَجْهَيِ الْجُحُودِ»[1].

تفصيل القول

لقد مارس فرعون وقومه الظلم والاستعلاء، ومن قبل ذلك خاضوا حضيض الفسق، فأصبحوا بذلك مفسدين لفطرتهم، ومعطلين لما وهبهم الله تعالى من المواهب النفسية والعقلية والروحية. كما وأفسدوا على أنفسهم رحاب قابلياتهم على المعرفة وتمييز الحق، فلاثوا كيانهم وحالوا دونه ودون الانطلاق إلى الحقائق الربانية التي جاءهم بها موسى وهارون عليهما السلام.

وها هم الآن قد ذهبوا صرعى لداء الازدواجية بين معرفتهم بأحقية النبي موسى عليه السلام، ومصداقية آياته الكبيرة، وبين الجحود بهذه المعرفة رغم استيقانهم بذلك.

وهذا لعمري داء كبير ناتج عن داء أكبر منه، ألا وهو داء العكوف على الظلم والإصرار على الاستعلاء واستغلال الآخرين.

وقد كان هذا الجحود بعد ثبوت ووضوح الحق لهم من خلال معرفتهم التامة بكون آيات موسى عليه السلام إنما هي معاجز، وليست سحراً مبيناً. فبذلك ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا النبي موسى وأتباعه، لتصوُّرهم الخاطئ بأن موسى عليه السلام يريد الترؤس عليهم، لا هدايتهم، والحال أنهم هم الذين كانوا مُشبعين بحب الرئاسة والسيطرة.

فكانت عاقبة فسادهم وإفسادهم أن انتهت بهم إلى جحود

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٨٩-٣٩٠.

الآيات المُبصرة، هذه الآيات التي تنتهي بالمُكذِّب بها -تبعاً لوضوحها وبساطتها- إلى الهلاك العاجل غير الآجل، إذ بالتكذيب بها تنتهي فرصة الامتحان.

بصائر وأحكام

العكوف على الظلم والإصرار على الاستعلاء واستغلال الآخرين، إنما هو داء كبير لا يمكن إخفاؤه.

ولقد آتينا داود وسليمان علماً

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ يَمْنَحُ المَالَ مَنْ يُحِبُّ وَيُبْغِضُ، وَلَا يَمْنَحُ العِلْمَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ**»(١).

وقال عليه السلام أيضاً: «**لَا عِزَّ أَشْرَفَ مِنَ العِلْمِ**»(٢).

وروي عن الحارث بن المغيرة قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: **إِنَّ الْعِلْمَ الَّذِي نَزَلَ مَعَ آدَمَ عليه السلام لَمْ يُرْفَعْ، وَمَا مَاتَ عَالِمٌ إِلَّا وَقَدْ وَرَّثَ عِلْمَهُ. إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَبْقَى بِغَيْرِ عَالِمٍ**»(٣).

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤٢، حديث رقم ٣٥.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤٢، حديث رقم ٥٣.
(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٢٢٣.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ؛ صَغُرَتْ أَوْ كَبُرَتْ، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ؛ إِلَّا أَدَّى شُكْرَهَا**»(١).

وروي عن محمد بن مروان، قال: «**قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: أَنْ تَحْمَدَهُ**»(٢).

تفصيل القول

بعد أن ينتهي السياق من بيان عقبى الذين كذَّبوا بآياته ففسقوا، وكيف دمرهم الجبار، وهم فرعون وقومه.. ينتقل إلى بيان الجانب الآخر، حيث المثل الأعلى لأولئك الذين قبلوا بالرسالة الإلهية، وهم أتباع داود و سليمان عليهما السلام، وكيف شملتهم رحمة ربهم، حيث مرَّ بنو إسرائيل بمنحدرات عديدة، فَغُربلوا وتمَّت تصفيتهم حتى عادوا مؤمنين، فَقُيِّضَ لهم نبي ملك، وهو داود عليه السلام، ومن ثم وارثه سليمان عليه السلام؛ فأشادا لهم دولة عادلة بإذن الله تعالى، هذه الدولة التي سخرت لها الجن والرياح والطير.. ذلك لأن الناس كانوا يعملون الخيرات، فتضاعفت لهم البركات.

١- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾

قد تكون قوة دولةٍ مّا نابعة من ثروتها أو قوتها العسكرية أو موقعها الجغرافي.. أما إذا كانت القوة قوة علم وفضيلة وتقوى؛ أي قوة مستمدة من الصلة مع الله سبحانه، وهو جبار السماوات والأرض، وقيم الحق والعدل التي أمر بها، فإن تلك هي الدولة المستقيمة السائرة في طريق الحق.

وبناءً على هذا، يُبيِّن لنا ربنا هنا سُنّة مهمة، إذ يؤكد بطلان

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٩٦.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٥٠٣.

الاعتماد على قوة المال والثروة والموقع الجغرافي وأمثال ذلك، وضرورة الاعتماد عليه سبحانه وتعالى وعلى وحيه، وعلى العلم النازل من عنده، وفيه الفلاح والخير والبركة؛ وذلك لأن هذا العلم هو عامل السيطرة والنفوذ الحقيقيين.

والله تعالى لم يقل في هذا النص أنه قد آتى داود وسليمان عليهما السلام مالاً أو قوة بدنية وأمثالهما، وإنما قدَّم القول بالتذكير بالنعمة الكبيرة التي آتاهما، وهي نعمة العلم؛ والعلم الإلهي لا ريب. كمّا أنه سبحانه وتعالى لم يأمر نبيه الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بأن يطلب منه الزيادة بالمال أو القوة الجسدية أو الصحة، مع جزيل الفضل في هذه الأنواع من الطلبات، وإنما أمره أن يقول: ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[1]. وهذه روايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم الصلاة والسلام حول العلم وأهميته، وأن له دوراً هامًّا جدًّا في السمو والارتفاع.

ولكن ماهو العلم الذي أُوتيه داود وسليمان عليهما السلام؟

إنه في الحقيقة لم يكن أيَّ علم، لأنه تعالى لو قال (العلم) لصار المعنى كل العلم، ولكن الله تبارك اسمه يُعطي من العلم ما يشاء ولمن يشاء وكيف يشاء. أما ما أوتي هذان النبيان فهو علم كذاك العلم الذي أُشير إليه في سورة (الكهف) لذاك الرجل الذي صاحبه موسى عليه السلام، إذ جاء فيها: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾[2].

فهو علم نافع في تأسيس الحضارة وإدارة الدولة.

والملفت أن العطاء العلمي هذا قد شمل هذين النبيين، فلم يكن داود لِيُورِّثه ولده سليمان، إنما العلم من الله مباشرة إلى كل منهما،

(١) سورة طه، آية ١١٤.
(٢) سورة الكهف، آية ٦٥.

دون أن يكون قد استلهمه أحدهما من الآخر. وآية ذلك قضية الحرث:
﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1].

والله هو الذي يُطلع على غيبه من ارتضى من الرسل، أليس العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء، وما هو على الغيب بضنين. وهو الذي وسعت رحمته كل شيء، ومن رحمته العلم الذي يُؤتيه كيف يشاء.

ولعل هذا العلم المشار إليه في الآية هو التمتع بالبصيرة النافذة، دون أن يكون مجرد معلومات ممَّا يمكن أن تُكتسب بالتعلُّم أو التجربة؛ وهذا العلم نور في القلب، كما الروح التي يعيش الإنسان بها. فهو نور يبصر به الفرد الحقائق كما هي، بعيدة عن التخرُّصات والأهواء.

ويبدو أن مفردة ﴿آتَيْنَا﴾ أوسع وأعمق وأدق من كلمة (أعطينا)، لأن الأولى تدل على المواهب المعنوية كما المادية.

٢- ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

وهكذا دعاهما علمهما إلى التوجُّه بالحمد والشكر لله تعالى، وهذا هو العلم الحق. أما العلم الذي ينتهي بصاحبه إلى الكبر والغرور ونكران النعم، فهو الجهل ذاته، وصاحبه في حقيقة الأمر أجهل الجاهلين.

ومن هنا نعرف أن أول صفة من صفات العالِم أن يعرف قيمة العلم، ثم يحمد ربَّه ويشكره على تلك النعمة العظيمة ويعرف المنعم بها. أما من يبيع علمه في المزاد ويتاجر به في سوق السياسة، فإنه في

(١) سورة الأنبياء، آية ٧٨-٧٩.

الحقيقـة يبيعـه بأبخـس الأثمان، وأن مـا يحصل عليه من مـال أنّى كان كثيراً لا يعادل شـيئاً من العلم. وإنه بهذه الصفقة الخاسرة يكشـف عن أمر خطير ومرض عضال كان مصاباً به من حيث يعرف أو لا يعرف، وهو أنه كان يحمل علماً دون أن يتفاعل معه، ولا أن يعي أهميته؛ ومثله في ذلك مثل الحمار حين يحمل أسفاراً.

أمـا داود وسـليمان عليهما السلام فقد وعيـا العلم الذي آتاهمـا الله إياه، فعلـما أيضاً أنه بهـذه النعمة وبعدما فضلهما الـرب على كثير من خلقه، فلن يداهنوا الأعداء ولن يشتروا به ثمناً قليلاً.

ثـم إن العلم قيمة هامة، إلّا أن الإيمان أسـمى منه، إذ قد يكون المؤمـن عالمـاً وقـد لا يكـون، ولكن الـشرف أساسـاً يتمثّـل في المنزلة المحمـودة عند الله تعالى، وذلك يتحقق باقـتران العلم بالإيمان، كقوله عز وجل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(1).

فالإيمان هو القيمة الفضلى، ومن ثم العلم.

بصائر وأحكام

قد تكون قوة مجتمع أو دولةٍ مّا نابعة من قوة الثروة أو السـلاح أو الموقـع الجغرافي، أمـا إذا كانت القوة قوة إيمان وعلـم وفضيلة فإنها الأسمى؛ لأنها قوة مستمدة من العلاقة بالله تعالى، وهو جبّار السماوات والأرض؛ فذلك المجتمع هو الأمثل السائر على طريق الحق.

(1) سورة المجادلة، آية11.

وورث سليمان داود

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ** عليه السلام **مَعَ عِلْمِهِ مَعْرِفَةَ الْمَنْطِقِ بِكُلِّ لِسَانٍ وَمَعْرِفَةَ اللُّغَاتِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ؛ فَكَانَ إِذَا شَاهَدَ الْحُرُوبَ تَكَلَّمَ بِالْفَارِسِيَّةِ، وَإِذَا قَعَدَ لِعُمَّالِهِ وَجُنُودِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ تَكَلَّمَ بِالرُّومِيَّةِ، فَإِذَا خَلَا مَعَ نِسَائِهِ تَكَلَّمَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ وَالنَّبَطِيَّةِ، وَإِذَا قَامَ فِي مِحْرَابِهِ لِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَإِذَا جَلَسَ لِلْوُفُودِ وَالْخُصَمَاءِ تَكَلَّمَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ**»(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٩

لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ يَعْنِيْ: المُلْكَ وَالنُّبُوَّةَ»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام: أُوتِينَا مَـا أُوتِيَ النَّاسُ وَمَـا لَمْ يُؤْتَوْا، وَعُلِّمْنَا مَا عُلِّمَ النَّاسُ وَمَـا لَمْ يُعَلَّمُوا، فَلَمْ نَجِدْ شَـيْئاً أَفْضَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ فِي المَغِيبِ وَالمَشْـهَدِ، وَالْقَصْدِ فِي الْغِنَى وَالْفَقْـرِ، وَكَلِمَـةِ الحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالتَّـضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(٢).

تفصيل القول

١ - ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾

ماذا تعني الوراثة هنا؟

حينـما يقول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ﴾، يعنـي أنه ورث كل شيء من المال والملك، وهما ما يرثه المرء من أبيه. وقال البعض: إنه ورث علمه.

وهذه الوراثة قد اسـتدلت بها مولاتنـا الصديقة الزهراء عليها السلام فيما يخص وراثتها لفدك، حينما سـلبها منهـا الخليفة الأول، مبرراً ذلك بما رواه عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِّثُ ذَهَباً وَلَا فِضَّةً، وَلَا دَاراً وَلَا عَقَاراً، وَ إِنَّمَا نُورِّثُ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعِلْمَ وَ النُّبُوَّةَ، وَمَا كَانَ لَنَا مِنْ طُعْمَةٍ فَلِوَلِيِّ».

فقالـت عليها السلام: «سُـبْحَانَ اللَّهِ! مَا كَانَ رَسُـولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وآله وسلم عَنْ كِتَـابِ اللَّهِ صَارِفـاً، وَ لَا لِأَحْكَامِـهِ مُخَالِفاً، بَـلْ كَانَ يَتْبَعُ أَثَـرَهُ، وَ يَقْفُو سُـوَرَهُ، أَفَتَجْمَعُـونَ إِلَى الْغَـدْرِ اعْتِلَالًا عَلَيْهِ بِالـزُّورِ، وَهَذَا بَعْـدَ وَفَاتِهِ

(١) تفسير جامع الجوامع، الشيخ الطبرسي، ج٢، ص٧٠٣.
(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٢٤١.

شَـبِيهٌ بِمَا بُغِيَ لَـهُ مِنَ الْغَوَائِـلِ فِي حَيَاتِهِ، هَذَا كِتَابُ اللَّـهِ حَكَماً عَدْلًا، وَ نَاطِقـاً فَصْلًا، يَقُولُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾(١)، وَيَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾، وَبَـيَّنَ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا وُزِّعَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقْسَـاطِ، وَشَرَعَ مِنَ الْفَرَائِـضِ وَالْمِيرَاثِ، وَ أَبَاحَ مِـنْ حَظِّ الذُّكْـرَانِ وَالْإِنَاثِ مَـا أَزَاحَ عِلَّةَ الْمُبْطِلِـينَ، وَأَزَالَ التَّظَنِّيَ وَالشُّـبُهَاتِ فِي الْغَابِرِينَ، كَلَّا؛ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(٢)»(٣).

بـلى؛ إن ما كان لـداود عليه السلام وصل إلى ابنه سـليمان عليه السلام، مع الإشـارة إلى أن النبـوة أمـر إلهي يتـم بالاصطفاء من جانـب الله تبارك وتعالى.

٢- ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

ولعـل في هـذا الخطاب إشـارة إلى أن حكم سـليمان عليه السلام كان ذا مشـاركة شـعبية، حيث اهتمَّ بالناس.. على عكـس الحكومات التي كانـت تسـتأثر بـكل الإمكانـات، وتُهيمن عـلى كل شيء. وإنـما النبي سليمان عليه السلام خاطب شعبه بهدف هدايتهم، بالإشارة إلى اتِّصال دولته بالله تعالى وأخذ شرعيته منه، ولا أسمى ولا أرقى من هذه الشرعية.

٣- ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾

لم يكن مبرراً لأن يخاطب سليمان عليه السلام شعبه لولا أن يُحدِّثهم بما يُذكّرهم بفضل الله وبركته عليه وعلى أبيه، وبالتالي ليسري هذا الفضل وآثـاره عليهـم، ثم ليؤمنوا وليعـوا حقيقة أي حاكـم يحكمهم وطبيعة ارتباطه بالله الذي هو مالك الملك ومنه يجب أن تُستمد شرعية الملوك.

(١) سورة مريم، آية ٦.
(٢) سورة يوسف، آية ١٨.
(٣) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج١، ص١٤٢.

ومـن العلم الـذي آتاه الله تبـارك وتعالى داود وسـليمان عليهما السلام، علم منطق الطير.

والسؤال: لماذا جاءت الكلمة بصيغة الجمع؟

والجواب؛ أولاً: لعله إشـارة إلى أن النبيـين كلهم كانوا كذلك، أو لا أقل سـليمان وأبوه كانا كذلك، حيث إن النبي داود عليه السلام كانت الجبال تُسـبِّح لله تعالى معه. **ثانياً**: يمكن أن يكون قصد سـليمان عليه السلام تفخيم جانب نفسه باعتباره ملكاً نبيًّا وينبغي أن يُعظَّم في أعين الناس.

ثم إنه عليه السلام لم يقل: عُلِّمنا لغة الطير، للإشـارة إلى أنه قد علمه الله منطقهـا، وهو ما يشـمل اللغة وطريقة تفكـير الطير وطبيعة تعامله مع حياته.

وإذ قـال عليه السلام: الطـير، فقـد كان اللفـظ المطلق هذا يسـتغرق أنـواع الطـير، إن كان لها ثم طرق ومناهج تفكـير خاصة بكل نوع من أنواع الطيور.

ويمكـن القـول: إن هذه الإشـارات القرآنيـة الكريمة تفتـح أبواباً واسعة من العلم أمام البشرية لتحظى وتتنعم بالتطور العلمي، حيث يمكن و قد حدث هذا في مناحي عديدة أن نتعرف نحن أيضاً إلى منطق الطيور.. كما أشار القرآن إلى تسخير الريح لسليمان عليه السلام وجنوده، لكي يفكر البشر مسـتقبلاً في ذلـك، حيث إنـه انقدحـت في أذهانهم فكرة طيران الإنسـان، حتى توصلوا بعد قرون مديدة إلى تسخير الفضاء وصناعة الطائرة.

ولعل البعض يزعم أن منطق الطير لا يُتاح لأي إنسان، وإنما هو علم تعلّمه سليمان عليه السلام من الله مباشرة، وإنه من قبيل الأمر المعجز.

ولكن لا بد من الإشارة إلى أن علماء الحيوان ومن خلال جهود

مضنية استغرقت عشرات السنين، وعبر استعمال تقنيات خاصة تمكَّنوا من التعامل مع عدة نماذج من الحيوانات وقطعوا في ذلك أشواطاً مهمة، ممَّا يُشير إلى أن الله تعالى قد يَسَّر هذا الأمر ونظائره على بني البشر وإن كان يبدو في ظاهره أشبه شيء بالمعجز.

٤- ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

كان ملك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كبيراً ويتمتع بعوامل القوة بأبهى صورها وأجلّ أشكالها. ومن هذا الملك الكبير نفهم أموراً، منها:

أنه من الممكن أن يجمع الله تبارك وتعالى للإنسان المؤمن خير الدنيا والآخرة، وهو الذي علَّم الانسان أن يدعوه قائلاً: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١).

وكذلك أمره بأن لا ينسى نصيبه من الدنيا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾.(٢) وليس كما يذهب إليه بعض المؤمنين، حيث يُنادون بطلب الآخرة وترك الدنيا للكفار والمنافقين، وذلك لسوء فهمهم للدين أو تبريراً لتخلُّفهم وكسلهم عن طلب الدنيا. كلَّا؛ إن على المؤمن أن يسعى من أجل توفير حياة طيبة في الدنيا لتكون مزرعة -حقًّا- للآخرة وينعم فيها أيضاً بالحياة الطيبة الخالدة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

(١) سورة البقرة، آية ٢٠١.
(٢) سورة القصص، آية ٧٧.
(٣) سورة الأعراف، آية ٣٢.

بـلى؛ إن النظـرة تتفاوت بين إنســان وآخر لطبيعـة ومواصفات الحيـاة الطيبـة في الدنيـا، وذلك أننـا -بوصفنـا أتباعاً للقـرآن والعترة الطاهـرة- نسـعى إلى حياة خالية مـن الظلم والجهـل والفقر.. ونعتبر الحيـاة التي تفوح منها رائحة العـدوان والإسراف والانغماس في اللذة الباطلة وهجر الأخلاق الفاضلة، نعتبرها موتاً حقيقيًّا، وهي بالتالي لا تستحق الكدح والعناء ولا حتى السعي من أجلها.

هـذا من ناحيـة، ومن ناحية أخرى، فإن مسـؤولية من أنعم الله تعـالى عليه من خير الدنيا والآخرة أن يُعمِّـق ارتباطه بالله المنعم، ومن ذلك أن يتوجَّه بالدعاء إليه، ليمنحه القدرة على شكر النعمة؛ أي عليه أن يعي طيب التعامل معها والموقف منها.

ومـن هنـا نعرف أن هـذا النبـي العظيـم كان يقصد مـن قوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، فيـما يبـدو أنه سـبحانه قد أعطاه نصيبـاً من كل شيءٍ، ذلـك لأن مـا في خلـق الله ممَّـا حـول الإنسـان هـي كل شيء ممَّا يحتاجـه من النعم. وسـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أُوتي القدرة على الاسـتفادة من الخليقـة كلهـا؛ أي من جنود الإنس والجن، ومـن قوى الريح، ومنطق الحيوانـات، وممَّـا يُوفـره له العلـم بالحقائق وكيفية تسـخيرها لمصلحة البشر.

إلَّا أن طبيعـة الاسـتفادة ممَّا في الحياة وسـبلها بالنسـبة إلى النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بحاجة إلى المزيد من إمعان النظر؛ فهل كانت الاستفادة مـن خـلال ما يعرف بالولايـة التكوينية على الأشـياء؛ أي القدرة التي يتمتـع بهـا كل نبـي ووصي وولي بـإذن الله تعـالى كل حسـب منزلتـه وحاجتـه في التأثير على الأشـياء مباشرة، وبعيداً عن أسـبابها الظاهرة، وهي القدرة التي منحها الرب لمن يشاء؟

أو أنها كانت عبر تعلُّم الأسباب الظاهرية في تسخير الأشياء، كما أشار الله تعالى في قصة ذي القرنين الذي أعطاه الله تبارك و تعالى معرفة كيفية الاستفادة من أسباب الطبيعة، أو كما علَّم سبحانه وتعالى داود عليه السلام من صناعة الحديد وصنعة اللبوس، ولعل الأمر لم يكن بحاجة إلى تسخير العوامل الغيبية لإتقان هذه الصنعة أو تلك؟

يبدو أن الله سبحانه منح نبيه كلا الأمرين، إلَّا أن الأمر الثاني كان الأكثر شيوعاً، بينما الأول كان نادراً مثل قصة نقل عرش ملكة سبأ.

نعم؛ إن هذه القصة أُريد لها أن تُبيِّن آفاق حضارةٍ استطاعت -بإذن الله وخيره وبركته وهديه- أن تُسخِّر التراب والحجر والحديد والمعادن والأحياء والنبات لمصلحة خير الانسان، وللإشارة المباشرة إلى خصائص الحضارة الإيمانية التي تستجيب لها وتتواءم معها أطراف الوجود وأسبابه الظاهرة والخفية على حد سواء، وذلك مصداق قوله العزيز: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

وفتح البركات هذا قد يكون عبر ما يُؤتيه الرب لهم من كل شيء.

وهذه البعضية ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ إشارة إلى أن النبي سليمان عليه السلام كان يعرف حدود دولته وأبيه عليهما السلام، ويعلم أنه لم يرقَ في المقام والمنزلة عند الله تعالى لكي يُعطيه كل شيء، ذلك لعلمه بأن عطاء الله وما يحوي من سعة وبركة، يبقى محكوماً بالحكمة الإلهية البالغة.

(١) سورة الأعراف، آية ٩٦.

٥- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾

إنّ هـذه النعم والخير والبركة تسـتدعي أن تكون معيار الفضل والتفاضل والتقدم، وكلما تنزلت على فرد بدرجة أكبر كان له أن يتقدم ويُرجَّـح على غيره الأقل حظوة بها منه حقًّـا. هذه الآية الكريمة تهدينا إلى أنّ التقدم هو من حق مَنْ تشمله هذه النعم، وأنه من الباطل القول بتقديم المفضول على الفاضل، أو تقديم الفاضل على الأفضل، تماماً كما هو المقياس في أفضلية وأرجحية الذين يعلمون على الذين لا يعلمون، والمؤمنين على الفاسـقين؛ لأن قلب هذه الحقيقة يعني حدوث انقلاب على الموازين القرآنية الإلهية برمتها، وعلى سـنن الله في خلقه، وسـوف تؤدي بالتالي إلى سلب هذه النعم وتلك البركات.

وإنـما النبـي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ خاطـب أتباعـه بقولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، لأنـه أراد أن يقودهم في جادة الخير إلى حيث الاهتداء إلى الله تعـالى والقرب منه. ولقد دعم دعوته الصادقة بما كانت لديه من النعم التـي حبـاه الله بها. وهكذا أوضح لهم أن قيادته لهـم إنما هي قائمة على استحقاق إلهي، وليس على قوة السلاح.

وإن فحـوى هذه الآية الكريمة وما سـبقها وما لحقها من آيات مبـاركات تؤكد الحكمة القرآنية الخاصة في مسـألة الخلافة في الأرض، ومـا هـي القيادة الشرعيـة التي هي محط رضا الله تعـالى، مع أن الآية لم تُوغل في التصريح المباشر.

وبالتـالي؛ نصـل إلى القـول بخطأ مقولـة: إن القـرآن الكريم لا يُعنـى بأمر السياسـة، وأن الحكم لا ينبغي أن يكون مسـتمداً من القوة الدينيـة والقيـم الروحيـة؛ لأن مـا يفهـم مـن روح القـرآن بطلان كل حكومة لا تأخذ شرعيتها من الله عز وجل، ذلك لأن ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[1]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[2]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[3].

والرب العزيز لم يخلق الأرض ليحكمها كافر أو فاسق أو ظالم، وإنما أراد لها ولأهلها التنعُّم بتعاليمه وببركاته ونعمه وحكم الصالحين.

بصائر وأحكام

١- إن مسؤولية من أنعم الله تعالى عليه من خير الدنيا والآخرة، أن يُعمِّق ارتباطه بالله المنعم، ومن ذلك أن يتوجَّه بالدعاء إليه، ليمنحه القدرة على شكر النعمة؛ أي عليه أن يعي طيب التعامل معها والموقف منها.

٢- إن ما آتاه الرب تعالى لسليمان النبي عليه السلام من بساط الريح وتسخير الجن ومنطق الطير، يُلهم البشر بإمكانية الحصول على مثله عبر البحث العلمي الجاد والتوكُّل على الله.

٣- قصة النبي سليمان عليه السلام تهدينا إلى إمكانية الجمع بين الدنيا والآخرة، وبناء حضارة إلهية على الأرض.

---

(١) سورة المائدة، آية ٤٤.
(٢) سورة المائدة، آية ٤٥.
(٣) سورة المائدة، آية ٤٧.

وحشر لسليمان جنوده

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٧﴾.

* * *

من الحديث

في روايـة أبي الجـارود عـن أبي جعفـر عليه السلام في قـول الله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قال: «**يُحْبَسُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ**»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ﴾

هـذه صورة قرآنية تُثير مخيلة القارئ لكتـاب الله، لتبيين عظمة

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٩.

استعراض القوة لدولة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

والحشر هو الجمع، ولكن أين تمَّ هذا الحشر؟ هل هو في صحراء، أم في وادٍ، أم في معسكر خاص؟ الله أعلم.

٢- ﴿جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾

بدأ القرآن بالجن لأنهم كانوا الأكثر عدداً من غيرهم من جنود سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهذا الحشر الكبير يأتي استجابة لدعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي طلب فيه إلى الله أن يُؤتيه ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده من الملوك، فآتاه الله تبارك وتعالى من كل شيء، إذ سخَّر له الجن وهم الأصعب قيادة، ثم كان الإنس بقبائلهم، والطير بأشكالهم.. فكان الجن محيطين بالإنس، وكان الطير من فوق الإنس، وكلٌّ له مقامه على الأرض وفي الهواء، ولكل دوره ووظيفته.

٣- ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

أي: يُؤمَرون فيمتثلون دونما اعتراض أو تمرُّد منهم، فلا يُغيّرون مواقعهم، ممَّا يدل على انضباط هذا الجيش ومتانته وهيبته ونظامه.

بصائر وأحكام

هذه صورة قرآنية تُثير مخيلة القارئ لكتاب الله، لتُبيِّن عظمة استعراض القوة لدولة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

حتى إذا أتوا على واد النمل

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾.

* * *

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ لِلَّهِ وَادِياً يُنْبِتُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ قَدْ حَمَاهُ اللَّهُ بِأَضْعَفِ خَلْقِهِ وَهُوَ النَّمْلُ، لَوْ رَامَتْهُ الْبَخَاتِيُّ مَا قَدَرَتْ عَلَيْهِ**»[1].

تفصيل القول

استقر لسليمان عليه السلام ملكه العظيم بعد أن سَخَّر الله له الجن

(1) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٦-١٢٧.

والإنـس والطير، كان لـه أن يرتقي قمة ملك أخرى غير زائلة كملكه، وذلك لدى سـماعه كلمة النملة في وادي النمل، إذ شـعر بأن ملكه قد وصـل إلى حدِّه الأعلى، ولا بد له أن ينتقل إلى قمة أخرى حيث الرحمة الإلهيـة اللامتناهيـة، وأن يُضحِّي بـكل ما يملك للحصـول على تلك النعمة الكبرى.

١ - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾

أتى عليه، أي أراد أن يتناوله أو يقطع مساحته. ويبدو أن وادي النمل منطقة يكثر فيها النمل وتغطي كثرته أرض الوادي.

٢ - ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾

أي: إن النملـة تكلَّمـت مع باقـي النمل على عكـس ما نتصوَّر مـن أنها لا تتكلَّم، أو أنها لا تمتلك لغة تفاهم خاصة بها، ولعلها كانت زعيمتهـم كما لكل قطيع مـن الحيوانات قائد يمشي في مقدمتها ويدافع عنها.

٣ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾

أمرتهـم بالدخول والاحتماء بالبيوت التي يسـكنون ويطمئنون فيها.

ولكـن كيف لباقي النمل أن يسـمعوها، وهي تخاطب حشـوداً كبيراً من النمل في وادٍ يتَّسع لمسيرة جيش النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

لعلهـا تحدَّثـت إليهم بإشـارات أو موجات صوتيـة أو بإصدار رائحـة معينة. المهم أنها دقَّت ناقوس الخطر المحدق بهم بما اسـتطلعت لهم عن مسيرة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وجنوده.

٤ - ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

أمـر طبيعـي أن تخاف النملة على كيانها، فتحـاول اتخاذ ما تحترز به من الدمار، لا سـيما إذا كان ما يُخاف منه جيشـاً جرّاراً كجيش النبي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولكن النملة أشارت في خاتمة حديثها، أن هذا الجيش إذا حطم النمل إنما يكون ذلك بصورة غير متعمدة ومن دون شعور.

وتبـدو هذه الملاحظـة لمعرفتها بأن جيش سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ جيش منضبط بتعاليم قائده النبي المعصوم الذي لا يُظلم عنده أحد.

بصائر وأحكام

إن جيـش سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ جيـش منضبـط بتعاليـم قائـده النبي المعصوم الذي لا يُظلم عنده أحد، ومن هنا فإن النملة قد نادت بالنمل بأنهم إن حَطّموها فلأنهم لا يشعرون.

رب أوزعني أن أشكر نعمتك

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾.

* * *

من الحديث

روي عن داود سليمان الغازي قال: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول، عن أبيه موسى بن جعفر، عن أبيه جعفر بن محمد عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقال: «**لَمَّا قَالَتِ النَّمْلَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حَمَلَتِ الرِّيحُ صَوْتَ النَّمْلَةِ إِلَى سُلَيْمَانَ عليه السلام وَهُوَ مَارٌّ فِي الهَوَاءِ وَالرِّيحُ قَدْ حَمَلَتْهُ فَوَقَفَ وَقَالَ: عَلَيَّ بِالنَّمْلَةِ. فَلَمَّا أُتِيَ بِهَا قَالَ سُلَيْمَانُ: يَا أَيَّتُهَا النَّمْلَةُ أَمَا عَلِمْتِ أَنِّي نَبِيُّ اللَّهِ وَأَنِّي لَا أَظْلِمُ أَحَداً؟**

قَالَتِ النَّمْلَةُ: بَلَى. قَالَ سُـلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَلِـمَ حَذَّرْتِنِيهِمْ ظُلْمِي، فَقُلْتِ: ﴿يَا أَيُّهَـا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَـاكِنَكُمْ﴾؟ قَالَتِ النَّمْلَةُ: خَشِـيتُ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى زِينَتِـكَ فَيُفْتَتَنُـوا بِهَا فَيَبْعُـدُوا عَنِ اللهِ تَعَـالَى. ثُمَّ قَالَـتِ النَّمْلَةُ: أَنْتَ أَكْبَرُ أَمْ أَبُوكَ دَاوُدُ؟ قَالَ سُـلَيْمَانُ: بَلْ أَبِي دَاوُدُ. قَالَتِ النَّمْلَةُ: فَلِمَ زِيدَ فِي حُرُوفِ اسْـمِكَ حَرْفٌ عَلَى حُرُوفِ اسْمِ أَبِيكَ دَاوُدَ؟ قَالَ سُلَيْمَانُ: مَا لِي بِهَذَا عِلْمٌ. قَالَتِ النَّمْلَةُ: لِأَنَّ أَبَاكَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ دَاوَى جُرْحَهُ بِوُدٍّ فَسُـمِّيَ دَاوُدَ، وَأَنْتَ يَا سُـلَيْمَانُ أَرْجُو أَنْ تَلْحَقَ بِأَبِيكَ. قَالَتِ النَّمْلَةُ: هَلْ تَدْرِي لِمَ سُـخِّرَتْ لَـكَ الرِّيحُ مِنْ بَيْنِ سَـائِرِ الْمَمْلَكَـةِ؟ قَالَ سُـلَيْمَانُ: مَا لِي بِهَذَا عِلْمٌ. قَالَتِ النَّمْلَةُ: يَعْنِي عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ لَوْ سَـخَّرْتُ لَكَ جَمِيعَ الْمَمْلَكَةِ كَمَا سَخَّرْتُ لَكَ هَذِهِ الرِّيحَ لَكَانَ زَوَالُهَا مِنْ يَدِكَ كَزَوَالِ الرِّيحِ. فَحِينَئِذٍ تَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا»(١)

تفصيل القول

١ - ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾

التبسـم فتح الفم دون الضحك، فيما الضحك فتح الفم كله بما يزيد على التبسم.

ولقـد انتفـع النبـي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من قـول النملة البسـيطة في مظهرهـا، حيث ذكَّرته بما عرف منها وبالطريقة التي سـمعها بنعم الله عليه.

٢ - ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾

فطلـب من ربِّه الذي يرعـاه ويغدق عليه أن يُوفِّقه إلى الشـكر،

(١) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الشيخ الصدوق، ج١، ص٨٤-٨٥.

ذلك أن النعمة في بعض الأحيان تكون كبيرة بحيث يصعب الشكر إزاءها.

أما النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد انتبه فجأة وتذكَّر كل النعم التي وهبه الله تعالى، لا سيما وأنه لم يكن وحده الذي أُكرم بها، إنما النعمة كانت مستمرة متواصلة عليه وعلى والديه من قبل. وهو لم يكتفِ بذكر والده داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو النبي الملك الخليفة، وإنما ذكر والدته أيضاً، إذ لو لم تكن مؤمنة عفيفة محافظة على دينها، لكان وضعه غير ما هو عليه.

ثم إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ تقدم مسافات من الوعي شاسعة جدًّا، وهو أنه بعد طلب الشكر، طلب من الله التوفيق لأن يعمل عملاً صالحاً يكون مورد قبوله ورضاه، لأن العمل الصالح لا يصدر عن ابن آدم إلَّا في حالة الوعي والتوفيق، مضافاً إلى أن العمل الصالح لا يُسمّى صالحاً ما لم ينتهِ به الأمر إلى مرضاة الله.

أقول: حينما شعر نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قد وصل إلى قمة الملك والسلطة اعترضته مقولة النملة الحكيمة فتنبَّه إلى أن ما بلغه من القدرة المادية ليس هو القمة الحقيقية التي ينبغي أن يتوخاها ويبحث عنها النبي أو حتى المؤمن، وإنما عليه أن يتَّخذ منها طريقاً إلى قمة أخرى أسمى من تلك القمة بما لا يُوصف ولا يُقاس، وهنالك طلب من ربِّه الكريم أن يرزقه مجموعة أمور، كان في مقدمتها الشكر.

ولعل من غير الخافي أن الشكر لفظاً يعني معرفة النعمة و معرفة المُنعِم وأن يعطي ما فضّل عليه. ولكننا إذا تدبرنا مليًّا في هذه الكلمة، وجدنا أنها تمثل جوهر الحكمة وسبب التقدم ووسيلة النجاة، بل إنها تجلب السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة.

ولذلك قال الله عز وجل في آيةٍ كريمة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[1].

إن أول بند من بنود الشكر يتمثَّل في أن يعترف الإنسان بالنعمة اعترافاً ينتهي إلى العمل بموجبات ومقتضيات النعمة؛ مثل أن يستنفذ كل ما في النعمة من طاقة ويتوسَّع في آفاقها، وكذلك أن يُؤدِّي حقوق الآخرين فيها، وبذلك يتم التقدم نحو رحاب السعادة وترسيخ أسس الحضارة الصالحة.

بصائر وأحكام

١- إن العمل الصالح لا يصدر عن ابن آدم إلَّا بتوفيق الله له ووعيه بواجباته، ولا يُعدُّ العمل صالحاً ما لم ينتهِ إلى مرضاة الله.

٢- إن أول بند من بنود الشكر يتمثَّل في أن يعترف بها الإنسان اعترافاً ينتهي إلى العمل بما تستلزمه النعمة، وأن يستنفذ كل ما في النعمة من طاقة ويتوسَّع في آفاقها ويُؤدِّي حقوق الآخرين منها.

(١) سورة لقمان، آية ١٢.

وتفقَّد الطير

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

***

من الحديث

وروى العياشي بالإسناد قال: قال أبو حنيفة لأبي عبد الله عليه السلام: كَيْفَ تَفَقَّدَ سُلَيْمَانُ الْهُدْهُدَ مِنْ بَيْنِ الطَّيْرِ؟ قَالَ: «**لِأَنَّ الْهُدْهُدَ يَرَى الْمَاءَ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ كَمَا يَرَى أَحَدُكُمُ الدُّهْنَ فِي الْقَارُورَةِ**. فَنَظَرَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَضَحِكَ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: **مَا يُضْحِكُكَ**؟ قَالَ: ظَفِرْتُ بِكَ جُعِلْتُ فِدَاكَ. قَالَ: **وَكَيْفَ ذَاكَ**؟ قَالَ: الَّذِي يَرَى الْمَاءَ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ لَا يَرَى الْفَخَّ فِي التُّرَابِ حَتَّى تَأْخُذَ بِعُنُقِهِ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِاللَّهِ عليه السلام: **يَا نُعْمَانُ؛ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْقَدَرُ أَغْشَى الْبَصَرَ**؟»[١].

---

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٧، ص٣٧٥.

تفصيل القول

١ - ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾

شـيمة الأنبيـاء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في دعوتهـم وفي قيادتهـم هـي المواجهـة المباشرة، دون أن تكون من وراء الستار. فتراهم دائماً يقفون في الصف الأول لمقارعة أعداء الله سبحانه و تعالى.

هنـا في قصـة النبي سـليمان النبـي عَلَيْهِ السَّلَامُ نجد الحالة نفسـها، إذ كان بمواهبه العديدة وصلاحياته الكثيرة يتفقّد بنفسـه جُنده من الجن والإنس والطير. فحدث هذه المرة أنه تفقَّد جموع و أسراب الطير.

٢ - ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾

وهـو الطـير القادر على طي مسـافات كبيرة، وعلى استكشـاف الماء الكامن تحت الأرض، حتى لكأنه كان مسـؤولاً على أمر المراسـلة والاستطلاع، فلم يره النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الحريص كل الحرص على حالة الانضباط التام في صفوف جنود المملكة.

وبقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَآ أَرَى﴾ تلميح إلى أنه احتمل كون الهدهد قد ذهب في مهمة معينة إلى منطقة قريبة.

٣ - ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾

النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يسـأل أولاً، وبعدله ورحمته لا يستعجل في إطلاق الحكم عـلى أحد، وبمقدار حرصه على الانضباط، نراه يحرص عـلى التأني وطرح الاحتـمالات لئلّا يُضيّع حقـوق الآخرين. إذن فهو ملك عادل.

بصائر وأحكام

النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يستعجل في إطلاق الحكم على أحد؛ وبمقدار حرصه على الانضباط، نراه يحرص على التأني وطرح الاحتمالات لئلَّا يُضيِّع حقوق الآخرين.

ليأتيني بسلطان مبين

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

***

من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: «**لَأَنْتِفَنَّ رِيْشَهُ**»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾

كيف كان النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يعذب جنوده المُقصِّرين، ولا سيما

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٩.

فيما يتعلق بالطير؟ هل كان يسجنه؟ أم يأخذ من ريشه؟

ما يظهر أنه كان يُعذِّب بواسطة إيكال مهمات صعبة شاقَّة إلى الجندي المدان، إذ هذا هو الأقرب لحكمة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيما يرتبط بمهمتهم الأساسية في التذكير والتربية والتعليم. ذلك أن مقياس العذاب يختلف لديهم عن غيرهم، إذ الباعث فيه يتفاوت عمَّا يعتمده الظالمون. مضافاً إلى طريقة تنفيذ هذا العذاب، فهو لا يصدر عن رغبة الانتقام، وإخافة الآخرين، والتمثيل في المعاقَبين.

٢- ﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾

هو لم يقل: لأقتلنّه. والفرق معلوم بين القتل والذبح، إذ القتل إماتة للحيوان بلا هدف، فيما الذبح ينتهي إلى نتيجة وغاية، كأن يُعطى لحمه لحيوان آخر محتاج إلى طعام، هذا فضلاً عن أن الذبح أهون صور القتل للحيوان.

٣- ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾

هذا هو الخيار الثالث. وهناك أكثر من فرضية بخصوص ما كان يقصده سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من السلطان المبين الذي يتوقَّعه من الهدهد، لئلا يُعرِّضه للعذاب أو للذبح.

الفرضية الأولى: أنه يطلب منه أن يأتيه بدليل مقبول واضح، كأن يكون مريضاً حقًّا، أو كونه مسجوناً قسراً لدى طرف آخر.

الفرضية الثانية: لعله كان في مهمة تجسس وبحث في أطراف المملكة ضمن ما يتمتع به من الصلاحية، فيعزو تأخّره وعدم حضوره في مجلس النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ واستعراضه إلى انشغاله في أداء مهمة لم يسعه أن يُعلم من يفوقه رتبة بأمرها.

وهو ما لم يأتِ بالسلطان المبين، سَيُدان بتهمة التقصير أو بتهمة التعامل مع عدو من الأعداء.

بلى؛ إن لغة الخطاب هذي كانت لغة شديدة، لا سيما مع تضمُّن أفعالها لصيغة التأكيد من خلال دخول لام القسم والتأكيد ونونه. وهذه الشدة في الخطاب تعكس مدى انضباط القائد وعظيم خطر المهمة الإلهية الموكلة لهذا النبي العظيم في تلك الحقبة، وما تلك الإمكانات والآليات الكبيرة التي مُنحت لمملكة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا دليلاً على مدى الدور الخطير المتوقع لها أن تُؤديه بين الممالك والأمم الأخرى.. ولذلك لم يكن أمام النبي الملك مناص في ألَّا يتهاون مع جنده؛ الصغير منهم والكبير.. بل إن البعض من جنده كان يُؤدي دوره وهو مُقرَّن بالأصفاد والسلاسل لتحاشي أي احتمال للتكاسل أو الهرب أو التمرُّد. ومن هنا، استغل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قضية عدم تواجد الهدهد ليضرب بها ضربة معلم حكيم، لكيلا يفكر غيره بالتهاون في تطبيق الأوامر.

بصائر وأحكام

لعل الشدة في خطاب سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ تجاه الهدهد، تعكس مدى انضباط القائد وعظيم خطر المهمة الإلهية الموكلة إليه في تلك الحقبة، ومدى ضرورة التمسُّك بأهداف الرسالة.

وجئتك من سبأ بنبأ يقين

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

أي: انتظر برهة، فترة وجيزة، متوقعاً حدوث أمر ما. وهنا؛ سرعان ما رجع الطير الهدهد.

وواضح أن النص القرآني هنا لا يسرد مجرَّد قصة للاستمتاع أو الإخبار عن وجود نبي ما في فترة ما، إنما النص هنا يتضمَّن دلالات، منها ضرورة قضية الانضباط من جانب الهدهد، وجدوى الاعتبار بذلك من قبل المؤمنين لدى أدائهم وظائفهم المناطة بهم، وعدم اعتمادهم لغة التبرير؛

لأن هذه الحالة السلبية قد تُكلِّف الجمع المؤمن غالياً في بعض الأحيان.

٢- ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾

سليمان عليه السلام، وهو النبي المعصوم والملك المؤزّر، لا يعقل وهو في بلاد الشام أو في بلاد ما بين النهرين، كما تُشير بعض الروايات لدى حصول هذه القصة، قصة الاستعراض وتفقُّد الطير ورجوع الهدهد وإخباره بأخبار جديدة ألَّا يطلع على ما يدور في البقاع الجغرافية المحاذية لمملكته، أو ما هو قريب منه لدى مسيره. ولكن الهدهد كان قد قطع مسافات كبيرة جدًّا وعاد مسرعاً ليُخبر النبي الملك بتفاصيل جديدة ظن أنه لم يكن مُطَّلعاً عليها، ولعل سليمان عليه السلام كان قد أوكل إليه مهمة الاستطلاع في تلك الأطراف. ولكن لأهمية الأمر، كان قد طال الأمر فيه على سليمان عليه السلام، أو لعله لم يستأذن في طلعة من تلك الطلعات، فافتقده النبي سليمان.

ولكن كيف تسنَّى لطائر الهدهد أن يتجرَّأ ويقول لسليمان عليه السلام، هذا النبي الجليل والملك المقتدر بجنوده ووسائله وأجهزته: إنه قد جاءه بخبرٍ لا يعرفه؟

هناك إجابتان بهذا الصدد:

الأولى: أن الأنبياء عليهم السلام كانوا مطّلعين على الغيب في حدود ما يأذن به الرب سبحانه وبقدر محدّد، وأنه تعالى إذا أراد سَلَبَهُ منهم في أية لحظة. وهذا أمر لا يتناقض والعصمة الثابتة لهم. إذن عصمتهم ليست بذاتية، وإنما هي تسديد من عند الرب سبحانه لهم لكيلا يقعوا في الخطأ، فهم معصومون. ولكنهم إذا سُئلوا عن أمر ما، وكانوا يجهلون الإجابة عنه، فإن عصمتهم لا تسمح لهم بأن يستعجلوا الإجابة، فيجيبون إجابة خاطئة، وهنالك يأتيهم المدد الرباني ويُعلِّمهم ما ينبغي

أن يعرفوا. فأن يكون سليمان نبيًّا عظيماً وملكاً مقتدراً، لا يعني جدلاً أنه مُطَّلع على كل شيء، ولو كان كذلك، ما بقي عظيم أهمية لمراتب العلم والفضل لدى الأنبياء والمرسلين.

وأن يعلم طير هدهد بنبأ لا يعلمه سليمان النبي، قد يكون إشارة قرآنية واضحة إلى حكمة الله سبحانه وتعالى في تقديره أسباباً خاصة ومحدّدة للحوادث.

الثانية: إن الهدهد لم يكن على درجة عالية في المعرفة بحقيقة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ومرتبته العلمية؛ أي إن معرفته به كانت محدودة، فظن أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ جاهل بالخبر الذي جاء به.

ثم إن هذا الطائر الهدهد قال أول ما قال مقدمة عمَّا جاء به من الخبر، فكأنه كان يُقدِّم تقريراً مختصراً عمَّا يريد الإدلاء به فيما بعد من التفاصيل، لمزيد الإثارة لدى المستمع، وتقوية لحجته ودليله المقبول على غيبته.

٣- ﴿وَجِئۡتُكَ﴾

أي: إنني لم أكن جنديًّا أو مراسلاً متسيِّباً، وإنما الذي أخَّرني عن الحضور في موقعي حين تفقَّدت الطير يا نبي الله هو خدمتك وأداء الواجب الذي تتوقَّعه مني. كما أن الهدهد بقوله هذا، أراد القول بأنه لم يكن في مهمة خاصة به، وإنما الذي تحمَّله من الأعباء كان في سبيل معرفة ما يحيط بمملكة النبي سليمان؛ تقويةً لها ودرءًا للأخطار المحتملة عنها.

٤- ﴿مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ﴾

أي: من اليمن الواقع إلى الجنوب من شبه الجزيرة العربية، قد جاءه بنبأ؛ أي بمعلومة، والمعلومة أمر مهم في إدارة البلاد وتحصينها وفي بسط النفوذ بعد ذلك.

٥- ﴿يَقِينٍ﴾

وهذا هو المهم، علماً منه بمدى جدية النبي الملك في إدارة شؤون مملكته، وأنه لا يكتفي بأنباء غير مؤكدة.

أقـول: هنا تبدأ صفحـة جديدة من قصة النبي سـليمان عليه السلام. فبعـد بيـان قصته الحكيمة مـع النملة وما فيها من عـبر، أحجم القرآن الكريم عن الخوض فيها لأسباب قد حدَّدها هو لسياقه ها هي صفحة جديـدة من قصته تبدأ من قضية سـلوكه عليه السلام تجاه ما جاءه به الهدهد من نبأ يقين. والظاهر من الأمر أن هذه القصة قد حدثت لمملكة سليمان بعـد انقضـاء مراحل طوتها المملكة، وها هو يبـدأ مرحلة جديدة، فبدأ بأطراف حكومته لنشر دعوته وبسـط نفوذه الإيماني التوحيدي في أُمم يبـدو أنها كانت غارقـة في الشرك والضلال وإن كانت تتمتع بمسـحة من المدنية.

بصائر وأحكام

من الواضح أن النص القرآني هنا لا يسرد قصصاً للتسـلية، إنما النـص يتضمَّـن دلالات هامَّـة، منها هنـا قضية الانضبـاط من جانب الهدهـد وجـدوى الاعتبار به من قبـل المؤمنين لدى أدائهـم وظائفهم وعدم اعتمادهم لغة التبرير، لأن هذه الحالة السلبية قد تُكلِّف المجتمع المؤمن غالياً.

إني وجدت امرأة تملكهم

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾.

* * *

تفصيل القول

١- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾

ها هو الهدهد بدأ يسرد تفاصيل خبره.

أول سؤال يُطرح في هذا السياق: هل إن كتاب الله سبحانه حينما حدَّثنا بلسان الهدهد عن المرأة التي كانت تملك سبأً، وهي التي تُعرف في التأريخ ببلقيس، قد ذمَّها أم مدحها؟ وبالتالي هل لنا أن نستفيد من هذه القصة القرآنية شيئاً يتَّصل بموضوع حكم المرأة؟

يبـدو أن القـرآن لم يحدثنا في هـذه الآيات الكريمـة مباشرة عن حكـم المـرأة، وعـمَّا إذا كان من الصحيـح أن تملك أم لا.. بـلى؛ إنه قد تحدَّث عنها في موضعين رئيسين في سياق المدح:

الأول: حينـما بَيَّن أنهـا قد استشـارت قومها، والاستشـارة أمر ممـدوح عموماً، ممَّا يدلنا على أنها كانت تمـارس نوعاً من الديمقراطية. وهـذه ملاحظة ينبغي الالتفات لها، فإذا كانت هذه الملاحظة صحيحة فإنهـا تدلنـا عـلى أنه من الخطـأ القـول بـأن الديمقراطية وليـدة الفكر اليونـاني، ذلك أن التجربة الديمقراطية هذه قد شـهدتها منطقة عربية، حتى إن بلقيس كانت تخاطب قومها، وهي ملكتهم: ﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾(١).

أي: دون حضوركم ومشورتكم.

الثـاني: إن هذه المـرأة لم تُؤمن بمجرَّد رؤيتها عرشـها ماثلاً عند سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي لعلَّه يزن أطناناً، ولكنّها تريَّثت ثم أسلمت بعـد أن أقنعهـا نبيُّ الله عقائديًّا؛ فآمنت حين اكتشـفت الخطأ في دينها، ولم يكـن ذلـك عن ضعـف أو جهل أو استسـلام للطـرف القوي، أو تماشياً مع الواقع. ولعل هذا يُعتبر شهادة إيجابية بحقها.

ونتسـاءل مـرة أخـرى عـمَّا إذا كان حكم المـرأة للبـلاد والعباد صحيحاً أم لا؟

لعلنا نجد الإجابة عند التدبر في الآية التالية:

يقول سـبحانه وتعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾(٢).

(١) سورة النمل، آية ٣٢.
(٢) سورة النساء، آية ٣٤.

فقيمومة الرجال على النساء قاعدة عامة تُشير إلى سلطة الرجل وقيادته للمجتمع، والحجة في ذلك أمران:

الأول: أن الرجال يملكون المال وعليهم الإنفاق، ومن يُنفق يدير، لاقتران المال بالإدارة.

الثاني: إن عقل الرجل أرجح من عقل المرأة، ممَّا يُشير إليه قوله سبحانه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. والمراد منه فيما يبدو نمط التفكير واستعمال الحكمة والتدبير الخاصة عموماً بالرجال دون النساء، وقد وهب لهن الرب تعالى العاطفة لأنها أنسب لهن، ولما أوكلن بأدائه.. ويمكن أن يكون هذا التفضيل سارياً فطريًّا إلى قناعات الأمم والشعوب، حتى في عصرنا الراهن، إذ نرى المجتمعات تميل لا إراديًّا إلى اختيار الرجل على المرأة، سواء في مجالس البرلمان أو في الانتخابات الرئاسية، مع أن المعروف أن نسبة الإناث تفوق نسبة الذكور عموماً. هذا وإن العديد من البلدان كثيراً ما تنادي بالمساواة بين الرجل والمرأة، وهناك مئات المنظمات المعنية بحقوق المرأة وأنها العنصر الأشد مظلومية على مر التاريخ، ولكن المجتمعات ومع أن أكثرها لا تُؤمن بالقرآن ولا بالإسلام، لكنها تسلك في نهاية المطاف إلى حيث تقديم الرجل على المرأة في موضوع الحكم والولاية.

٢- ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾

أي: تقودهم وتملك أمر سياستهم وإدارتهم، ولا تملكهم ملك ذات؛ لأن ملك الذوات خاص بالله عز وجل.

٣- ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

هذه الكلمة تكرَّرت بالنسبة للنبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما هي بالنسبة

إلى بلقيس. ويبدو لي والله العالم أن هذه الكلمة تعني أن حياة الإنسان متكاملة، وهكذا خلقه الله تعالى وجعل له الحواس والنعم حسب حاجته. وهكذا يُتوقَّع للدولة أن تكون متكاملة؛ أي إن اقتصادها مثلاً لا يعتمد الزراعة فقط، أو الصناعة فقط، وإنما ينبغي أن يكون كل ما فيها متكاملاً جامعاً لمختلف الموارد التي يحتاجها المجتمع.

٤- ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾

عادةً ما يكون لكل دولة شعارها الذي يختزل مفاهيمها ويُعبر عنها؛ فالمصريون مثلاً بنوا الأهرامات، والبابيلون الجنائن المعلقة، والصينيون سور الصين العظيم، والفرنسيون برج إيفل.. وكل ذلك يحوي حالة رمزية لما يطمحون إليه. وكذلك عرش الملوك تراه تتجسَّد فيه الفنون، ويشترك في صناعته حرفيون كثر. ولذلك لم يكن الهدهد ليُشير إلى عظمة عرش بلقيس عبثاً، ولذلك أيضاً كان توجّه سليمان عليه السلام إليه بشكل خاص.

وهكذا نجد أن هذه الآية التي جرت على لسان الهدهد، أو اختزلت ملاحظات الهدهد، وهو أحد جنود مملكة سليمان عليه السلام، قد اختصرت ملامح حضارة قوم سبأ وواقعها وطبيعة الحكم فيها. وهكذا هو ديدن الآيات القرآنية التي تتناول الصفحات التاريخية للبشرية، حيث تنتقل بنا من حقيقة إلى أخرى، تقريراً وتوثيقاً وتحليلاً واستنتاجاً وحثّاً على الدراسة والاعتبار. هذه صفة خاصة بالقرآن الكريم بامتياز دون سائر الكتب التي عرفتها البشرية أو التي ستعرفها.

* * *

بصائر وأحكام

١- تميزت ملكة سبأ باستشارة قومها، وحينما آمنت بالله سبحانه كانت قد اقتنعت بالبرهان القاطع، ممَّا دلَّ على وجاهة عقلها.

٢- وإن للرجل القيمومة على المرأة بما ينفق من ماله، وبما يملك من عقل.

٣- كانت حضارة سبأ متكاملة فيما يبدو ولا تعتمد على جانب واحد من ركائز القوة.

وجدتها وقومها يسجدون للشمس

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ، وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوًّا نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيًّا، وَنَفَثَ فِي الْآذَانِ نَجِيًّا، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى، وَوَعَدَ فَمَنَّى، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَاسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ**(١)، **أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ**(٢)، **وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ**»(٣).

---

(١) استغلق رهينته: جعله بحيث لا يمكن تخليصه.

(٢) أنكر ما زيّن: تبرأ الشيطان ممن غواه.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ٨٣.

تفصيل القول

ذات مرة حاولت النظر إلى قرص الشمس، ولكنني بعد لحظات رأيت ظلاماً، فعلمت أن الشمس لا تُرى مباشرة، وإنما ينبغي أن تُرى من خلال الظل الذي تعكسه على الطبيعة. فهي حينما تكسو الجبل بنورها الذهبي عند الأصيل، وعندما تُشرق على غابة أو صحراء أو أجسام مختلفة، فإننا سنتأكد منها ونعرفها من خلال آثارها.

والعجب من أمر بعض ذوي العقول الساذجة أنهم حينما رأوا في الشمس مصدراً للضوء والدفء والعطاء، جعلوا منها محوراً لعبادتهم وتقديسهم. ويبدو أن عبادة الشمس قد انتقلت من مصر إلى مناطق أخرى كاليمن، فهم عبدوها ونسبوا كل شيء إليها دون أن ينسبوها إلى شيء؛ فلم يتساءلوا مثلاً عمَّن جعلها مضيئة، وعمَّن جعلها تتوسط جو الفضاء، وعمَّن يضبط حركتها، أو عمَّا إذا كانت الشمس عادلة حكيمة، وما إذا كانت من ورائها يد تُحرِّكها؟

ولو أنهم كانوا قد كلَّفوا أنفسهم قليلاً عناء هذه التساؤلات، لجاءتهم الإجابات سراعاً، ولتوصَّلوا بكل يسر إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولعرفوا أن الطبيعة من حولنا ليست قائمة بذاتها، وأن الآثار تُخبر عن الجوهر، وأن للطبيعة ربًّا قديراً ومُدبِّراً حكيماً قد خلقها وأعطاها ما أعطاها، وهو آخذ بزمامها، مُنظِّم لحركتها. لكن الإنسان -غالباً ما- يتوقَّف عند الظواهر، حيث يتجمَّد العقل ويتبلَّد الشعور، فتفوته فرصة الاستيعاب.

ويُبيِّن القرآن المجيد هذه الحقيقة بالتأكيد على أن في الإنسان قوَّتين؛ قوة الروح وقوة الجسد، أو لنقل: قوة الفكر وقوة السلوك.

وهاتان القوتان تتبادلان التأثير؛ بمعنى أن فكر الإنسان يؤثر في سلوكه، كما أن سلوكه يؤثر في فكره. فَمَنْ يُخطئ في سلوكه فيمشي على غير هدىً تراه في نهاية المطاف يستعذب الخطأ، حتى إنه ليعدّ الخطأ صواباً، وذلك بعد أن يتجذَّر هذا الخطأ في ذهنه بفعل التكرار من جهة، وبفعل ما يرى الكثير ممَّن يُشبهه في الخطأ. قال عز وجل: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[1].

بينما يتوجَّب على ابن آدم أن يتنبه إلى أن العمل السيئ يؤثر كل التأثير في منهج تفكيره، ومع أنه قد خُلِقَ أول ما خُلِق في أحسن تقويم، ولكنه نراه يخرج من دائرة النور شيئاً فشيئاً باتجاه الظلام بفعل موالاته للشيطان والطاغوت والنفس الأمارة بالسوء.

١- ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

ولكن لِمَ يسجد الإنسان للشمس؟ وماذا يُحقِّق له هذا السجود من فائدة؟

إنما يسجد للشمس أو لغيرها من الآلهة المزيفة، لأن الله تعالى قد سلب منه نوره، ليجد نفسه قابعاً في الظلمات المحيطة به من كل مكان.

٢- ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَعۡمَـٰلَهُمۡ ﴾

يجعل الشيطان الشر في عين الإنسان المشرك في أية درجة من الشرك كان -أليس للشرك صور ومراتب ومظاهر شتى؟- خيراً ذا شكل مرغوب، وهذا التزيين يؤدي بالمزَيَّن له أن يتعصَّب ويدافع عن باطله ويعتز به، فتأخذه العزة بإثمه، ويتكبَّر على ذوي الخير، بل ويتكبَّر على الخير نفسه.

(١) سورة الروم، آية ١٠.

ولكنـه قد يعـود تارة إلى نفسـه ووجدانـه، فيحاول أن يُسـكته ويُعمِّيَـه ويتجـاوزه، حتى لـتراه يختلق ثقافة خاطئة تبريـراً لتكالبه على خطئه، فينتهي به الأمر إلى الصد التام عن سبيل الله؛ أي يمنع غيره عن مسار الحق كما منع نفسه.

٢- ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾

حيـث وصلوا إلى تيه الضلالة فتراهم قـد ضيَّعوا الطريق، فأنّى لهـم الاهتـداء إلى الجـادة، إلَّا أن يتراجعوا ويتمسـكوا بهـادٍ، وإلَّا فإن الأعمى لا سـبيل له للاهتداء من قبل نفسـه. بينما ينبغي للإنسـان ألَّا يسترسل مع المعاصي ولا يستسلم لنداء الشيطان، وأن يُسرع في العودة إلى الله تعـالى مـن قبل أن يصل إلى حالة تسـتحيل عليه العـودة فيندم، ولات حين مندم.

بصائر وأحكام

يتوجب على ابن آدم أن يتنبَّه إلى أن العمل السيئ يؤثر كل التأثير في منهج تفكيره، مع أنه قد خُلِقَ أول ما خُلِقَ في أحسـن تقويم، ولكنه تـراه يخرج من رحاب النور شـيئاً فشـيئاً باتجاه الظلام بفعـل موالاته للشيطان والطاغوت والنفس الأمارة بالسوء.

وهكذا ينبغي على الإنسان أن يُسارع إلى التوبة قبل أن يتوغَّل في تيه الضلالة، فلا يهتدي أبداً.

ألا يسجدوا للّـه

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

***

تفصيل القول

هل يمكن أن يكون العلم غير نافع؟ أليس العلم مطلوباً أبداً؟

بلى؛ قد يكون العلم غير ذي نفع، ولكن متى؟ حين يفقد المرء البصيرة، وحينه تحدث الفاصلة بين العلم والعمل، فترى المرء يعلم لكنه لا يعمل. فيكون الحال مصداقاً لقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**عِلْمٌ بِلَا عَمَلٍ كَشَجَرٍ بِلَا ثَمَرٍ**»[1]. وهذا لعمري يجسِّد مشكلة الازدواجية بين ما يعرفه المرء وبين ما لا يعمله. ومن أجل ذلك، نجد أن ربنا عز اسمه حين يُبيِّن لنا آياته في الخليقة وتجليات

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٥٢، حديث رقم ٢٨١٨.

أسـمائه الحسنى فيها، يُذكِّر بها علينا من مسـؤولية جسيمة. وهذا يعني أن العلم لا يُذكر لمجرد المعرفة، وإنما للعمل به. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

فهم ما أن يتفكَّروا في خلق السـماوات والأرض، وما أن يعرفوا حكمـة الخلق حتى يُسبّحوا، بينما تجـد المتهرِّبين عن تحمُّـل علمهم لا يُعيرون أهمية لما تعلَّموه، بل وتدفع بهم ضلالاتهم إلى إنكار ما تعلَّموه والعمل بعكس ما يمليهم علمهم.

١ - ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

إنهم يسـجدون للشمس دون أي دليل منطقي، مع كل نداءات الفطـرة التي تصرخ بهم، وتُذكِّرهم بأن الشـمس غير جديرة بالعبادة، وإنما الذي خلقها وبيده تدبير أمرها.

أما إخراج الخَبْء فهو إظهار وإخراج الغيب إلى الشهود، وليس مـن أحـد بقادر على ذلـك غير الله عز وجـل، وهو المُتفـرِّد بالوحدانية والقدرة المستطيلة، وهو المحيط علماً بكل شيء.

٢ - ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

قبـل ذلـك تطـرَّق الحديث إلى إخـراج الخَـبْء من السـماوات والأرض مـن قِبَـلِ الله تعـالى، وهنا ذكَّر بأنه سـبحانه يعلـم ما تُخفون. وهـذا يعني فيما يعنـي أن الذي يعلم مـا في الأرض من نبات من تحت الأرض، والـذي يخـرج الذرة ويجعلها وقوداً للشـمس بعـد أن يفلقها ويخـرج مـا وضـع فيهـا من طاقـة.. هو يعلـم أيضـاً ما هـو مكنون في

(١) سورة آل عمران، آية ١٩١.

القلوب، ذلك أنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد.

وهـو سـبحانه يعلم ما يُعلـن عبـاده ويُظهرون من بـاب أولى، وذلك تمهيداً للجزاء على العمل الخفي.

ولذلـك يتوجَّـب على ابـن آدم أن يحذر كل الحـذر ويُراقب ربَّه في قلبـه، وأن يجعـل حوله حصناً وحـرزاً من العلـم والعمل والتقوى والورع، درءًا لوسـاوس الشـيطان والنفس الأمارة بالسوء والضغوط المحيطـة. والمقصـود بالمراقبة؛ جعل الله رقيباً حسـيباً عـلى نوعَي عمله الظاهري والباطني.

بصائر وأحكام

عـلى ابن آدم أن يحـذر كل الحذر ويُراقب ربَّه في قلبه، وأن يجعل حولـه حصنـاً مـن العلم والعمـل والتقوى والـورع، درءًا لوسـاوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء والضغوط المحيطة.

رب العرش العظيم

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿ٱللَّهُ﴾

تكرَّرت كلمة (الله)، وهي اسم الجلالة، في القرآن الكريم كما لم تتكرَّر غيرها من الكلمات؛ ذلك لأن أسماء الله كثيرة وآياته شتى، وهي تتمحور في كلمة (الله). من هنا فكلما سمعنا هذه الكلمة المقدسة، نكون قد استحضرنا في أذهاننا كل تلك الأسماء والآيات.

٢ - ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

وهذه الكلمة تهدينا إلى أن الذي يستجمع كل صفات الكمال والجلال، وهو خالق كل شيء، وهو العالم بغيب السماوات والأرض،

والسر والعلن، والقادر على إخراج ما في الغيب، وهو الذي لا إله غيره، فلا مفر منه إلَّا إليه، ولا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه، ولا مناص للمخلوق من التسليم له والطاعة لأمره.

وهو:

٣- ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾

والعرش في بعض معانيه عنوان القدرة. والعرش العظيم هنا، يعني العرش الحقيقي الجدير بأن يُوصف بالعظمة دون عرش بلقيس الزائف والزائل الذي صنعته يد الإنسان بهدف التظاهر بالسلطة.. ولكن عرش الله هو عرش التدبير الحقيقي لشؤون العالم.

بصائر وأحكام

الله هو الذي يستجمع كل صفات الكمال والجلال، وهو خالق كل شيء، وهو العالم بغيب السماوات والأرض، فلا ملجأ ولا منجى منه إلَّا إليه، ولا مناص من التسليم له والطاعة لأمره.

قال سننظر..

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

تُشكِّل المعلومة عصباً رئيساً للدولة، وهي تُساهم في حفظ الأمن للمواطن بصورة فعالة، ذلك لأن المعلومة الصادقة -بالإضافة إلى دراستها بصورة صحيحة- هي التي تحبط المؤامرات، بل إن المعلومة هي التي توفر الفرصة للتخطيط السليم وكيفية بسط السيطرة على الحياة.

وربُّنا المتعال في هذه القصة يُبيِّن تعامل النبي سليمان عليه السلام مع المعلومات، حيث استفاد بشكل رائع من الطرق غير المألوفة، مثل الهدهد، ممَّا يعني أن على الدولة أن تستفيد من كل فرصة وكل وسيلة لحفظ أمنها وتحصين عزتها.

ثـم إن نبي الله سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يأخذ الخبر الذي جاء به الهدهد مأخـذ القبـول بلا حجة، مع أن الهدهد لم يكن مضطراً إلى الكذب، ولم يكن معروفاً بالكذب من قبل، ولكن سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُصدِّقه للوهلة الأولى، ممَّـا يعنـي خطـأ الدولة حينما تُسـلّم بصدق مخبريها دائـماً، وإنما عليهـا التأكـد مـن كل خبر؛ المـرة بعد المـرة، لتفادي الوقـوع في الخطأ الذي يُعرِّض حيـاة الأبرياء للظلم. ولطالما شرَّعت الأحكام القضائية ضرورة الإتيان لدى الادِّعاء بشـاهدين عادلين، لاحتمال وقوع الجهل أو النسيان أو الخروج عن العدالة في الحكم. وهكذا جعل النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ المعرفةَ معياراً لصدق الهدهد.

١- ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾

أي: سـنتأكد ونعرض خبرك هذا على الدراسـة والتحليل، لأن الخـبر الذي جئـتَ به غايـة في الأهميـة، وتتوقف على صحتـه أو كذبه قرارات مهمة جدًّا.

٢- ﴿أَصَدَقْتَ﴾

هـو كان صادقـاً في أصل القضية وعموم الخـبر، ولكن لعله قد اعـتراه بعـض اللبس في نقـل تفاصيلها. حيث قـال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[1].

٣- ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

أقول: إن النبي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ اسـتفاد من الطـرق غير العادية، هذا **أولاً**.

---

(١) سورة النمل، آية ٢٣.

ثانياً: أصر على التأكد من الخبر.

ثالثاً: وضع آلية لتمييز الصدق واكتشاف الكذب، (حسب ما يأتي في الآية التالية).

بصائر وأحكام

تُشكِّل المعلومة عصباً رئيساً بالنسبة إلى الدولة، حيث إنها تُساهم في حفظ الأمن، ذلك لأن المعلومة الصادقة وأيضاً دراستها بصورة صحيحة، تحبط المؤامرات وتوفر الفرصة المناسبة للتخطيط السليم.

اذهب بكتاب هذا

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

***

تفصيل القول

أوكل النبي سليمان عليه السلام لطائر الهدهد ثلاث مهمات، وأمره بتنفيذها على وجه الدقة، ليتبيَّن صدقه من كذبه:

الأولى: حمل الكتاب إلى قوم سبأ.

الثانية: التولي والانعزال ناحية، بحيث يراهم ولا يرونه.

الثالثة: النظر والتأكد من قرارهم وما يرجعون فيه إلى ملكتهم من أمر بخصوص الكتاب. وطبعاً يستتبع ذلك، عودة الهدهد بخبرهم لسليمان عليه السلام.

فـإذا حقق الهدهد هذه المهمات على نحو الدقة، هنالك سـيتأكد صدقـه، فتتمكن أجهزة الأمن والسياسـة والحـرب العاملة لدى النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من اتخاذ الخطوات اللازمة بخصوص الموقف من ملكة سـبأ. ممَّـا يعني ضرورة اشـتراك الجميع ومسـاهمتهم في درأ الخطر عن البلاد، وعدم تواكلهم ورميهم أعباء المسؤولية بعضهم على بعض.

بصائر وأحكام

مـن الـضرورة اشـتراك الجميـع ومسـاهمتهم في درأ الخطر عن البلاد، وعدم تواكلهم ورميهم أعباء المسؤولية بعضهم على بعض.

أُلقي إليَّ كتاب كريم

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

لم تُخفِ تلك المرأة الحكيمة التي كانت تحكم حضارة عربية عن قومها الحدث الكبير والمهم، لذلك تراها:

١ - ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ﴾

ومَنْ هم الملأ؟ إنهم المحيطون بها من الأعيان، ولعلَّهم كانوا أركان النظام الحاكم، الذي يبدو أنه كان نظاماً قبليًّا وربما كانت هي شيخة وبنت شيخ كان يسودهم ويتملك أمور تدبيرهم.

وكلمة ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ تعكس وضعاً سلبيًّا، وطالما وردت في القرآن بهذا المنحى، وجاءت الكلمة للتعبير عن المحيطين بنمرود أو فرعون

وغيرهما، وهم الجماعة الذين يملؤون العين ويؤثرون في قرار الحاكم.

٢- ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾

أُلقـي مـن علٍ إليهـا، وليس عليهـا؛ أي إنهـا كانـت المقصودة بالكتـاب، ولكـن كيفَ عرفت أنـه كتاب كريم؟ هـل لأن الكتاب قد بدأ باسـم الله سـبحانه، أم لأن سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ذا سـمعة في العدل والقسـط قد ملأت الآفاق بما فيها اليمن، وهي غير بعيدة عن الطرف الآخر من الجزيرة العربية؟

وبما أن سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان كريماً، فـإن كتابه مثله أضحى كريماً. إنهـا رأت الكتـاب مختوماً، بما يعني أن صاحبـه لا يريد لأحد أن يطَّلع عليه إلَّا من أُرسل إليه، فختمه بخاتمه، وهو خاتم سليمان الملك والنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ. أو لعلهـا رأت فيـه كلمة (الله) التي افتتح النبي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كتابه بها، مع اقترانها إلى اسمي الرحمن الرحيم.

بصائر وأحكام

بـما أن ملكـة سـبأ كانت ذات حكمـة، فقد استشـارت الملأ من حولهـا وأثنت على كتاب سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كريم، لأنـه قد ابتدأ بذكر الله الرحمن الرحيم.

إنه من سليمان

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾

هـذه الكلمة هـزّت بلقيس، ولذلـك وصفتها وعمـوم كتاب سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كريم، لأنه كان من النبي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولأن فيه كلمة البسملة الشريفة، فقد حاز على الكرامة.

بلى؛ إن البسملة هي التي هزَّت بلقيس وأوقدت في نفسها جذوة الإيمان، أو لا أقل دفعتها إلى الشـك في شركها، ذلك لأن البسـملة هي في حقيقتهـا أعظم آية قرآنية، ولها خصوصيتهـا. ولطالما حاول الكفار تجاهلهـا، حتى إن منهم من كان يحارب الشـعائر الإلهية ويقولون: وما

الرحمن؟ ليجعلوا من الله أو (الإله) مناسباً مع قساوتهم البعيدة عن الرحمة والكرامة والمحبة. وعلى هذا المنوال تابع البعض ممَّن تسلط على رقاب المسلمين، حاول مستميتاً حذف البسملة، واتَّهم كل من يظهرها بالبدعة. وعن هذا رُوي عن خالد بن المختار، قال: «سمعت جعفر بن محمد عليه السلام قال: **مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، عَمَدُوا إِلَى أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَزَعَمُوا أَنَّهَا بِدْعَةٌ إِذَا أَظْهَرُوهَا، وَهِيَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»[(١)].

نعم؛ إن هذا الذكر هو أقرب إلى الاسم الأعظم من بياض العين إلى سوادها، ولقد أشارت روايات كريمة إلى أنها هي أو جزء منها يتضمن الاسم الأعظم، وهو الاسم الذي يمكن المرء في حال إحرازه من تسخير ما يحيط به.

٢- ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾

إنّ مَنْ يُمثِّل الهدى في الأرض هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ذلك أنهم يدعون إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك يبدؤون كلامهم ومشاريعهم باسم الله تعالى، وليس بأسمائهم كما يفعل كل طاغية مُتكبِّر، ولا باسم الشعب كما يفعله كل متزلّفٍ مخادع، إنما يذكرون الله ويتحدَّثون باسم السُّنن الإلهية التي وضعها الباري عز وجل؛ أي إنهم يتجرَّدون عمَّا في ذواتهم من خصوصيات، حتى إنك لا تجد نبيًّا ولا إماماً يدعو إلى قومية أو عصبية أو إقليمية أو مصالح حزبية.

وها هو نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي تهيمن رسالته على جميع الرسالات، قد وصفه الله تبارك وتعالى قائلاً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٤، ص١٦٦.
(٢) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

٣- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

الرحمن؛ صفة مبالغة، وصفة المبالغة تدل على الشمولية.

والرحيم؛ من الصفات المُشبَّهة بالفعل، وهي تُشير فيما تُشير إلى الاستمرار. وعليه؛ فالرحمن تعني الرحمة الشاملة، فيما الرحيم تعني الرحمة الدائمة. والشمول والدوام هما صفتا الرحمة الإلهية.

بصائر وأحكام

إنّ مَنْ يُمثِّل الهدى في الأرض هم الأنبياء والأئمة عليهم السلام، ذلك أنهم يدعون إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك يبدؤون كلامهم باسم الله تعالى، وليس بأسمائهم كما يفعل كل طاغية متكبر، ولا باسم الشعب كما يفعله كل متزلِّفٍ مخادع. إنهم يتجرَّدون عمَّا يتَّصل بأشخاصهم، حتى إنك لا تجد نبيًّا ولا إماماً يدعو إلى قومية أو عصبية أو إقليمية أو مصالح حزبية.

أَلَّا تعلوا عليَّ

﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

***

من الحديث

في روايـة أبي الجـارود عـن أبي جعفـر عليه السلام في قـول الله تعالى: ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ يقول: «**لَا تَعْظُمُوا عَلَيَّ**»(١).

تفصيل القول

باعتبار أن سـليمان عليه السلام نبي العـصر، وخليفة الله في الأرض، كان لـه المبـادرة بإعلان الجهاد وأمر الكفرة بالتسـليم لحكمه، لا سـيما وأنـه يعرف حكم الله تعالى على واقعه، ولذلـك ورد عن الإمام جعفر

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٩.

الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِذَا قَامَ قَائِمُ آلِ مُحَمَّدٍ** عليه السلام**، حَكَمَ بِحُكْمِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، لَا يَسْأَلُ بَيِّنَةً**»[1].

بلى؛ إن الله تعالى كان قد هيَّأ له حكماً قويًّا، فلم يكن يجوز له الرضا بأن يُعبد غير الله تعالى في الأرض.

ومن هنا نجده يتحدَّث بلغة الآمر المسيطر، فيُوجِّه أمره إلى سبأ بأن ينصاعوا لسلطته وأن يأتوه مسلمين مستسلمين لإرادة الله الواحد الأحد؛ وله باعتباره خليفة الله في أرضه، فَوَجَبَ عليهم أن يتَّقوا الله ويُطيعوا الرسول. علماً أنه ما من نبي أُرسِل إلى الناس إلَّا ليُطاع بإذن الله. وهذا معنى الإسلام، فلا فرق بين أن يسلم المرء وبين أن يطيع النبي الرسول.

بصائر وأحكام

ما من نبي أُرسِل إلى الناس إلَّا ليُطاع بإذن الله، وهكذا أمر سليمان عليه السلام سبأً بأن يسلموا له.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٣٩٧.

أفتوني في أمري

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ، وَمَنْ شَاوَرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِيْ عُقُوْلِهَا**»[1].

وقال عليه السلام: «**مَنْ شَاوَرَ ذَوِيْ النُّهَى وَالأَلْبَابِ، فَازَ بَالنُّجْحَ وَالصَّوَابِ**»[2].

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٦١.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤٤٢، حديث رقم ١٠٠٨١.

تفصيل القول

هناك ثلاثة أنماط من الأنظمة الحاكمة:

الأول: حكومة الشورى، ولعلها تمتاز بالرؤية الصائبة مع ابتلائها بقلة الحزم، وذلك لأن هذه المشورة قد تتسبب في قلة العزم في القيادة.

الثاني: حكومة الديكتاتورية، المتصفة بالقوة والحزم، وبالفساد في أكثر الأحيان، وهي كما الدابة الجامحة التي لا تُكبح.

الثالث: حكومة تجمع بين الأمرين؛ بين الأخذ بالآراء مع اعتماد القرار الحازم، إذ بالإضافة إلى بلورة الآراء لديها فإن فيها قوة حازمة.

ويبدو أن الحكم الإسلامي على هذا النمط. ولقد كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم مع عدم حاجته للمشورة لاتصاله بالوحي ولمقامه المعصوم إلَّا أنه كان يتعمَّد إشراك ذوي العقول وذوي المروءة لاستعطافهم على الأقل أو لتربيتنا على روح المشاركة، ولكن يبقى القرار قراره، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

ومن خلال بحوثنا الفقهية يتَّضح أن طبيعة الحكم الإسلامي يستثمر آراء الناس ويحترمها، ويقولبها ضمن مجالس شورى على مختلف الأصعدة.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

١ - ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾

ولعل هذه الآية الشريفة تدلنا على طريقة الحكم التي كانت سائدة في بلاد اليمن. ذلك لأن بلقيس لم تتجاهل أركان سلطتها، وأعيان قومها، وهم المندوبون عن المجتمع عند السلطان، والمستشارون الذين يملؤون العين، قالت لهم:

٢ - ﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

ولكن ما هي الفتوى التي طلبتها بلقيس؟

إذا أعطى المرء مالاً لآخر تبرعاً بلا مقابل، فهو كرم أو جود؛ ولكنه إذا أعطى من علمه شيئاً، فهو فتوى. إذن معنى الفتوى إعطاء جزء من العلم لآخر. ولكن الفتيا عند العلماء هي أن يأخذ العالِم القواعد العامة من الشرع آيات وروايات فيستنبط منها فرعاً وحكماً من الأحكام ثم يقدمه للناس. وهكذا نعرف أن هذه المرأة أمرت ملأها لدى كلامهم بالاعتماد على القيم التي يؤمنون بها، تماماً كنائب المجلس الذي يُبدي رأيه في قضية من القضايا بناءً على ما يدعمها ويُؤيِّدها من مواد الدستور.

وهكذا يتضح أنها لم تطلب من أعيان بلدها مجرد المشورة، وإنما أمرتهم بأن يفتوها بما يجدونه في سننهم السابقة.

ويبدو أن القرآن المجيد يُريد توجيه الأنظار إلى مصداقية هذا النمط من الحكم، باعتباره الأنجح من بين الأنماط الأخرى.

بلى؛ إن قول امرأة مشركة كانت تحكم سبأ وتعبد الشمس من دون الله ليس حجة على صحة فعلها، ولكننا نقول: إن القرآن الكريم لا يذكر لنا القصص التاريخية إلّا على سبيل العبر، ولو كان

الله سبحانه يخالف نمط الحكم الذي كان معمولاً به في اليمن على عهد بلقيس، لأدانه رأساً مثلاً كان يقول: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾(١)، كما أدان الممارسات الظالمة عند بيان قصص الأمم الغابرة، حيث إننا نجد أن الله سبحانه لم يذكر واقعة إلَّا وبيَّن موقفه منها إذا كان سلبيًّا.

ثم إنها -كما يبدو- أرادت بحكم رجحان عقلها وطبيعة إدارتها لشؤون بلادها التعرف إلى مدى استعداد أركان دولتها لخوض الحرب، دفاعاً عن البلاد، وذلك تسخيراً لطاقات شعبها. وهذا يتضح من الآية القرآنية التالية.

بصائر وأحكام

إن نمط الحكم الإسلامي -كما يبدو- يتمثل في استثمار آراء الناس ضمن مجالس شورى على مختلف الأصعدة.

(١) سورة النحل، آية ٥٩.

فانظري ماذا تأمرين

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾.

* * *

تفصيل القول

من حكمة بلقيس، ورصانة عقلها في إطار الحكم، أنها أرادت التعرُّف إلى مدى استعداد أركان دولتها لخوض الحرب، لأن عقد العزم على خوض غمار الحرب ليس بالأمر الهيِّن، لذا فهو يستدعي تقصّي القدرات والإمكانات، والاستعدادات اللازمة.

فلم تنتظر طويلاً حتى جاءها الجواب: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾، مظهرين بذلك استعدادهم لخوض غمار الحرب، لما يتمتعون به من قوة وبأس شديد. ولكنهم بالرغم من إيمانهم بما يتمتعون به من قوة وما يمتلكون من وسائل حرب.. إلَّا أنهم لم يبتّوا في الأمر بتًّا

قاطعاً، وإنما أظهروا طاعتهم لملكتهم، وإخلاصهم لها، ففوّضوا أمر الحرب إليها، وقالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

بصائر وأحكام

من حكمة بلقيس، ورصانة عقلها في إطار الحكم، أنها أرادت التعرُّف إلى مدى استعداد أركان دولتها لخوض الحرب، لأن عقد العزم على خوض غمار الحرب، يستدعي تقصِّي الاستعدادات اللازمة.

إذا دخلوا قرية أفسدوها

﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ ﴾.

* * *

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سِتَّةٌ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَكُلُّ نَبِيٍّ مُجَابٌ: (إلى أن قال:) وَالمُتَسَلِّطُ بِالجَبَرُوتِ لِيُذِلَّ مَنْ أَعَزَّهُ اللَّهُ، وَيُعِزَّ مَنْ أَذَلَّهُ اللَّهُ»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً ﴾

بين الهوى والهدى مسافات شاسعة جدًّا، ولكن الشيطان

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٣٣٨.

والهـوى والنفس الأمارة بالسـوء وضغوط الحياة كلّها تُزيِّن للإنسـان عكس ذلك، وتحاول الخلط بين هاتين الحقيقتين.

وليـس الهوى سـوى جذبـة الأرض، وشـهوة الإنسـان.. بينما الهدى نفحة إلهية ومنها قبس العقل، وروح الوحي.

إن الهدى يكشـف عن سـنن الله في الخلق، وعـن حقائق العالم، بينـما الهـوى ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾[1]. مـن هـذه الآيـة المباركـة نسـتفيد جملـة بصائـر، تنفعنا في دنيانا كما نسـتنير بها في آخرتنا إن شـاء الله تعالى.

ولقد سـبق أن بينّا مراراً بأن الهـدف من قراءة القرآن والتدبر في آياته الكريمة، هو تفسـير الواقع الذي نعيشه بالقرآن. وبعبارة أخرى: أن ننظر إلى الحياة بمنظار القرآن ونور الكتاب المجيد، فنكتشـف الحق ونُميِّزه عن الباطل، وبهذا قد اتَّخذنا من القرآن فرقاناً مبيناً.

وانطلاقـاً من الآية الكريمة يُبيِّن لنا ربُّنا المتعال طبيعة الاحتلال واسـتيلاء البعـض على بـلاد الآخريـن بالقوة. حقّـًا؛ ما جـاء في هذه الكلـمات القرآنيـة مع قصرهـا تُبـيِّن المزيد مـن الأزمات التي يُسـبِّبها الاحتلال. ولكي تتوضَّح الرؤية في تفسير هذه الآية لا بد من التوقُّف عند كلمة (القرية).

القريـة هـي البقعـة الجغرافيـة المحـدَّدة بسـور أو جبـل أو نهر، لتكـون بهذا الحـد أو ذاك منطقة آمنة، وهذه المنطقـة ليس لها أن تعيش دونما نظام سـياسي واقتصادي واجتماعي، لأن النـاس حينما يجتمعون فسـوف تتضـارب أهواؤهم وتختلـف مصالحهم، فلا بـد لهم من نظام

(١) سورة النور، آية ٤٠.

يضبطهم، ومن دون هذا النظام يستحيل إصلاح أمورهم، وحتى الشعوب البدائية لها أنظمتها الخاصة.

على أننا نظن بأن معنى القرية ليس مجرد المنطقة الجغرافية، وإنما لها معناها الاجتماعي، حيث اتصال الأفراد بعضهم ببعض.

أما المحتل فإنه سوف يفسد نظام القرية وما تمتاز به من شريعة معيشية، ويسعى جاهدا لكي يُدخِل إليها نظامه وثقافته، ممَّا يختلف عن النظام القائم في القرية. وبما أنّ نظام البلد قد جرَّبه أهل البلد واعتادوا العمل به وتعاونوا فيما بينهم لحفظ حرمته والتكيف معه، كان يجسِّد موروثهم الحضاري والثقافي والديني وغير ذلك.. بينما ترى المحتل يأتي وقبضته تحمل معول الهدم والتخريب، وكأنه يريد اقتلاع الناس من جذورهم.

ومقاربة بسيطة ترى الناس لم يقبلوا من الأنبياء عليهم السلام أن يُطوِّروا حياتهم، مع علمهم أن الأنبياء لا يسألونهم أجراً، ولا يُريدون إضاعة موروثاتهم بقدر ما يُريدون إصلاح واقعهم والبدء معهم بمستقبل مشرق... فكيف لهم أن يقبلوا لمحتل ظالم أن يقلب كيانهم رأساً على عقب ويأتيهم بثقافته وأفكاره التي لا تُناسبهم بالمرة؟

ولكن الأدهى من كل ذلك؛ أن يأتي محتل في العصر الحاضر وينادي علناً بأنه جاء من أجل فوضى خلَّاقه؛ أي إنه سيسلب البلد المطلوب احتلاله تاريخه وموروثه وتراثه وثقافته وثرواته وشخصيته، ثم (لا يتكرّم) عليه بثقافة أو تطوُّر تقني، وإنما يحدث فيه فوضىً عارمة تتقاتل فيها شرائح المجتمع ويتقدم متأخرون ويتأخر متقدمون؛ وذلك كله لإحداث واقع جديد في المنطقة المحتلة والمستهدَفة. وهذا لعمري أسوأ احتلال عرفه التاريخ البشري، حيث لا حدود للتخريب، ولا

حدود للقتل، ولا حدود للانتهاكات بأنواعها، ولا حدود للسرقة والفساد والضياع. هذا هو مراد المحتل بنموذجه الجديد.

١- ﴿أَفۡسَدُوهَا﴾

النص القرآني الشريف لم يقل: أفسدوا نظامها الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي، كما لم يقل: أفسدوا ناحية جغرافية منها، إنما قال: أفسدوها؛ أي: بكل أبعادها. والإفساد هو تحطيم الأنظمة المرعية.

٢- ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾

يصبح المرء عزيزاً في قريةٍ مّا لأجل آبائه، أو لأجل أخلاقه الفاضلة، أو لأجل مكانته الدينية، وغير ذلك. ولكن الملوك حيث يحتلونها تراهم يعمدون إلى قلب الموازين، وإذلال أعزتها، لتخريب الشخصية الاجتماعية وسحق كرامة المجتمع، لكيلا يتجرَّأ الأعزاء على مقاومتهم.

وهذه نقطة مهمة يختلف فيها الملوك عن الأنبياء؛ أي رموز الشر عن رموز الخير، حيث نلاحظ نهج الأنبياء عليهم السلام يحرص كل الحرص على تماسك المجتمع الذي يراد إصلاحه، وضمن ذلك يحترم أعزة القوم وليس أثرياءَهم وأقوياءَهم بالضرورة ويحرص على إكرامهم، حتى إن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ارْحَمُوا عَزِيْزَ قَوْمٍ ذَلَّ، وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ، وَعَالِماً تَتَلَاعَبُ بِهُ الْجُهَّالُ**»[1].

ومَّما رأيناه من أسلوب المحتل في إذلال الأعزاء، أنه يستخدم أراذل الناس ويمنحهم الصلاحيات وآليات القوة ليجعلهم أدوات

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص٤٤.

طيِّعة في خدمته، لإحداث شروخ اجتماعية ونفسية عميقة في أفراد المجتمع. وهذا قد يكون عذاباً إلهيًّا لبعض المجتمعات لتوانيهم عن واجباتهم.

قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾(1).

وقد فسرت كلمة ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ على أنها تسليط الأراذل من الناس على أعزتها، وتحويل الأعزة بعد تغيير القوانين الصالحة السابقة وتخريب الثقافة والتقاليد الطيبة، وبعد سلبهم أموالهم ومصادرة حقوقهم وحرياتهم إلى أذلة مشرَّدين.

حقًّا؛ كانت بلقيس الملكة الواعية قد عرفت طبائع الملوك الظالمين، لذلك لما طالعت رسالة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وجدت فيها دعوة غير أنانية ولا تتضمن أطماعاً مادية، لا سيما وأنها رأت فيها كلمات مهَّدت لبصيص نور يدخل إلى جوهرها، وهي كلمات البسملة الشريفة، هذه الكلمة التي إن قُرِأت على ميت ثم عاد إلى الحياة، ما كان في ذلك عجباً. وهكذا أرادت ملكة سبأ معرفة منهج صاحب الرسالة، هل هو منهج الأنبياء أو الملوك؟

٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾

كأن هذه الكلمة كلمة قرآنية محضة وليست صادرة عن بلقيس، وإنما هي تأييد لما جرى على لسانها.

المهم أن القرآن أمضى كلامها وأكد أن الاحتلال والتخريب

(1) سورة الأنعام، آية ٦٥.

والإفساد هو المتوقع من سلوك الملوك، لأنهم لا يرون من الحياة سوى المصلحة المادية، ولا يتحرَّكون إلَّا بما يحقق هذه المصلحة، ومصلحتهم الأولى والأخيرة ضمان بقائهم في السلطة، واحتلال المناطق الأخرى وسيلة من وسائل البقاء في السلطة.

بصائر وأحكام

إن الاحتلال والتخريب والإفساد هو المتوقَّع من سلوك الملوك، لأنهم لا يرون من الحياة سوى المصلحة المادية، ولا يتحرَّكون إلَّا بما يُحقِّق هذه المصلحة، ومصلحتهم الأولى والأخيرة ضمان بقائهم في السلطة.

فناظرة بم يرجع المرسلون

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «**الهَدِيَّـةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُـهٍ: هَدِيَّةُ مُكَافَأَةٍ، وَهَدِيَّةُ مُصَانَعَةٍ، وَهَدِيَّةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في احتجاج له مع زنديق: «**وَالنَّاظِرَةُ فِي بَعْضِ اللُّغَةِ هِيَ الْمُنْتَظِرَةُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أَيْ: مُنْتَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**»[2].

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٥، ص١٤١.
(٢) الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، ج١، ص٣٦٢.

تفصيل القول

يبدو أن الهدف من إرسال الهدية كان التأكد من شخصية سليمان عليه السلام، فإذا تأكَّدت ملكة سبأ تصرَّفت وقومها وفق ما تُمليه مصلحتهم.

ثم إنها لم تتَّخذ قراراً عاجلاً في هذا الإطار، وإنما سلكت طريق التأني، نظراً لأن ما ستتخذه من القرار سيُحدِّد مصير مملكتها، فلا بد لها من التعامل مع هذا الحدث الجديد بكل حيطة وحذر، وهو لازم الملك والسلطة. إذ يجدر بكل حكيم أن يُقدِّم العلم على العمل، والاستخبار على الاستعجال.

وبلقيس بحكمتها كانت كما يبدو تستطيع التمييز بين مَنْ هو ملك وبين مَنْ هو نبي، إذ كانت سمعة الأنبياء مشتهرة في أوساط الناس، ولم تكن تخفى على امرأة حكيمة كبلقيس؛ ولذلك عزمت على خوض تجربة يتأكد من خلالها موقف وسلوك النبي سليمان عليه السلام الحقيقي، إما لكي تطمئن أكثر فأكثر من الحقيقة، أو لكي تكشفها للملأ من حولها.

وكان العرف يقتضي استمالة الخصوم وإثبات حسن النية، وذلك بارسال هدية إليهم. أما حقيقة الهدية، فقد تجاوز القرآن ذكر تفصيلها، فيما راحت التفاسير تُمعن في تحديدها، ولو كان الأمر مهمًّا لَذُكِر ذلك في الكتاب.

بصائر وأحكام

يجدر بكل حكيم أن يُقدِّم العلم على العمل، والاستخبار على الاستعجال.

فما آتاني اللّـه خير مما آتاكم

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾

النظام الإلهي في الحكم نظام واحد، بينما الأنظمة الجاهلية شتّى. إذ الأول نور، والثاني ظلمات، والنور واحد والظلمات شتّى. فهناك نظام فرعوني هاماني وآخر قاروني، والنظام الفرعوني يعتمد القوة والرعب والتعذيب، ومثله نظام هتلر وستالين. والنظام الهاماني يعتمد البيروقراطية؛ أي الإدارة المنضبطة المؤيَّدة بقوانين صارمة، كما هي الأنظمة المعمول بها في عالم اليوم. أما النظام القاروني فهو الذي يعتمد قوة المال، وهذا النظام متداخل مع الأنظمة الأخرى، إذ هناك

ما هو نظام بيروقراطي أو قمعي، إلَّا أنهما يعتمدان أيضاً الثروة كركيزة لقوتهم.

وحينما جاء وفد مملكة سبأ إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ استنكر عليهم أن جاؤوه بمال أو هدية يعتبرونها ذات شأن، ولذلك سألهم مستنكراً عليهم ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾؟ والعلة في ذلك أن نظام حكمه لم يكن يعتمد المال، وإنما كان يعتمد منهجاً ربانيًّا جوهره الحكمة والأخلاق.

إن النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ رفض الهدية، واستنكر عليهم أن جاؤوه بمال هديةً، لأن لديه ما هو أهم من المال، وهو الحكمة التي آتاه الله تبارك وتعالى، كما أن ربنا آتاه من الثروة الكثير.

٢- ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾

هذا مع أن الهدهد قد وصف بلقيس ومملكتها بأنها أُوتيت من كل شيء، ولكن يبدو أن الفرق كبير جدًّا بين هذه العبارة الصادرة عن الهدهد وبين العبارة التي نطق بها النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾(١)، مع أنها تحمل الحروف والكلمات ذاتها.

إن العلم والحكمة والأخلاق الفاضلة وقدرة التأثير في الآخر أعظم أثراً ونفعاً من المال، فقد تُشترى بالمال أجسام الناس، ولكن العقول والقلوب لا تُمتلك إلَّا بالعلم والحكمة والأخلاق الفاضلة.

وحينما قال المنافقون للناس بأن يتركوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بلا مال لينفضّ المؤمنون من حوله، هزأ بهم القرآن ورماهم بالجهل بقوله المجيد:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ

(١) سورة النمل، آية ١.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1].

إن المال ينقص بالإنفاق، بينما العلم يزكو به، بل إن نمو العلم في العطاء منه، وها هم العلماء في حقيقة الأمر هم الذين يقودون الأمراء والأثرياء، لأنهم هم الذين يرسمون لهم الخطط ويضعون المشاريع.. وهذه القوة هي التي آتاها الله تبارك وتعالى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكيف والحال أنه جعله أيضاً نبيًّا؟

إن ما آتاه الله تعالى لمملكة سبأ مجرَّد أسباب للمعيشة المادية، نظراً لأنهم عبدوا غيره واستحبوا الدنيا على الآخرة، ومَنْ أراد الدنيا آتاه الله منها، وهو مهما يبدو كبيراً وكثيراً كما صوّره الهدهد فإنه يبقى غير ذي بال قياساً بما عند سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لقد ترك قوم سبأ ذكر الله وراء ظهورهم وراحوا يعبدون الشمس ونسوا كثيراً من القيم الصالحة، حتى تراهم طفقوا يفرحون بهديتهم.

٣- ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

هل كانت تلك هدية مالية أو مجموعة جواري وخدم أو تحفة من الأحجار الثمينة أو كانت كل ذلك مجتمعةً؟

أنّى كانت فإنها لم تكن جديرة بالفرح، لأنها ناقصة، فيما الذي تؤتيه الله مبارك.

وحيث إن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ استنكر عليهم زعمهم بأنه محتاج إليهم، وهو الذي آتاه الله ملكاً عظيماً، فقد توجَّه إليهم بالنصح

(١) سورة المنافقون، آية ٧.

والتذكير بالحقائق والقيم الصالحة. ذلك أن الفرح أمر مذموم قرآنيًّا، لأنه يعكس حالة الغرور والزهو، ويلحقه الشعور بالاكتفاء والاستغناء عن عطاء الله تعالى، مضافاً إلى أنه يوقف المرء عن الطموح والتطوُّر. وحيث يصل المرء إلى هذه الحالة المريرة، عليه أن يعرف أنه قد وصل بداية نهايته، لأنه لدى الفرح والغرور يغفل عمَّا لديه من ثغرات ومن نواقص باعتباره مخلوقاً فقيراً إلى ربِّه دوماً، والغفلة عن هذه الحقيقة تُسمَّى بالبلادة والجمود.

ومن الخطأ جدًّا أن يتصاغر المرء أمام ما لديه. وبتعبير آخر؛ أنْ يحتقر نفسه وآفاق الفرص المتاحة لها، ومدى التطلُّعات التي يُمكن لها أن تحققها، كل ذلك رضاً وفرحاً بما حصل عليه وبما عنده، ولا يفكر فيما تستوجب النعمة من شكر للمنعِم، وتطلع للمزيد من النعم الإلهية من لدنه، لأنه إذ ذاك سيصاب بالغفلة عمَّا في النعمة من حكمة. وهكذا نعرف من خلال التجارب التاريخية أن من أهم عوامل سقوط الحضارات، كان الغرور والفرح والزهو بما كانت تتمتع به من عوامل القوة، ممَّا جعلها تتوقف عن التقدُّم، فتقدَّم عليها أقرانها ممَّا سبب زوالها.

ولعل هذا الإرشاد الصادر عن نبي الله سليمان عليه السلام لوفد مملكة سبأ، كان المقصود منه تنبيه ملكة سبأ ونشر بذور الوعي في نفسها، لعلها تعود إلى المعين الصافي.

حقًّا؛ إن هذه البصيرة تكشف لنا عن مدى الدور الذي يُؤديه الدين في ضمان السعادة للبشرية بعد توضيح الحقائق أو تحديد سبل معرفتها، لكيلا تخضع لجبابرة الأرض أو تطمع فيما عندهم من النعمة الزائلة، فتُصاب بالانهيار والشقاء.. ذلك لأن الدين نور يضيء الدرب،

وهـو في الوقت ذاتـه يأخذ دور الكوابح التي تحـول دون الانزلاق إلى حيث الضياع المطلق.

بصائر وأحكام

١- إن العلـم والحكمـة والأخـلاق الفاضلة وقـدرة التأثير في الآخـر أعظم وقعاً من المال، فقد تُشـترى بالمال أجسـام الناس، ولكن العقول والقلوب لا تُمتلك إلَّا بالعلم والحكمة والأخلاق الفاضلة.

٢- إن احتقـار الذات أمام النعم وما يُسـببه مـن الفرح بما أُوتي الإنسـان، يُؤدي إلى توقُّفه عن السـعي إلى المزيد، ومن ثم إلى التخلُّف والانهيار.

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها

﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾.

***

من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ يقول: «**لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهَا**»[1].

تفصيل القول

الرسالة وصلت، ورفض النبي سليمان عليه السلام مضمونها، إنه رفض أخذ الهدايا في مقابل أن تبقى بلقيس ملكة على اليمن، كما أنه

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٩.

أنذرهم بأنهم ما لم يحسموا أمرهم ويستسلموا بصورة تامة فإنه سوف يقتحم عليهم مملكتهم ويواجههم بجيش جرَّار، هو أقوى بكثير ممَّا يتوقعون، فيقضي عليهم قضاءً مبرماً.

ولكن ملكة سبأ، وبداعي ضعفها أو رجحان عقلها وفرط حكمتها، استسلمت وبعثت رسالة استسلام، تحاشياً للذلة والصغار وإراقة الدماء أو النفي من البلاد.

وهذه الحقيقة تقتضي مجموعة بصائر حياتية بالنسبة لنا.

البصيرة الأولى: أن النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن خلال تهديده الصارم هذا، أراد أن يُنهي الأمر تماماً، لعلمه بأن المرء إذا ما لم يعقد عزمات إرادته حتى يبلغ النجاح، فإنه قد يدفع الثمن غالياً من دون نتيجة. فمن يخوض حرباً دونما إيمان، عادت نتائجها السلبية عليه دون أن يربحها، ومن أراد الحياة بسلام عليه أن يُوفِّر كل عوامل السلام بكل عزم وإصرار، فيتنعم به حقًّا.

وبكلمة؛ على الإنسان أن يُوفِّر لنفسه المزيد من الإرادة في كل مناحي الحياة، ليضمن أكبر نسبة من النجاح.

البصيرة الثانية: مستقاة من قوله: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾ فهو لم يُهدِّد بالقتل، وإنما صرّح بأن بلقيس وملأها سيتعرَّضون لعقوبة النفي والطرد مع وصمهم بالذل، بسبب خطئهم الاستراتيجي الناتج عن رفضهم عرضَ النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك توجَّب أن ينالوا جزاءَهم ومصيرهم.

البصيرة الثالثة: إنّ الإخراج والطرد والنفي بذلّة سيؤثر كل ذلك في نفوسهم تأثيراً سلبيًّا عميقاً، وهذا هو الذي يُؤدِّي للشعور

بالصغار. ولذلك قال: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

أما بلقيس؛ فقد قرّرت تجنّب ما في ذلك التهديد الذي لا يطاق، لا سيما وأنها رأت أن مقاومة جند سليمان عليه السلام لا يُعتبر من الشجاعة، بقدر ما ينبغي منها التعامل مع هذا الإعصار القادم بعقل وحكمة وحنكة. ولذلك؛ لا يحمل موقف بلقيس على أنه مجرَّد موقف صادر عن امرأة بما هي امرأة، ولكنها حسبت حساباتها، وجرَّدت نقاط ضعفها وقوتها، فرأت الأولى تفوق كمًّا وكيفاً قبالة ما لدى سليمان عليه السلام من عوامل قوة وقوة تهديد.

ولا ريب في أن بلقيس التي لم تعمد إلى المواقف الارتجالية، لم تُقرِّر الإسلام من أول وهلة، وإنما استسلمت بحكمة.

كما أن النبي سليمان عليه السلام لم يعمد إلى كيل الإهانة والأذى لهذه التي جاءته وهي مستسلمة، بل إنه استعرض طيب أخلاقه واحترامه لها. وليس هذا الموقف بغريب على الأنبياء، ومنهم سليمان عليه السلام، إذ ليس لهم إلَّا إعمال أفضل وأعظم الخلق، نظراً لأن الغاية السامية من بعثتهم هي: تتميم مكارم الأخلاق، كما هو عهد نبينا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، إذ قال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[1].

بصائر وأحكام

إن المرء إذا لم يعقد عزمات إرادته حتى يبلغ النجاح، فإنه قد يدفع الثمن غالياً من دون نتيجة. فمن يخوض حرباً دونما إيمان، عادت

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج١٦، ص٢١٠.

نتائجهـا السـلبية عليـه دون أن يربحها. ومن أراد الحياة بسـلام، عليه أن يوفـر كل عوامل السـلام بكل عـزم وإصرار، فيتنعم به حقًّا. والمرء مُطالَب في كل حين أن يعمل المزيد من الإرادة، ليضمن أكبر نسـبة من النجاح.

أيكم يأتيني بعرشها؟

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾.

***

تفصيل القول

يبدو أن النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ سعى نحو هداية الملكة الحكيمة لكي يُعيدها إلى حكم سبأ من جديد، ولم يرد أن يُذلّها، وذلك انطلاقاً من طبيعة غايات الرسالة، والتي ما أُنزلت إلّا من أجل الناس. أوَليس ربُّنا يحب عباده، وأرسل الأنبياء رحمة بهم، وليهديهم إلى الجنّة بفضله، ويُنقذهم من النار؟

من هنا أراد أن يفاجئها بأن يأتي بعرشها، الذي وصفه الهدهد بأنه عرش عظيم، قبل أن تأتيه وقومها مسلمين، لعلمه المسبق بأنهم سيُسلمون طائعين على يديه.

١ - ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾

أتاح النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لملئه حرية التصدي لأداء مهمة كبيرة، وهي الإتيان بعرش بلقيس إلى حيث مقامه، ولم يجعل ذلك فرضاً على جماعة معينة أو فرد محدّد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أراد أن يستثمر هذه القضية للإعلان عن وصيّه وخليفته الشرعي ولبيان مقامه وقابلياته، درءًا منه لمن تسوّل له نفسه اعتلاء هذا المنصب الإلهي الرفيع غصباً.

فقال:

٢ - ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

أي: طائعين.

بصائر وأحكام

يبدو أن النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يستثمر إحضار عرش بلقيس عنده، للإعلان عن وصيّه وخليفته الشرعي ليقطع الطريق على كل من سوّلت له نفسه اعتلاء هذا المنصب الإلهي الرفيع غصباً.

إني عليه لقوي أمين

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ٣٩﴾.

***

تفصيل القول

كانـت مملكـة النبي سـليمان عليه السلام تعـجُّ بالأيـدي العاملة على مختلف درجاتها وتنوُّع عناصرها، من بشر وجن وطير وغير ذلك.

ومـن الجن كانوا عفاريت، وهم الأشـداء في القوة والإمكانية، فاشرأبّـت عنق عفريت مـن الجن ليتقدَّم على غـيره في تنفيذ أمر النبي سـليمان عليه السلام، وخاطبـه قائـلاً بأنه قادر عـلى الإتيان بعـرش بلقيس خلال سـاعات قلائل وقبل أن يقوم النبي سـليمان من مقامه؛ أي قبل أن ينهـي عملـه اليومـي المعتـاد، مؤكداً أنـه قادر على فعـل ذلك بكل جدارة وأمانة.

١ - ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾

أي: قبل انتهاء الدوام الرسمي له.

٢ - ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾

ولكن النبي سليمان عليه السلام لم يعتنِ باقتراحه ومدى قوته التي تبدو أنها كانت الأكثر بين قوى الجن العاملة، وذلك لأن سليمان عليه السلام كان يُريد تحقيق هدف آخر، قد لا يقل شأناً عن قضية الإتيان بعرش بلقيس، وهو تعريف شعبه بوصيّه وخليفته الشرعي المعيَّن من قبل الله سبحانه وتعالى، مضافاً إلى الكشف عمَّا لديه من قابليات تتطلّبها وصايته وخلافته.

بصائر وأحكام

لقد أبدى عفريت من الجن استعداده أن يأتي بعرش بلقيس تنفيذاً لأمر النبي سليمان عليه السلام، مؤكداً أنه قادر على فعل ذلك بكل جدارة وأمانة، ولكن سليمان عليه السلام لم يُجبه لأنه كان يهدف إلى ما قد يكون أهم من استحضار العرش.

هذا من فضل ربي

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ٤٠﴾.

* * *

من الحديث

روي عن أبي سعيد الخدري، قال: «سَـأَلْتُ رَسُـوْلَ اللهِ ﷺ عَـنْ قَوْلِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قَالَ: **ذَاكَ وَصِيُّ أَخِيْ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ**»[1].

وروى العياشي في تفسيره بالإسناد قال: «الْتَقَى مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى عليه السلام، وَيَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ مَسَائِلَ

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٦٥٩.

قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى أَخِي عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليهما السلام بَعْدَ أَنْ دَارَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْمُوَاعِظِ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى طَاعَتِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ سَأَلَنِي عَنْ مَسَائِلَ أُفْتِيهِ فِيهَا؟ فَضَحِكَ، ثُمَّ قَالَ: **فَهَلْ أَفْتَيْتَهُ فِيهَا؟** قُلْتُ: لَا. **قَالَ: وَلِمَ؟** قُلْتُ: لَمْ أَعْرِفْهَا. قَالَ: **وَمَا هِيَ؟** قُلْتُ: قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ سُلَيْمَانَ أَكَانَ مُحْتَاجاً إِلَى عِلْمِ آصَفَ بْنِ بَرْخِيَا؟ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسَائِلَ الْأُخَرَ. **قَالَ: اكْتُبْ يَا أَخِي. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. سَأَلْتَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ:** ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ **فَهُوَ آصَفُ بْنُ بَرْخِيَا، وَلَمْ يَعْجِزْ سُلَيْمَانُ عَنْ مَعْرِفَةِ مَا عَرَفَهُ آصَفُ، لَكِنَّهُ** عليه السلام **أَحَبَّ أَنْ يُعَرِّفَ أُمَّتَهُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أَنَّهُ الْحُجَّةُ مِنْ بَعْدِهِ. وَذَلِكَ مِنْ عِلْمِ سُلَيْمَانَ أَوْدَعَهُ آصَفَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، فَفَهَّمَهُ اللَّهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يُخْتَلَفَ فِي إِمَامَتِهِ وَدَلَالَتِهِ، كَمَا فُهِّمَ سُلَيْمَانُ** عليه السلام **فِي حَيَاةِ دَاوُدَ ع لِيَتَعَرَّفَ إِمَامَتَهُ وَنُبُوَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ لِتَأْكِيدِ الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ**»[1].

وروي عن علي بن محمد النوفلي، عن أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام قال: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، كَانَ عِنْدَ آصَفَ حَرْفٌ فَتَكَلَّمَ بِهِ فَانْخَرَقَتْ لَهُ الْأَرْضُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَإٍ، فَتَنَاوَلَ عَرْشَ بِلْقِيسَ حَتَّى صَيَّرَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ، فَتَنَاوَلَ عَرْشَ بِلْقِيسَ حَتَّى صَيَّرَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ، ثُمَّ انْبَسَطَتِ الْأَرْضُ فِي أَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ**»[2].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**مَا زَادَ الْعَالِمُ عَلَى النَّظَرِ إِلَى مَا خَلْفَهُ وَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مَدَّ بَصَرِهِ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى سُلَيْمَانَ** عليه السلام**، ثُمَّ مَدَّ بِيَدِهِ فَإِذَا هُوَ مُمَثَّلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ**»[3].

---

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٧، ص٣٨٨-٣٨٩

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٢٣٠

(٣) الاختصاص، الشيخ المفيد، ص٢٧٠.

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**وَقَوْلُ سُلَيْمَانَ:** ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ﴾ **لِمَا آتَانِي مِنَ الْمُلْكِ** ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ **إِذَا رَأَيْتُ مَنْ هُوَ دُونِي أَفْضَلَ مِنِّي عِلْماً، فَعَزَمَ اللَّهُ لَهُ عَلَى الشُّكْرِ**»[1].

وعن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ وُجُوهِ الْكُفْرِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: الْكُفْرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُه.** (إلى أن قال:) **وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ مِنَ الْكُفْرِ كُفْرُ النِّعَمِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى يَحْكِي قَوْلَ سُلَيْمَان** عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[2].

تفصيل القول

١ - ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

تضافر القول في الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام أن القائل هنا هو وصي سليمان عليه السلام، وكان يُدعى آصف بن برخيا عليه السلام. وكان قد أنعم الله تعالى عليه بأن علّمه علماً وليس كل العلم من الكتاب.

ولكن، أي كتابٍ هذا؟

هل هو الكتاب الذي أحصى الله تعالى فيه كل شيء، أم هو الكتاب الذي يُعبر عنه تارة باللوح المحفوظ الحاوي لما يريد الله تعالى أن يُدوَّن فيه ما يُقدِّر وما يقضي، أم هو الكتاب الذي فيه الاسم الأعظم؟

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٩.
(٢) الكافي الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٨٩-٣٩٠.

ولكـن ما هو الاسـم الأعظم أساسـاً، هل هو كلمـة مركبة من جملـة حروف، ولم يُطْلِـع الله عليها أحداً إلَّا من ارتـضى من أوليائه، أم هو مجموع من أسـماء الله الحسـنى، أم هو حالة يمكن أن يتسـامى إليها من يتسامى، حتى يستجيب له ربنا دعاءه؟

وماذا يمكن أن يتم إنجازه لدى حيازة هذا الاسم الأعظم؟

إنها تسـاؤلات تفتـح الأجوبة عنهـا آفاقاً واسـعة تُضاعف من معرفة الإنسـان وإيمانه. والمعروف عن الاسم الأعظم أنه يمنح حامله ولاية التصرف في خلق الله بإذنه سبحانه.

ولمـن أراد البصيرة في هذا الموضوع وطبيعة علم وصي سـليمان عليه السلام الرجـوع إلى قوله تعـالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1].

مَـنْ هـذا الـذي كان عنده علـم الكتاب كلّـه؟ إنه الإمـام أمير المؤمنـين عـلي بن أبي طالـب عليه السلام، وهو وصي خاتـم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم. فكان لأمير المؤمنين عليه السلام ما شـاء من الولاية، فيما كان لوصي سليمان جـزءاً من الولاية داعيـاً ربه المتعال بما لديه من الاسـم الأعظم، وهذا يعنـي أنـه بمقدار قربه من الله وعلمه باسـمه الأعظم (الكتاب) تكون قدرته على التصرف بالمخلوقات.

٢- ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾

أعلـن آصـف بـن برخيا عـمَّا لديـه من قـدرة عـلى التصرف في المخلوقـات بإذن الله تعالى؛ وهو بطبيعة الحال، ما كان ليحوز على هذه القـدرة الإعجازية لولا مقامه العظيـم عند ربه المتعال الذي أعطاه من

(١) سورة الرعد، آية ٤٣.

العلم ما شاء سبحانه وتعالى، على أن وصي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد جهد وتعلم وغلب من هواه ما غلب، حتى خرق من الحجب ما خرق، ففاق بما أوتي من علم وقدرة وجرأة ما اقترحه عفريت الجن.

وهذا لعمري ليس خيالاً علميًّا مجرداً، بل هو واقع تحقق فعلاً، ناهيك عن أن الخيال العلمي بدوره قد أضحى علماً بحد ذاته، حيث يتوفر لدى من يحرر فكره ويسرح به عبر التخيل في آفاق المجهول بعد أن يتخلص من عقدة الجهل المركب الذي يجعل صاحبه يزعم أنه يحيط علماً بالأشياء وهو جاهل، بينما الجهل البسيط يدفع الإنسان إلى التعلم.

٣- ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾

ترى كيف تسنّى لآصف بن برخيا أن يفعل ذلك بعد استعانته بما لديه من علم من الكتاب؟

إننا نعلم أن وجود العالَم بأكبر أجرامه أو أدق أجزائه ليس في الحقيقة شيئاً قائماً بذاته، إذ إن العدم لا يتحول إلى وجود بالذات؛ إنما وجود الأشياء مكتسب من الله الخالق الواحد الأحد، وهو الذي يفيض عليه وجوداً لحظة بلحظة، ولو أن الله تبارك اسمه رفع يده عن الخلق لانتهى كل شيء.

ولا ريب في أن في الكون أشياء كثيرة، ومنها كان عرش بلقيس، ولله تعالى أن يُعلِّم وليًّا من أوليائه -وهو هنا آصف بن برخيا- كيف يمكن أن يقطع عنها أو من واحد منها إمداده بطاقة الوجود، ثم يُعطي لذات الشيء ولذات الماهية بما فيها من خصائص الوجود مرة آخرى، ولكن في موقع آخر حتى يكون بين يدي النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا يعني أن الله تعالى يأذن لوليه بأن ينقل الوجود بالنسبة

لجسم ما من منطقة إلى أخرى، والمسافة بينهما غير ذات أهمية على الإطلاق، ذلك لأن العملية يمكن أن توصف بكونها محررة من قيد الزمان والمكان، وكل ذلك يحدث بإذن الله وهيمنته وفيضه. فكما فاض بالوجود على عرش بلقيس في اليمن، له أن يقطع فيضه منه هنالك ويفيض عليه في موقع آخر. ومثل نقل هذا العرش، الكثير الكثير من وقائع التصرف بالأشياء التي أذن الله تعالى للأنبياء والأئمة والأولياء أن يُحدثوها. وهذا يأتي في سياق الكرامات، وهي التي لها أنظمتها الخاصة والحاكمة على الحالات، وحيث نجهل تلك الأنظمة فإننا نعجز عن إدراك سرها، فنسميها معجزة؛ أي ما يعجز عن مثلها البشر عادة، بل ويعجزون أيضاً عن فهمها وفهم القوانين الحاكمة عليها.

وهكذا رأى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عرش بلقيس مستقراً عنده وفي محضره، ذلك لأن هذا التصرف العجيب والمعجز هو من أمر الله تعالى، وإن أمر الله واحدة كلمح بالبصر؛ أي فيما يعرف حديثاً بالزمن صفر، لأن إرادة الله تعالى لا يمكن أن يحدها ويحكمها شيء مخلوق، والزمن بلا ريب شيء مخلوق.

٤- ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾

البصيرة الأخرى التي تتصل بكلمة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ هي ما يعكسه هذا القول الشريف، لا سيما وأنه قال في الآية السادسة عشرة من هذه السورة أيضاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وذلك بعد أن أشار إلى أنه وأباه داود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قد أُوتيا من كل شيء.

وإنما قال ذلك، لأن نعم الدنيا تختلف عن نعم الآخرة. فالهدف من الأولى هو العبور إلى العالم الآخر، إذ الدنيا دار ممر وليست دار مقر، حيث إن النعم الدنيوية هي وسائل لنعم أسمى بشَّرت بها الرسالات في الآخرة. ومعلوم أن نعم الآخرة يُتنعم بها لذاتها، ويستولي على المرء في

الجنة شعور لا يوصف إلَّا بالرضا، فيما النعم الدنيوية لا تؤخذ لنفسها ولا يُشبع بها ولا تبلغ بصاحبها إلى حالة الرضا المطلق. والسبب هو أن نعم الدنيا نعم ناقصة ومحدودة ويُخشى زوالها، وكلما زادت لدى الإنسان حرص على المزيد وأصابه الخوف من فقدانها.

ولذلك قال النبي سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ لدى وصفه النعم الدنيوية، ليمنع عن نفسه ومحيطه الغرور.

ثم إن نبي الله سليمان عليه السلام أراد من خلال قوله هذا أن يلفت انتباه الناس من حوله لئلا يتخذوه إلهاً أو نصف إله، وذلك حينما يرون ما عنده من النعم التي لم يجدوها عند غيره، إذ عقول الجهلة في عيونهم، وديدن البشر أن يغتروا وينخدعوا بما يرونه من أشياء خارقة للعادة.

٥- ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾

كان سليمان النبي عليه السلام نموذجاً في التواضع والعبادة.. حتى أنه كان كثير العبادة ويلبس الخشن ويأكل مع الفقراء.

لقد وعى سليمان عليه السلام حكمة الحياة بما فيها نعمها المتوالية عليه، وبوعيه هذا شكر لله ممَّا آتاه من علم ومقام.

بلى؛ إن الشكر يقابله الكفر، والكفر إذا طالعنا آيات الكتاب المجيد وجدناه ذا درجات، تبدأ من كفران النعمة والغفلة عن شكر الله عليها وأداء حقها. فإذا تمادى ابن آدم في هذا الكفران يسقط إلى درجة الكفر بالله.

أما الشكر؛ فهو: السعي إلى المحافظة على وسائل النعمة والعمل بموجباتها وحقوقها، والكلام الذي يعبّر به الإنسان عن معرفته وامتنانه للمنعم.

٦- ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾

كيف يشكر لنفسه من يشكر ربّه؟

حينما يشكر المرء ربه، يعود عليه شكره بنعم أكثر وأكبر، وذلك حيث قال عز اسمه وعداً من نفسه لعباده الشاكرين: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى ﴾[(١)].

أي: إنّ مضاعفة النعم رهينة بالشكر، وفي الشكر البركة، والعكس صحيح تماماً. ثم إن من يشكر ويعيش في رحاب عرفان الجميل تمتلئ نفسه وقلبه وروحه بالنعمة أيضاً؛ أي إنه كما يستفيد جسمه من نعمة الطعام مثلاً فان جوانبه المعنوية ستستفيد أيضاً.

وقد ذُكِر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه إذا أقبل على طعام، كان يكثر من قوله: «**الحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَنِي أَشْتَهِيْهِ**»، حتى إنه روي عن عبيدة بن زرارة، قال: «أكلت مع أبي عبد الله عليه السلام طعاماً، فما أحصي كم مرة قال: **الحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَنِي أَشْتَهِيْهِ**»[(٢)].

وعلى أية حال، فإن الشكر وآفاقه عبارة عن أربعة مسارات تنتهي جميعاً إلى صالح الإنسان الشاكر ذاته:

فأولاً: حين يشكر الله على النعمة، ينتفع بما يعود على نفسه وقلبه وروحه من اللذة والمتعة، ومتعة الروح أعظم من متعة الجسد.

وثانياً: الشكر أداة للمحافظة على عوامل النعمة وأسبابها، ومن يحافظ على أسباب النعمة، فإنها تزداد لديه.

وثالثاً: من يشكر، لا يُصاب بصفة الغرور. وبما أن تجنّب

(١) سورة إبراهيم، آية ٧.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج٢، ص٤٣٧.

الغـرور عامل مهم مـن عوامل المحافظة على النعم، فـإن بقاءَها رهين الشكر عليها.

ورابعـاً: إن الشـاكر للنعمة يـؤدي حقّها، على عكـس الذين لا يؤدون حقها، فيتعرضون لمصاب زوالها.

٧- ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

الله هو الغني الذي لا يحتاج أحداً ولا يحتاج شيئاً، وهو الفيّاض بالعطاء الكريم، فلا يضره من غفل عن شـكره. وهذا الإعلان الرباني العظيم، إنما هو إضاءة كبيرة في طريق ابن آدم تهديه كيف يعيش.

بصائر وأحكام

١- إن نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد من خلال قوله: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أن يلفـت انتبـاه الناس من حوله لئلَّا يتخـذوه إلهاً أو نصف إله، وذلـك حينما يرون كل مـا عنده من النعم، إذ عقول الجهلة في عيونهم، وديدن البشر أن يغتروا وينخدعوا بما يرونه من أشياء خارقة للعادة.

٢- إن معرفة صاحب النعمة تدعونا إلى شكره، والشكر يُورث الرضا بها والمحافظة على أسـبابها لكـي تدوم وتجنب الغرور بها؛ وأداء حقها ضماناً لاستمرارها، بل وزيادتها.

نكروا لها عرشها

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ٤١﴾.

* * *

تفصيل القول

لأن النظام الفكري للبشر واحد، فإنه إن أخطأ في موضوع يحتمل أن يخطئ في موضوعات أخرى. فإن النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد -كما يبدو من سياق الآيات- أن يجعل ملكة سبأ تبدأ بمراجعة منهجها الفكري لعلها تهتدي في نهاية المطاف إلى الإيمان بعد زعزعة قناعتها. ولهذا أمر بأن يُنكِّروا عرشها، حتى تبدأ تفكر في أمره؛ هل أنه هو، أو مثله؟ وإذا كان مثله، فكيف تسنّى لسليمان تقليده، وشعبها قد أتعبوا أنفسهم في صنعه وترصيعه؟ وإذا كان هو فكيف انتقل من موضعه المحصن في اليمن وقد وضعت عليه الكثير من الحراس إلى هذا الموقع البعيد؟

ونستفيد هذه البصيرة من قوله سبحانه حكاية من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ دون أن يُحدِّد إلى ماذا؟ هل فقط إلى العرش، أم إلى مجمل الحقائق انطلاقاً من التفكر المنهجي في أمر العرش الغريب؟

وكذلك قوله سبحانه: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ حيث إن كثيراً من الناس يمرون عبر الحياة دون ان يهتدوا بها. وبما أن ملكة سبأ كانت من ضمن أولئك الضالين، فإنها كانت يمكن أن تبقى في ضلال، استسلاماً لتلك البيئة الكافرة.

بصائر وأحكام

منهج الإنسان في التفكير واحد؛ إنْ أخطأ في موضوع يخطئ في كل موضوع، وعلى المرء أن يصحح منهجه الفكري حتى لا يخطئ أبداً.

أهكذا عرشك؟

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو، فَإِنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام خَرَجَ يَقْتَبِسُ لِأَهْلِهِ نَاراً فَكَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَجَعَ نَبِيّاً مُرْسَلًا، وَخَرَجَتْ مَلِكَةُ سَبَإٍ فَأَسْلَمَتْ مَعَ سُلَيْمَانَ عليه السلام، وَخَرَجَتْ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ يَطْلُبُونَ الْعِزَّ لِفِرْعَوْنَ فَرَجَعُوا مُؤْمِنِينَ**»[1].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**الْإِيمَانُ إِقْرَارٌ وَعَمَلٌ، وَالْإِسْلَامُ إِقْرَارٌ بِلَا عَمَلٍ**»[2].

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٥، ص٨٣-٨٤.
(٢) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٢٩٧.

تفصيل القول

فوجئت الملكة بعرشـها ولكنها ظلَّت غير واثقة من أنه هو، إما لما تنكَّر به العرش، وإما لاستبعاد نقله بكل هيئتة من اليمن إلى كنعان.

وهكـذا أصبحت الملكة مصدومة، وبـدأت قناعاتها تهتز؛ ليس في انتقـال العرش فقط، وإنـما في مختلف الأمور. وبـدأت كأنها جاهلة بالنسـبة إلى العلـم الذي آتـاه الرب سـبحانه للنبي سـليمان ومن معه، حيث إنهم أسلموا لله سبحانه.

وهكذا نعرف أن وسيلة الهداية تختلف من شخص لآخر حسب مسـتواه الثقافي، وقد يتوسل الداعية إلى طريقة غير مألوفة بهدف إقناع بعض الفئات.

بصائر وأحكام

لأن النـاس مختلفون ثقافيًّا، فلذلك ينبغـي أن نختار لكل منهم وسيلة للهداية، مناسبة له.

وصدها ما كانت تعبد من دون اللّٰه

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

***

تفصيل القول

لماذا لم تبادر الملكة عندما رأت عرشـها ماثلاً لديها، ممَّا يدل على علم غيبي غير مسبوق، فتسلم مع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

أولاً: لأنها كانت تعبد من دون الله الشركاء كانت تسجد للشمس، وكانت قد استوعبت باعتبارها سيدة قومها تلك الثقافة الشركية التي تبرر عبادة غير الله. ربما كانت تلك الثقافة عنصرية أو عشائرية أو ما أشبه، وتلك الثقافة حجبتها عن فقه الحقائق، وماضيها الحافل بالخطيئات صدها عن عبادة الله. أليست عبادة الرب درجة رفيعة لا يبلغها إلَّا المطهّرون؟ أما المنغمس في بؤر الجريمة فأنَّى له التسامي إليها؟ اللهم إلَّا بنقلة نوعية عبر التوبة حقًّا. قال الله سبحانه:

١ - ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

ثانياً: إن البيئة الاجتماعية ذات ثقل عظيم على كاهل أصحابها، ولا يتسنى بسهولة الانفلات من ضغطها. ومن هنا قال سبحانه:

٢ - ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

بصائر وأحكام

لكي يسمو البشر إلى عبادة الله سبحانه، عليه أن يتخلص من ما ضيه الفاسد ومن بيئته الفاسدة.

رب إني ظلمت نفسي

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾.

***

تفصيل القول

يختم السياق في هذه الآية الكريمة قصة مثيرة ومؤثِّرة في التاريخ تأثيراً كبيراً، وهي قصة تلاقي الحضارة العربية والحضارة الإيمانية؛ الأولى كانت متمثلة بملكة سبأ، والثانية متمثلة في النبي سليمان عليه السلام، وفي ذلك ضربة قاصمة للعصبيات الجاهلية التي تقصم صميم الإنسانية وتسبّب الانتكاسة للبشر.

فهذه ملكة سبأ لم تستسلم حينما نُكّر لها عرشها، إلَّا أن سليمان عليه السلام استخدم حيالها طريقة إرشادية أخرى لجذبها إلى الإيمان بالله

تبارك وتعالى ودفعها بعيداً عن طريق الشرك، وذلك حينما صنع صرحاً من زجاج صاف ووضعه على لجة من الماء، وكان الزجاج شفافاً.

١ - ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾

لقد كانت كافرة، ومع ما كانت تتمتع به من الحكمة، إلَّا أنها كانت معتزة بملكها وبأفكارها، وعندما رأت صرحاً أعظم ممَّا كان لديها من صروح مشيدة، أعلنت استسلامها. لماذا؟

أولاً: لأن مداخل الناس للفهم مختلفة، واحتمالات التأثر ومن ثم التأثير متفاوتة، وكل له طريق للهداية. وهكذا حينما غيّر سليمان عليه السلام أسلوبه أثَّر في مخاطبه.

ثانياً: إن الدعوة لا تتم بواسطة الكلام فقط، بل قد تكون بالعمل الصالح، كأن تتجسد بتربية الفرد المؤمن الداعي نفسه تربية تعكس فيه الحق والصدق والذوق والوعي.

قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾(١)، ولم يقل لهم: اشكروا لله، لأن الله سبحانه يريد من عبده، بالإضافة إلى العقيدة والكلام، العمل الصالح والخلق الفاضل.. وهكذا كان النبي سليمان عليه السلام واعياً لهذا الأمر وهذه الحقيقة، حتى إنه بعد كل ذلك الإقرار بفضل الله تعالى عليه، حرص وبتوجيه إلهي على أن يهدي هذه المرأة الضالة بعد أن توسَّم فيها إمكانية الانقلاب على واقعها الكافر؛ فعمل على إرشادها، ولم يكتفِ بدعوتها باللسان فقط.

ثالثاً: إن النظام المعرفي عند الإنسان نظام شجري. قال ربنا

---

(١) سورة سبأ، آية ١٣.

سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1]. فلابد أن يتم العمل على زعزعة أصول الفكر. وهكذا جعل النبي سليمان تعترف ملكة سبأ بأنها ليست معصومة من الخطأ، وأن منهجها في التفكير قد يكون خطأ؛ فانهار نظامها المعرفي كليًّا، واعترفت بالحقيقة.

٢- ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾

إن هذه الكلمة مهمة وعظيمة جدًّا، لأن مشكلة الإنسان الحقيقية في المعرفة تكمن في نفسه الأمارة بالسوء.. ومتى ما استطاع أن يردع نفسه الأمارة بالسوء، بلغ قمة المعرفة، وصار مصداقاً لقول الله العزيز: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

فالمعيار هو الاصطفاف إلى جانب النفس اللوامة ضد النفس الأمَّارة، وإذا ما أقر المرء بكونه قد ظلم ذاته، يكون قد انطلق إلى الأعلى انطلاقة يمكن أن نسميها بالانطلاقة الكبرى، لأنه قد اقتحم العقبة الكأداء، وبذلك كان «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»[3] كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إن الإنسان التائب المقر بأنه قد ظلم نفسه، ينهار لديه نظامه المعرفي، ويبني لنفسه قاعدة معرفية جديدة، وبالتالي يبدأ ببناء نظامه السلوكي بإذن تعالى. وهذا ما حدث لملكة سبأ.

فهي قد تعجَّبت لأخطائها السابقة من عبادة الشمس، وحكم

(١) سورة إبراهيم، آية ٢٤.
(٢) سورة النازعات، آية ٤٠-٤١.
(٣) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١٦، ص٧٥.

الناس بغير الحق، ومن العمى الذي كان يغشى عينها.. فانهارت كل جوانب حياتها، فقالت:

٣- ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾

قالت بعد أن أقرّت بظلم نفسها: إنها قد أسلمت؛ أي أسلمت نفسها (التائبة) إلى الله تعالى، فقدّمتها خالصة بين يديه الكريمتين ليهديها ويسوقها إلى حيث الخير والصلاح.

ولكن؛ هل يكفي الإنسان أن يُسلم لله تعالى دونما مرشد يرشده ويقربه إليه؟

إن الإنسان يقبل بوجود الله ووحدانيته نظريًّا على الأقل، ولكن يصعب عليه الإقرار بلزوم اتِّباع بشر مثله يهديه إلى ربه فيُعلِّمه أحكامه، ويُلهمه قيمه وتعاليمه، ويكون وسيطاً بينه وبين ربه الجبار. فقال قائلهم معرضاً بالبشر الوسائط إلى الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(١).

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾(٣).

حتى إن بعضهم كان يسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أمر ولاية وخلافة أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: أهذا شيء من عندك أم من الله؟

(١) سورة الشعراء، آية ١٨٦.
(٢) سورة يس، آية ١٥.
(٣) سورة التغابن، آية ٦.

متجاهلاً أن النبي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1] بكل أقواله وتصرفاته. ولما أجابه النبي قائلاً: «**والله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّ هَذَا مِنَ الله**» تكبّر وعاند وقال: اللهم إن كان ما يقوله محمد حقًّا، فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وسرعان ما استجاب الله طلبه وقتله بحجارة سقطت عليه من السماء[2].

ولذلك ترى هذه المرأة بلقيس قد وعت الحقيقة بأبعادها، بفضل سليمان عليه السلام وإرشاده لها، وبالرغم من أن القرآن هنا لم يذكر تفاصيل القصة، ولكن بلقيس -كما يحكي القرآن- أشارت بكلمة إلى كل الحقيقة، حيث اعترفت بدور النبي، فقالت:

٤- ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾

أي: إنها أدركت أن الله تعالى قد جعل سُنّة دائمة تتمثل في اتخاذ الوسيلة إليه، إذ المسار إليه ينبغي أن يكون منيراً طاهراً خالٍ من الشوائب ومجرداً عن احتمال الانحراف، ومَنْ أكثر نوراً وأكثر طهراً وأصدق قيلاً من نبيٍّ اصطفاه الله لعباده؟

ولطالما أشارت الآيات والروايات الكريمة إلى أن الإيمان أمر متداخل، ولا يُحرز بإحراز جزء منه، فالإيمان بالله لا يعني شيئاً دون الإيمان بالنبي، والإيمان بالنبي لا يُؤدِّي إلى خير ما لم يعقبه إيمان بالإمام المعصوم، والإيمان بالإمام يبقى إيماناً غريباً دون الإيمان بشيعة الإمام، حتى إن من لم يحب شيعة الإمام، يكذب في مدعاه بحب الإمام.

إذن؛ فالإيمان بالله تعالى ليس معتقداً يُقرِّه الإنسان لنفسه كيف

(١) سورة النجم، آية ٣-٤.

(٢) بحارالأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٣٧، ص١٣٦.

شاء، وإنما ينبغي أخذه وفهمه عن القرآن والحديث، إذ لا صلاحية لأحد في أن يشرّع ما يمليه رأيه ويفرضه هواه، أو بما يفسره برأيه.. إنما الله قد جعل التشريع لنفسه خاصة، فيما جعل تفسيره على لسان معصوم من نبي أو إمام يأخذ علمه من الله تعالى، ولا ينحرف عن مشيئته قيد أنملة أبداً.

٥- ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

لم تُسلم هي مع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجل سليمان نفسه؛ أي إنها لم تُقدِّس النبي الوسيلة فتنشغل به وبملكه، مع ما في هذا النبي الملك من آيات جلال وكمال وجمال.. إنما كان غايتها الكبرى، هو الله رب العالمين المهيمن على شؤون سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ والراعي له والمتلطف به. بمعنى أنها وعت بأن سليمان لا يمثل شيئاً دون ربوبية الله مالك ناصية العالمين، ولذلك نرى إيمان هذه المرأة العظيمة في وعيها قد تُوِّجَ بهذه البصيرة الرائعة والكاملة.

وأخيراً؛ لنا أن نقول: إن ربنا المتعال ومن خلال هذه الآيات الشريفة من سورة النمل التي تحدثت عن النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وطريقة الوحي والاصطفاء والتكليف، ومن ثم تحدّثت عن داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أراد توضيح صورة أولية عن المملكة الصالحة التي يمكن أن تقام على الأرض بأيدي المؤمنين من ذوي الكرامة التوحيدية، وذلك لدى اتِّباعهم دين الله تعالى. وأظهر دليل على إمكانية إقامة هذه المملكة الحضارة، هو وقوع هذا الأمر في عهد هذين النبيين العظيمين، ثم على يد آصف بن برخيا الذي ورث النبي سليمان. والله تعالى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون، فيهتدون للخير والصلاح.

بصائر وأحكام

١- من الضروري تغيير الأسلوب من جانب المؤمن المبلِّغ والداعي إلى الله سبحانه وتعالى إذا ما اصطدم بطريق مسدود، ذلك لأن مداخل الناس للفهم والمعرفة مختلفة، واحتمالات التأثر ومتفاوتة، وكل له طريق للهداية.

٢- إن الدعوة ليست تتم بواسطة الكلام فقط، إنما قد تكون الدعوة بالعمل الصالح، كأن تتجسد بتربية الفرد المؤمن الداعي نفسه تربية تعكس الحق والصدق.

٣- الإيمان بالله تعالى ليس معتقداً يُقرِّه الإنسان لنفسه كيف شاء، وإنما ينبغي أخذه وفهمه من القرآن والحديث، إذ لا صلاحية لأحد في أن يشرّع بما يمليه رأيه وهواه، إنما الله قد جعل التشريع لنفسه فقط، فيما جعل تفسيره على لسان المعصوم الذي يأخذ علمه من الله تعالى من نبي أو إمام، ولا يخرج عن إطار إرادته شيئاً.

أعبدوا اللّه

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾

الحكمة المعروفة تقول: «إن الأشياء تُعرف بأضدادها». ولقد كانت قصة النبي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وسبأ بمثابة التمهيد لقصة النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وثمود. ففي القصة الأولى تبيَّن أن الأمة أية أمة قادرة على تغيير مسارها إلى حيث الهدى والحق، وذلك لدى انصياعها لبلاغ الرسول المبعوث إليها. والآيات الكريمة والروايات الشريفة والشواهد التاريخية الأخرى تشير إلى أنه باهتداء بلقيس على يد النبي سليمان النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، اهتدت سبأ وما عاندت الحق، فلم يتعرضوا للبلاء والعذاب

الجمعي إلى حين. فهم إذن قد عرفوا الحق فاتبعوه، فأنعم الله عليهم بإرشاد الرسول واهتداء الملكة والبقاء في رفاهية إلى أجل مسمى.

أما قوم النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا يسكنون في شمال الجزيرة العربية كما تشير الدلائل، فقد كانوا من قبل مستبصرين، إلَّا أنهم بتقادم الأيام تسلل إليهم الباطل، وكثرت فيهم عوامل الفساد، حتى صار المنكر طابعهم الاجتماعي العام، وسيطر عليهم المترفون، وكاد كيانهم ينهار، فبعث إليهم الله تبارك وتعالى نبيًّا منهم ليعيدهم إلى جادة الصلاح. وفي الحقيقة كانت بعثته من أجل وقف انهيار ما عمروه خلال حياتهم.

ولعل هذه المقاربة بين قوم سبأ الذين استجابوا للهدى لما جاءهم، وبين قوم ثمود الذين تمردوا على الحق لما خاطبهم، إنما هي للمقاربة بين مصيرين وبينهما وبين قصة قوم النبي يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في نينوى، حيث أشرفوا على الهلاك بعد أن هجرهم نبيهم، ولكنهم انتبهوا في اللحظة الأخيرة وقبل نزول العذاب بساحتهم، فاستغفروا الله الرحمن الرحيم، فمنّ الله عليهم وكشف عنهم العذاب.

وهذا أمر غاية في الخطورة والأهمية، من حيث إن مصير الأمم قد جعله الله بأيدي أبنائها، ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. وهذا التغيير قد يكون إلى الأحسن أو إلى الأسوأ.

وهكذا أرسل الله سبحانه وتعالى إلى ثمود نبيًّا منهم ليحول دون انجرافها إلى الهاوية، وليقدم إليهم فرصة تاريخية أخيرة، ليغيروا مسارهم نحو الصلاح والإصلاح، لا سيما وأنهم قد شارفوا على السقوط.

(١) سورة الرعد، آية ١١.

فكان لا بـد لهم من الالتفاف حول مخلصهـم النبي، ليتخلصوا من أدران الفساد والانحراف.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ لم يكـن النبـي صالـح عَلَيْهِ السَّلَامُ كائنـاً من الجن أو الملائكـة، ولم يكـن مجهـول النسـب بالنسـبة إليهم، إنـما كان رجلاً من أنفسـهم ومن أطهر أحسـابهم وأنسـابهم. ودلالة صلاحه وإرادته الإصـلاح، أنـه دعاهـم إلى العـودة إلى بارئهـم وخالقهم الـذي كانوا يعرفونه ويؤمنون بوحدانيته، ولكن تجاهلوا لزوم ترجمة معرفتهم تلك إلى واقع عملي. لقد قال لهم:

٢- ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾

أي: إنـه دعاهـم بهـذه الكلمة العظيمـة إلى ترك طاعـة كلِّ ما لا يرتبط بالله تعالى، وما لا يمت إليه بصلة يمكن أن يكون صنماً أو جبتاً أو طاغوتاً أو مالاً أو غرائز يسـوق اتِّباعها الأعمى إلى ضلال وانحراف.. وإليك خير شاهد على ذلك وهم هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، ليس بالسجود والركوع الماديين لهم، وإنّما اتبعوهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام وتغيير سنن الله، وشرائعه.

ثـم الآية الشريفة وصفت صالحـاً عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أخوهم، مع البون الشاسـع بينـه وبينهم على كافة الأصعـدة، إلَّا أنه وصفـه بأنه أخاهم، ربـما للدلالة عـلى أن مجرد الأخـوة لا تعني صلاحهـم بصلاحه، وإنما الصلاح في شخص إنما تكون عبر عبادته لربه وانقطاعه إليه.

ومـن هنـا نعرف أن القائلـين بجدوى الاحتجاج بسـيرة الذين عاصروا رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جميعاً ليسـوا على حق ما لم يكونوا صالحين بأنفسهم.

وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد، بل إن مسؤولية الأخوة والصحبة تتضاعف حتى تتحول وبالاً على مدعيها في حال عدم الالتزام، وبالتالي تكون محاسبتهم أشد وطأً بين يدي الله عز وجل.

وهكذا قوم صالح عليه السلام تمايزوا فيما بينهم بالرغم من وحدة عنصرهم ومعاصرتهم لبعضهم.

٣- ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾

وكأنما كانت ثمود تنتظر مصلحاً ليدعوها إلى الخير، فأسرع القوم فيها إلى الانقسام، لعلمهم بأن دعوة النبي صالح عليه السلام في غاية الخطورة، وأنها أمر لا يمكن اختيار الصمت تجاهه.

وليس بالضرورة أن يكون الفريق الذي آمن بصالح عليه السلام فريقاً كثير العدد، بل لعله كما هو معروف لم يكن يتضمن إلّا قلائل الأشخاص ومستضعفيهم ممَّن طفح لديهم الكيل جراء وعيهم بالظلم والاحتقار الذي تعرضوا ويتعرضون له.

وفريق آخر رفع عقيرة الخصام ضد رسالة صالح عليه السلام وضد من آمن معه من النجباء، ذلك لأن الفريق الظالم كان لا يريد أي تغيير اجتماعي، لا سيما إذا كان هذا التغيير يمس بمصالحهم السلطوية.

فكانت الدعوة الإلهية التي رفع النبي صالح رايتها أداة فعالة للتمييز بين الخبيث والطيب، وصار مجتمع ثمود بفعل هذه الدعوة يتساءل ويتحاور بحدة بالغة، حتى راح أفراده بفريقيه يختصمون، وقد عمد أهل الباطل إلى قطع الصلات النسبية بمن آمن من أقربائهم مع النبي صالح عليه السلام، ظنًّا منهم أنهم يتحصنون دون نفاذ النور إلى قلوبهم.

بصائر وأحكام

١ - لعل المقاربة بين قوم سبأ الذين استجابوا للهدى لما جاءهم، وبين قوم ثمود الذين تمردوا على الحق لما خاطبهم، إنما هي لبيان المقاربة بين مصيرين مختلفين.

٢ - وعندما أشار ربنا إلى أن صالحاً عليه السلام كان أخاهم، علمنا أن مجرد الأخوة لا تؤدي بالضرورة إلى الصلاح، إنما الصلاح لمن عبد ربه وانقطع إليه.

لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾.

***

من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: «﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ **فَإِنَّهُمْ سَأَلُوهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ النَّاقَةُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، أَرَادُوا بِذَلِكَ امْتِحَانَهُ. فَقَالَ:** ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ **يَقُولُ بِالْعَذَابِ قَبْلَ الرَّحْمَةِ**»(١).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ الخَلْقِ**»(٢).

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٢
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٤٣

وقال عليه السلام أيضاً: «**التَّوْبَةُ تَسْتَنْزِلُ الرَّحْمَةَ**»[1].

تفصيل القول

١- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾

واصل النبي صالح عليه السلام نداءه في قومه بكل حنو وعطف، وبعيداً عن العنف، وإنما أراد استثارة العقول واستنهاض الهمم.

٢- ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾

وإذا انحرف الناس وظلموا واتَّبعوا الشياطين الحجرية والبشرية، جاءهم النذير. وهنالك ينبرون إلى تحديه ومعاداته والتأليب ضده، وهنالك أيضاً تراهم يستعجلون العذاب بكفرهم برسالة النبي المنذر.

لقد أراد النبي صالح عليه السلام أن يُثير فيهم سؤالاً لعلهم يتفكرون مليًّا في أمر النذير المشفق عليهم والعارف بما سيؤول إليه أمرهم إذا ما هم أصروا على طغيانهم وكفرهم بالرسالة والرسول، ولكنهم استعجلوا السيئة. لماذا يستعجل الإنسان السيئة قبل الحسنة، وهل إنه يهتم بالسيئة أكثر من اهتمامه بالحسنة؟

الجواب: بلى؛ إن الإنسان خُلِق من عَجَل، وهذه الكلمة تعني أن ابن آدم -إلَّا من استُثني- يعيش لحظته، مع أن هذه اللحظة قد تستبطن سوءاً له وتحمل في طياتها شرًّا، ذلك لأنه يتجاهل الماضي ويعمى عن المستقبل.. إلَّا المؤمن الذي يعتبر بالماضي ويفكر في

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٩٥، حديث رقم ٣٨٣٥.

المستقبل، فلا يتكالب على شهوة لحظته ولا يستهين بما سبقها وبالذي يليها.

ألا ترى إنه حين يفكر ابن آدم بالآخرة، كيف تهون عليه مصائب الدنيا ومكاسبها؟

أما فيما يتعلق بقوم ثمود، فإنهم استعجلوا عقر الناقة والأمر سيئة كبيرة جدًّا لما تعلق بها من أمر الله تعالى وهكذا عجلوا نزول العذاب على أنفسهم.

ويبدو أن هؤلاء شقوا لأنفسهم طريق العجلة، حتى إنك لترى سيئاتهم تزداد وتتضاعف حتى ألقت بهم إلى قاع السوء.

والظاهر من سياق كلمة ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أن الأمر لا يتعلق بالناحية الزمانية، بقدر تعلقه بطبيعة الاهتمام وتقديمه على الحسنة، ولا ريب في أن انحراف النفس يتبعه ضياع في المقاييس.

٣- ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾

هذه الكلمة الشريفة تدل على أن انحرافهم كان قابلاً للإصلاح، رغم ما كانت تحمل من الضلال وتراكم الذنوب.. فهلموا إلى الاستغفار وتطهير النفس من الأدران لتتحرروا من تبعات الخطايا ولتعودوا إلى حالة الاستواء والاستقامة.

لقد كانوا بحاجة إلى الاستغفار لإعادة الأمور إلى نصابها.

٤- ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

بالاستغفار تتنزل الرحمة. وكلمة (لعل) تُستعمل في القرآن الكريم ليس في إطار الترجي، وإنما على سبيل الاقتضاء دون الحتم،

إذ لا حتم على الله عز وجل. وهذا يعني أن الإنسـان التائب باستغفاره يوفر سبباً للحصول على الرحمة الإلهية.

بصائر وأحكام

١- إذا انحـرف النـاس واتبعـوا الأصنـام الحجريـة والبشرية، جاءهـم النذيـر؛ وهنالك ينـبرون إلى تحديه ومعاداتـه والتأليب ضده، وهنالك أيضاً تراهم يستعجلون العذاب بكفرهم برسالة النبي المنذِر، اذ بعد الإنذار تتوافر عوامل نزول العذاب.

٢- إن الاسـتغفار يقتضي الرحمة الإلهية، وهذا هو المطلوب بعد تلقي الإنذار.

بل أنتم قوم تفتنون

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧﴾.

من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: «﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ **فَإِنَّهُمْ أَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ، فَقَالُوا هَذَا مِنْ شُؤْمِكَ وَشُؤْمِ الَّذِينَ مَعَكَ أَصَابَنَا هَذَا القَحْطُ وَهِيَ الطِّيَرَةُ.** ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ **يَقُولُ: خَيْرُكُمْ وَشَرُّكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ** ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ **يَقُولُ: تُبْتَلُون بِالاخْتِبَارِ**»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الطِّيَرَةُ عَلَى مَا تَجْعَلُهَا؛ إِنْ هَوَّنْتَهَا تَهَوَّنَتْ، وَإِنْ شَدَّدْتَهَا تَشَدَّدَتْ، وَإِنْ لَمْ تَجْعَلْهَا شَيْئاً لَمْ تَكُنْ شَيْئاً**»[2].

---

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٢.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص ١٩٦.

تفصيل القول

١ - ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾

هناك سنن إلهية تصاحب الدعوات الإلهية لدى الاستجابة لها وحين الكفر بها.

ورغم أن هذه السنن قد توزع بيانها والحديث عنها في آيات شتى من الذكر الحكيم ولم تجتمع في آية أو سورة واحدة، إلَّا أننا إذا استطعنا معرفة تلك السنن، استطعنا كشف خارطة طريق فيما يتصل بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

من هذه السنن أنه حينما يبدأ الداعي بإبلاغ الرسالة الإلهية، فيكفر بها أناس ويؤمن آخرون، فإن ربنا المتعال يذيق الكافرين بها من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يتذكرون ويؤمنون. وحسب آية كريمة ما بعث نبي إلى قومه، إلَّا وأُخذوا بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾.(١)

إنه حقًّا نوع من الرحمة الإلهية بالناس، لأن من طبع البشر أنه يتضرع إلى ربه حينما يُصاب بشدة؛ وهناك يستجيب أناس للرسالة بعد أن لانت قلوبهم بسبب الشدة التي أصيبوا بها، ويعاند آخرون ويعودون إلى كفرهم.

وتبريراً لعنادهم كانوا يتطيَّرون بالرسول وبالرسالة وبالداعين إلى الله وبالعاملين في سبيل الله تعالى، حيث يدَّعون أن هؤلاء هم السبب فيما أصابهم من ضراء أو بأساء.

وقد يكونوا فعلاً هم سبباً، إلَّا أنه سبب خير، لا سبب شر.

(١) سورة الأعراف، آية ٩٤.

إذ إن الهدف هو تذكير الناس بالحق. ألا ترى أن الألم الذي يصيب المريض خير له أم شر؟ إنه عامل لكشف سبب مرضه وعلاجه.

بلى؛ إن الله سبحانه وتعالى أراد للبشر أن يضرَّعوا ليعرفوا أخطاءهم والأخطار الناشئة منها فيعالجوها، لكي يعيشوا بسلام ووئام.. ولكنهم اطيروا بالأنبياء والأئمة والعلماء والمجاهدين، وعدّوهم سبب تلك الآلام.

ونتساءل ما هي الطيرة؟

الطيرة هي التشاؤم، ولها أسباب عدة:

منها: تقديس الناس ما ليس له أهلية التقديس، كما كان الجاهليون العرب يقدسون أصناماً من حجارة أو خشب أو تمر، ويرفضون المساس بها، ويعدون المساس بها نذير شؤم.

ولأن النبي أيّ نبي يحرص على تحطيم تلك الأصنام وما وراءها من الأفكار السخيفة، فإنه كان يتعرض من جانب إلى موقف سلبي من قبل الناس، لأنه كان يواجه أدمغتهم الرجعية قبل أن يواجه تقاليدهم التافهة.

ومنها: وجود بعض المشاكل التي تزامن الدعوة النبوية، ولعلها ليست بمشاكل حقيقية، وإنما النظرة السلبية تجاهها هي التي كانت تجعل منها نذير شؤم.

ومنها: كان للإعلام المضاد مثل نفثات الشياطين من الجن والإنس دوره في نشر الأكاذيب، حيث كان يبثّ الشائعات لاستغباء الناس واستغلال جهلهم واستخفاف أنفسهم.

ومنها: أن الناس عندما لم يكونوا يستجيبون لدعوة النبي، كانت اللعنة تنزل عليهم في صورة ظاهرة طبيعية؛ مثلاً كانوا يصابون

بالقحط أو الوباء أو السيل أو الزلزال.. فترى النفثات الشيطانية تنسب كل تلك الظواهر إلى بعثة النبي، لتأليب الرأي العام ضد رسالته.

٢- ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾

هذا كان جواب النبي صالح عليه السلام، وهو لسان حال جميع الأنبياء الذين كان يواجههم أقوامهم بهذا المنطق. إذ يبرئ نفسه عنه وعمَّا يترتب عليه، ذلك أن الله عز وجل يتصرف في خلقه بحكمته كيف يشاء، وهو مع ذلك لا يعدو أن يكون عذاباً أوليًّا دون العذاب الأكبر في الآخرة، أو دون العذاب الذي ينتظرهم عند نهاية الطريق عند كفرهم وعنادهم.

٣- ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾

وهنا كان النبي المرسل إليهم يذكِّرهم بسنّة الابتلاء، وكأنه يقول لهم: أيها الناس إنكم تتعرضون للفتنة، فعليكم أن تلتفتوا إلى أنفسكم وإلى الظواهر الطبيعية من حولكم، فما تحدث منها قد تبدو عفوية وغير متناسقة، ولكنها في الحقيقة غاية في الدقة واستهداف غاية حكيمة؛ إنها بمثابة التحذيرات الأولية بين يدي عذاب عظيم، لعلها تكبح جماح البشر وتعيد بهم إلى جادة الحق.

بصائر وأحكام

ما من نبي ولا رسول أرسل لقومه لينذرهم ويبشِّرهم؛ إلَّا وأُخذوا بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون. وهذا الواقع نوع من الرحمة الإلهية بالناس، لأنهم كانوا يومئذٍ يجأرون إلى ربهم، وهناك يستجيب بعضهم بينما كان يعاند آخرون.

يفسدون في الأرض ولا يصلحون

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

***

من الحديث

في روايـة أبي الجـارود عـن أبي جعفـر عليه السلام في قـول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ «**كَانُوا يَعْمَلُونَ فِيْ الأَرْضِ بِالمَعَاصِي**»[1].

تفصيل القول

١- ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ ﴾

ترى ما هي مسؤولية القادة؟ ولماذا عرفت المجتمعات منظوماتها الهرمية؟

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٢.

إننـا قد نتعامـل مع الحقائـق والظواهر تعاملاً عفويًّـا؛ فلا نهتم مثـلاً بالاسـتغناء عمَّا كان مفيداً وهـو الآن غير مفيـد، أو العودة به إلى وضعـه الطبيعي على أقل تقديـر.. ومن تلك الحقائـق القيادة ودورها في المجتمع.

أقـول: إن دور الرئيـس الـذي يتسـنَّم قمـة الهـرم في كل مجتمع هو الإصلاح، لأن الهدف الأسـاس للمجتمع هـو التعاون فيما بينهم، وإنـما يجتمع الناس في موقع واحد لكي يتبادلـوا المصالح وليتعاونوا.. وإنما سـمي القوم قوماً لأنه يفترض أن يقوم بعضهم بمصلحة البعض الآخر.

ولكـن الرئيس إذا أفسـد بدلاً عـن أن يصلح، وفـرّق بدلاً عن أن يجمـع.. فإنه سـيكون عاملاً للإضرار بالمجتمع، فـلا بد إذ ذاك من استبداله.

وربنا سـبحانه وتعالى يبيِّن أن المشـكلة الخطـيرة التي حدثت في قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ هي أن زعماءَهم عمدوا إلى الإفساد دون الإصلاح.

وهكـذا يوحـي اسـتخدام كلمـة ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ في قـوم ثمـود بأن المفترض بهم أن يسيروا سيرة الصلاح ليعيشوا عيشةً مدنّية طيبة.

٢- ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

مفردة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ تدل على أن قوم ثمود كانوا يفسدون في كل ما يتصل ببلادهم، وبالتالي يتسببون بإفساد سبل الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها.. بما يعني أن قوانينهم وتقاليدهم أصبحت فاسـدة إلى درجة تمنع من التقدم الاجتماعي، أو حتى من الحياة الاجتماعية.

وهم أصبحـوا لا يُصلحون، لأنهم فقـدوا القدرة على الصلاح

والإصلاح بعد أن ذهبوا بعيداً وانغمسوا في الفساد.

لقد كان الرهط هؤلاء في ثمود مختلفين وهو مؤدّى الفساد فيما بينهم، ولكنهم توحّدوا واصطفوا بوجه دعوة النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بصائر وأحكام

إن فائدة الرئيس في كل مجتمع هو الإصلاح، لأن الهدف الأساس للمجتمع هو التعاون، وإنما يجتمع الناس ليتعاونوا، فإذا أفسد الرئيس بدلاً من أن يُصلح، وفرّق بدلاً من أن يجمع.. فإنه سيكون عاملاً للإضرار بالمجتمع، فلا بد إذ ذاك من استبداله.

قالوا تقاسموا باللَّه

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩﴾.

* * *

من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: «﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ **أَيْ تَحَالَفُوا** ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ **أَيْ لَنَحْلِفَنَّ** ﴿لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ **يَقُولُ: لَنَفْعَلَنَّ، فَأَتَوْا صَالِحاً لَيْلًا لِيَقْتُلُوهُ وَعِنْدَ صَالِحٍ مَلَائِكَةٌ يَحْرُسُونَهُ، فَلَمَّا أَتَوْهُ قَاتَلَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي دَارِ صَالِحٍ رَجْماً بِالْحِجَارَةِ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِ مُقَتَّلِينَ وَأَخَذَتْ قَوْمَهُ الرَّجْفَةُ وَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**»[1].

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٢.

تفصيل القول

١ - ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾

اجتمعوا وتقاسموا وتحالفوا، فتمخَّض عن تحالفهم أكثر من مؤامرة، فحلفوا بمقدساتهم، ممَّا يشير إلى توجسهم وحذرهم من أن يخون بعضهم بعضاً. ويبدو من الآية أنهم كانوا مؤمنين بأصل الربوبية، إلاّ أنهم كفروا بحقائقها التفصيلية.

٢ - ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾

الهدف هو أن يباغتوا صالحاً عليه السلام ومعه أهله، وهم الثلة التي آمنت به، ويفاجؤوه وإياهم ليلاً؛ أي إنهم صمموا على ألَّا يبقوا للبيت المؤمن من باقية.

٣ - ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾

لأن مجتمع ثمود كان مجتمعاً قبليًّا وهو في منطقة عربية فقد كان البلد إذ ذاك قد تكرست فيه الفتن والحزازات القبلية، فكان لا بد لهؤلاء المتحالفين أن ينظروا إلى ما يمكن أن يقع بعد مقتل النبي صالح عليه السلام وأهله، فقرروا التنصل عن الجريمة، والادعاء بأنهم لا علم لهم بالقضية أساساً.

٤ - ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

أرادوا ادّعاء الصدق على عدم علمهم بجريمة تصفية النبي وأهله، لأن مجتمعهم الفاسد لا يتولد عنه غير الشرور من كذب وجريمة ومؤامرة وتعامي عن الحق والهدى.. وهذا النص القرآني

عموماً يكشف عن مدى الحالة البائسة التي بلغها مجتمع ثمود، نتيجة الرفض لدعوة النبي صالح الإلهية.

وحيث يرفض الإنسان والمجتمع دعوة الحق، تراه ينغمس في الحيل والمؤامرات والجرائم والتكالب في مواجهة إرادة السماء وتعاليمها، حتى إن الأمر يصل برهطهم إلى تقمص الصدق تجاه مخالفيهم، إضافة إلى إصرارهم على الاتحاد فيما بينهم، وتعاونهم على الإثم والعدوان.

بصائر وأحكام

حيث يرفض الإنسان دعوة الحق، تراه ينغمس في المؤامرات والجرائم في مواجهة إرادة السماء وتعاليمها، حتى إن الأمر يصل برهطهم إلى تقمص الصدق تجاه مخالفيهم.

ومكروا مكراً

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**مَنْ مَكرَ حَاقَ بِهِ مَكْرُهُ**»[1].

وقال عليه السلام أيضاً: «**مَنْ مَكرَ بِالنَّاسِ، رَدَّ اللهُ سُبْحَانَهُ مَكْرَهُ فِيْ عُنُقِهِ**»[2].

تفصيل القول

المكر هو التدبير لأمر ما، وربما يكون اعتداءً، وربما يكون درءاً لاعتداء.

أمـا الاعتداء فهو أمر محـرَّم، إلّا أن يكون درءاً لاعتداء. وحيث

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٢٩١، حديث رقم ٦٤٨٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٢٩١، حديث رقم٦٤٨٩.

يخطط الأعداء ويتآمرون لتفعيل اعتداء محرم، فلا بد أن يقابل تآمرهم بما ينتهي إلى إحقاق الحق ومحق الباطل.

وثمود حيث مكروا، فقد مكر الله تعالى بهم. وما العذاب الذي نزل بهم إلَّا بسبب مكرهم، وليس ابتداء من الله تعالى. فالمكر الصادر عنهم كان العلة الأساس لدمارهم، لأن البادي دائماً أظلم، والفتنة أشد من القتل.

إن هذه الرؤية القرآنية نستفيدها؛ ليس من التاريخ فحسب، وإنما لأن القرآن يجري مجرى الشمس على أناس جدد وحالة جديدة. ولا ينبغي للمؤمنين أن يقفوا موقف السذاجة من التحولات، لأن أولى صفات المؤمنين التي ينبغي أن تتوفر فيهم هي: الحذر والتفكير الحكيم لمواجهة مشاكل الحياة، دون الانطواء على الذات وانتظار ما يحل بساحتهم.

١- ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾

صيغة المفعول المطلق المشتق من الفعل نفسه تشير إلى أن ثمود قد حبكوا خيوط مؤامراتهم بصورة داهية للإيقاع بالنبي صالح عليه السلام وأهله وأتباعه.

٢- ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾

كذلك كان فعل الله عز وجل، إذ دبّر لهم أمراً عظيماً، هو أشد وطأة من فعلهم.

٣- ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

فكان وقع المكر الإلهي أكبر عليهم، وأعلى من مستوى أفهامهم وإدراكهم.

ورغم أن المكر تُحبك خيوطه دونما اطلاع وشعور من الجهة

المقابلة، إلَّا أنه عز وجل وصف مكره بأنه مكر فاق اطلاع ثمود وشعورهم، إشارة إلى أن مكرهم هم كان قد أعماهم، لأنهم كانوا يظنون أن صالحاً عليه السلام غير محمي من جانب الله تعالى، فأخذهم الغرور بمكرهم وظنوا أنهم سيقضون على نبي الله قضاءً مبرماً، بل إنهم جراء كفرهم العتيد لم يعيروا أهمية لاحتمال انتقام رب العزة المتعال. فلم يحسبوا لكل ذلك حساباً. وهذا معنى فيما يبدو عدم شعورهم بمكر الله تعالى؛ أي إنهم لم يفكروا. والشعور: أدنى التفكير، أو أقل العلم.

ويبقى السؤال: كيف دُمِّرت ثمود، هل بالصيحة أم بالزلزلة أم بالصاعقة؟

قد تكون الصاعقة التي تحدث عند اختراق نيزك للغلاف الجوي، وعند تفجرها في الجو أو ارتطامها بالأرض، تعلو منها صيحة عظيمة، وقد تحدث زلزالاً وفي الوقت ذاته تصيب الناس أمواج الانفجار (الذي قد يكون أكبر من عشرات القنابل الذرية).

وهذا ما حدث لثمود بعد أن غادر النبي صالح عليه السلام ومن معه تلك الأرض، ليدعوا أهلها يتعرضون وحدهم لجزاء سيئاتهم.

بصائر وأحكام

حين يخطط الأعداء ويتآمرون لتفعيل اعتداء محرَّم، فلا بد أن يقابل تآمرهم بمكر ينتهي إلى إحقاق الحق ومحق الباطل؛ وعلى الإنسان أن يضع هذه السُّنّة نصب عينه.

أنا دمرناهم وقومهم أجمعين

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**المَكْرُ وَالخَدِيْعَةُ فِيْ النَّارِ، فَكُوْنُوْا مِنَ الله عَلَىْ وَجَلٍ، وَمِنْ صَوْلَتِهِ عِلَى حَذَرٍ**»[١].

وقال عليه السلام أيضاً: «**مَنْ أَمِنَ مَكْرَ الله هَلَكَ**»[٢].

وقال عليه السلام أيضاً: «**مَنْ أَمِنَ المَكْرَ لَقِيَ الشَّرَّ**»[٣].

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص١٥٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٠٠، حديث ١٧١٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٠٠، حديث ١٧١٨.

تفصيل القول

١ - ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾

أيها المؤمن، وأنت يا أيها الإنسان، اعتبر بما جرى من حوادث في التاريخ وانعكست في قصص القرآن التي ما جاء بها إلَّا لاستلهام الدروس، والاستدلال على مصداقية الخط الإيماني الرسالي في الحياة، لعلك تعي حقيقة أن الله تعالى هو الممسك بمقدرات الحياة.

٢ - ﴿ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ ﴾

كان المكر الذي مكروه؛ الإيقاع بالنبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فانتهى إلى الدمار، هم ومكرهم. والعاقبة هي النقطة الأكثر والأعظم أهمية في الحياة وفي الصراع.

أما ثمود، فقد كان تفكيرهم خاطئاً، وسلوكهم ظالماً، ولذلك كانت عاقبتهم السوءى بما كسبت أيديهم.

٣ - ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

الذين مكروا، والذين رضوا بالمكر واتخذوا موقف الصمت والتفرج تجاهه، تعرضوا للدمار جميعاً، ولم يرحمهم الله، لأنهم سدُّوا منافذ الرحمة على أنفسهم وأبوا إلَّا كفوراً.

بصائر وأحكام

١ - إنما عليك بصفتك مؤمناً، بل وبصفتك إنساناً أن تعتبر من

قصص القرآن التي ما جاءَت إلَّا لاستلهام الدروس، والاستدلال على مصداقية الخط الرسالي، ومعرفة أن بيد الله مقادير الأمور.

٢- الذين مكروا، والذين رضوا بالمكر أو اتخذوا موقف الصمت، تعرضوا للدمار جميعاً، ولم يرحمهم الله، لأنهم سدَّوا منافذ الرحمة على أنفسهم وأبوا إلَّا كفوراً.

فتلك بيوتهم خاوية

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**الظُّلْمُ يُدِمِّرُ الدِّيَارَ**»[١].

وقال عليه السلام أيضاً: «**الظُّلْمُ يزلُ القدَمَ، وَيَسْلِبُ النِّعَمَ، ويُهْلِكُ الأُمَمَ**»[٢].

وقال عليه السلام أيضاً: «**الظُّلْمُ يَجْلِبُ النِّقْمَةَ**»[٣].

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤٥٦، حديث ١٠٤٢٧.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤٥٦، حديث١٠٤١١.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤٥٦، حديث ١٠٤١٩.

تفصيل القول

١- ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾

كما الأعمال الصالحة يجعلها الله تبارك وتعالى نوراً في قبر صاحبها وفي ساحة المحشر، وكما الأعمال السيئة تزيد قبر ابن آدم ظلاماً تعميه يوم القيامة.. كذلك الظلم، يتحول بإذن الله تعالى إلى أداة محق وتدمير.

وآية ذلك؛ ما حاق بثمود الذين تحولت مدنيتهم وحضارتهم إلى مجرد بيوت خاوية بعدما كانت حضارة عظيمة. بلى؛ إنها كانت هي البيوت التي رضيت بها حاك أصحابها من المكر والكفر والطغيان، والدعوة ما زالت مفتوحة للنظر إلى تلك البيوت التي استُبْعِدت من رحمة الله سبحانه وتعالى.

ونحن إذا أدركنا مفاهيم هذه الآية، توصلنا إلى كثير من الحقائق. فالعالم العارف بربه وبأسمائه الحسنى يعرف سنن الله في خلقه، ومن خلالها يعرف نهايات الأعمال وعقبى ما يفعله الظالمون في الأرض.

٢- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

هذه الحقائق متاحة، ولكنها متاحة لقوم يعلمون. وحقيقة العلم كشف المجهول بصورة واضحة؛ أي إنّ استبيان حقيقة هذه الآية والاعتبار بها بحاجة إلى علم يستقر في قلوب واعية.

بصائر وأحكام

الظلم في دار الدنيا، يتحول بإذن الله إلى أداة محق وتدمير للحضارات.

وأنجينا الذين آمنوا

﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

❋❋❋

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «**وَالتَّقْوَى غَايَةٌ لَا يَهْلِكُ مَنْ تَبِعَهَا، وَلَا يَنْدَمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا، لِأَنَّ بِالتَّقْوَى فَازَ الْفَائِزُونَ، وَبِالمَعْصِيَةِ خَسِرَ الخَاسِرُونَ**»(١).

وقال عليه السلام: «**لَا حِصْنَ أَمْنَعُ مِنَ التَّقْوَى**»(٢).

❋❋❋

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص١٦٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٢٧٠، حديث ٥٨٩٣.

تفصيل القول

أولئك الذين تطيَّروا بالنبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكذَّبوه ومكروا له ولأهله ولأتباعه.. قد مكر الله بهم ودمرهم، وجعل بيوتهم خاوية، مطرودة من رحمة الله سبحانه وتعالى.

ولكن الذين آمنوا بالله وبنبيه وبرسالته، ثم ارتقوا بإيمانهم هذا إلى منزلة التقوى، فتجنبوا الشر، وبادروا إلى أعمال الخير، قد أنجاهم الله تعالى ممَّا يحيق بهم من خطر.

بلى؛ إن الذين اختصموا في النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بين رافض ومؤيد، قد افترقوا مرة أخرى ولكن افتراقهم في هذه المرة في العاقبة، حيث كانت عاقبة الكفار البوار، وعقبى المؤمنين النجاة والفلاح. إذ بدأت حضارتهم الجديدة بعد دمار خصومهم وانطلقت بحالة إيمانية تحت قيادة نبيهم العظيم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بصائر وأحكام

الذين آمنوا بالله وبنبيه وبرسالته، ثم ارتقوا بإيمانهم هذا إلى منزلة التقوى، قد نجحوا وكانت عاقبتهم بناء حضارتهم من جديد.

أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يُبَالِي أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ مُسِيْئاً**»[1].

تفصيل القول

١- ﴿ وَلُوطًا ﴾

بعد استعراض جوانب ذات صلة بمقصد السورة من قصص

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤٦٢، حديث ١٠٥٩٩.

معينة من حياة الأنبياء الكرام موسى وسليمان وصالح عليهم السلام، ها قد جاء دور النبي لوط عليه السلام، حيث عطفت قصته بالواو. والواو هنا واو الترتيب، حيث ينبغي تذكُّر ذلك النبي الكريم واستلهام العبر والدروس من حياته مع قومه.. وتجتمع هذه العبر المستلهمة من قصص الأنبياء عليهم السلام في كلمة، وهي: أن من يواجه سنن الله عز وجل ويعاجز آيات ربه، فإن هذه السنن تنتقم منه، والله يعاقبه.. وكل سُنّة منها لها عذاب خاص ومحدد.

٢- ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾

خاطبهم خطاباً مباشراً بلا خوف أو وجل، ذلك لأن الأنبياء غير معنيين بمسلك التورية؛ فهم إنما بُعثوا لإحداث الإصلاح الجذري في مجتمعاتهم.. وهم يُبعثون أحياناً حين يصل المجتمع إلى الدرجة الأشد فساداً وانحرافاً، فينبرون إلى أقوامهم؛ إلقاءً بالحجة الأخيرة عليهم لإنقاذهم أو إتمام الحجة عليهم قبل حلول الدمار بهم، إعمالاً للسُّنّة الإلهية القاضية بتعذيب الذين لا يقدِّرون الله حق قدره، ولا يستثمرون أنعم الله تعالى بما ينبغي.

٢- ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾

خاطب النبي لوط عليه السلام قومه بسؤال استنكاري، يكشف عن واقعهم المزري وسلوكهم المنحرف الذي وصل بهم إلى منتهى الحضيض.

فحيث كان فساد قوم ثمود انحرافاً سياسيًّا واجتماعيًّا، حيث بدَّلوا ما قد بقي عندهم من موروث ديني، فتقاسموا على خرق ذلك الموروث، وكفروا ومكروا بنبيهم وأهله.. فأدى بهم إلى العذاب

والدمار الشامل. بينما كانت الفاحشة سمة قوم لوط، حيث إن الفاحشة تعني الزيادة، وهي من الفحش؛ أي الخروج عن المألوف في الكمية. ولذلك يقال: سعر فاحش؛ بمعنى كونه أكثر من القدر المعقول. والفحش المقصود في الآية، أن قوم النبي لوط عليه السلام ساروا في طريق لم يرسمه الله عز وجل لتفريغ الإنسان شهوته الجنسية.

من هنا كان فساد قوم لوط عليه السلام الفحش، حيث تراهم أوغلوا في الانحراف الأخلاقي، وعافوا المنحى الطبيعي في الحياة، واتجهوا إلى طرق غير طبيعية ومنكرة، وأصروا على الشره في إشباع شهواتهم الشاذة.

بلى؛ إن الله سبحانه وتعالى قد خلق في الإنسان مقداراً من الشهوة يكفيه، دافعاً إلى تحمل مسؤولياته في التزوج وبناء الأسرة، بما في الزواج من إشباع لهذه الشهوة الطبيعية. لكن المشكلة تبدأ حين يبدأ الإنسان بالفحش ولا يتحدَّد ضمن المسلك الطبيعي لإشباع شهوته، فيشذ في خلقه.

وهذا التطرف قد يبرز لديه بسبب تربيته السيئة، أو تحطيم كرامته على يد أبويه مذ كان طفلاً، ممَّا يجعله يثأر لها بالاعتداء الجنسي على الآخرين، وقد يكون بسبب تهرُّبه من مسؤوليات بناء الأسرة أو غير ذلك من عوامل الشذوذ. وكل ذلك قد تحول عند قوم لوط عليه السلام إلى داء اجتماعي وبيل، حتى اقتربوا من حافة الانقراض، فجاءهم النبي في اللحظة الحاسمة، وسعى من أجل إيقاظ ضمائرهم، واستنكر عليهم فعلهم، وقال:

٣- ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾

لأن بعض الناس في قوم لوط عليه السلام قد أكثروا وأفرطوا في

ممارسة الفاحشة، فقد سقط حياؤهم وزالت قباحة الفاحشة في أعينهم، حتى إنهم اعتبروا عدم الشذوذ الخلقي والجنسي شذوذاً.

بلى؛ إن الفساد الجنسي من شأنه أن يدمر الأمم كما هو الفساد السياسي. والأمة التي تريد التخلص من عوامل الانحراف والدمار، لا بد لها أن تدرس القرآن لكي تعرف كل الآفات التي أصابت الأمم الغابرة، ومن ثم دمرتها.. فتحاربها وتتجنب المزالق التي تؤدي إليها.

ومن الناس من يختصر الحديث في الانحراف السياسي. كلَّا؛ إن الانحراف السياسي ليس العامل الوحيد في دمار الأمم، بل هنالك عوامل انحراف أخرى.. فلا بد من بناء حصون قوية قادرة على صد مختلف عوامل الانحراف وأسباب الدمار، حتى تبقى حضارة الإنسان شامخة وكريمة.

لقد كان قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ يعرفون حقيقة الشذوذ الذي يمارسونه، ويبصرون طبيعة المضار التي ستلحق بهم، ولكنهم مع ذلك كانوا يصرون على ممارستهم الفاحشة، بالرغم من إنذار النبي لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم، فاستحقوا الدمار.

بصائر وأحكام

١- ن الأنبياء غير معنيين بمسلك التورية، لأنهم بُعثوا لإحداث الإصلاح الجذري في مجتمعاتهم.. وهم يبعثون أحياناً حين يصل المجتمع إلى الدرجة الأشد فساداً وانحرافاً، فينبرون إلى أقوامهم؛ إلقاءً بالحجة الأخيرة عليهم لإنقاذهم، أو إتمام الحجة عليهم قبل نزول

العذاب، وفقاً للسنة الإلهية القاضية بتدمير الذين لا يقدِّرون الله حق قدره، فيتحدَّون إرادته وسننه.

٢- إن الفساد الجنسي من شأنه أن يدمر الأمم كما هو الفساد السياسي. والأمة التي تريد التخلص من عوامل الانحراف والدمار، لا بد لها أن تدرس القرآن وتدرس أوجة الآفات التي أصابت الأمم الغابرة، ومن ثم دمرتها، فتتجنبها.

بل أنتم قوم تجهلون

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾.

* * *

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**العَقْلُ يَهْدِي وَيُنْجِي، وَالجَهْلُ يَغْوِي وَيُرْدِي**»[1].

وقال عليه السلام أيضاً: «**الجَهْلُ فَسَادُ كُلِّ أَمْرٍ**»[2].

* * *

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٥١، حديث ٣٦٢.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٧٣، حديث ١٠٩٧.

تفصيل القول

١ - ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾

لقد استنكر النبي لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وبشدة ذلك السلوك المشين في إشباع الشهوات، لأنه ناتج عن الجهل بمضاره النفسية والبدنية، والجهل بعاقبته على المستوى الاجتماعي والحضاري، والجهل بعواقبه على مستوى الآخرة.

٢ - ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

لقد أصبح المجتمع برمته عبارة عن قطعان جاهلة، حتى إنه أمسى أسوأ من مجتمع ثمود في مستوى الجهل؛ إذ أضحى أولئك فريقين يختصمون في صدق رسالة النبي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ونبوته، ولكن ضغط الشهوات الشاذة مسخت عقول قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى حوَّلتهم إلى ثلة جاهلة بدائها ودوائها وعاقبة أمرها في الدنيا والآخرة.

ولم يكن الجهل المنسوب إلى قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ جهلاً على مستوى العلم، وإنما كان جهلاً حتى على مستوى العقل. فهم قد عطَّلوا عقولهم، فلم يعودوا يشعرون، كما كان واقع ثمود الذين سقطوا في درك فقد الشعور بفعل مكرهم من جهة، وبسبب مكر الله عز وجل بهم.

والإنسان كما أوتي العقل، كُلِّف بالاستفادة منه. بينما تجد قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ عطَّلوا قواهم العقلية، ولذلك جاء التعبير بصيغة ﴿تَجْهَلُونَ ﴾؛ (بصيغة فعل المضارع للدلالة على سوء اختيارهم وبصورة عمدية للجهالة).

ولنـا أن نتأمَّـل طبيعـة توافر عوامـل التطرُّف والظلـم والتمرُّد والجهل في مجتمع، كيف ستكون امتداداتها؟

بصائر وأحكام

الإنسـان كما أوتي العقل، كُلِّف بالاسـتفادة منه. بينما عطل قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ قواهم العقلية، ولذلك جاء التعبير بصيغة ﴿تَجۡهَلُونَ﴾؛ أي إنهـم الذيـن اختـاروا الجهل مسـلكاً بسـوء اختيارهـم وعن قصد مسبق.

أخرجوا آل لوط من قريتكم

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ ﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾

لم يكن لديهم إلَّا جواب من تأخذه العزة بالإثم؛ المتكبر المتطاول على من يريد توجيه النصح إليه... وهذا الواقع المزري إنما عبَّر عن خوائهم النفسي وعدم قبولهم بالحل البديل الصالح والعلاج الناجع لمرضهم الخطير.

٢ - ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ ﴾

إنه لعمري هروب إلى الأمام، إذ حزموا أمرهم على تشريد آل لوط، وهم البيت الوحيد الذي آمن للوط عليه السلام نفسه.. وذلك أنهم

اعتبروهم السبب في تعكير صفو عيشهم القائم أساساً على الشذوذ الجنسي؛ أي إنهم اعتبروا -بداعي جهلهم وطريقة تفكيرهم التافهة وقراراتهم التي لا يتخذونها بناءً على أسس وقواعد سليمة ونزيهة- آل لوط شماعةً يضعون مشاكلهم وأزماتهم الأخلاقية والأسرية وحتى الاقتصادية عليها، إذ انقطع الناس عن دخول مدينتهم بسبب سلوكهم غير الأخلاقي، حتى قيل: إنهم كانوا يترصدون بالمسافرين الغرباء خارج مدينتهم ليختطفوهم ويمارسوا معهم الرذيلة قسراً.

ولكن هل انتهت مشاكلهم عند هذا الحد؛ أي عند خروج أو إخراج آل لوط؟

بالطبع كلّا؛ فالعذاب ما برح أن فتك بهم بمجرد خروج آل لوط عنهم.

٣- ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾

عدّ الكافرون بالنبي لوط عليه السلام أن المنطقة منطقتهم، وهي المحاذية للبحر الميت، وذلك نوع تجبر، حيث رأوا في دعوة لوط عليه السلام مبرراً لإسقاط حق المواطنة لمجرد اختلافه معهم بسبب سلوكهم الشاذ واعتراضه عليهم.

ثم إن المنطقة كانت -كما في بعض التواريخ- من السعة والشهرة ما يشار إليها بالبنان، ولكن الله تعالى لم ينعتها بالمدينة، إهانة لأهلها الفاسقين -حسبما يبدو-. وهذا يعني أن المنطقة إنما تكون ذات شأن من الاحترام حسب سلوك أهلها، وليس لمجرد كونها من هذا العنصر أو ذلك أو ينطقون بهذه اللغة أو تلك.. وهذا هو المنطق القرآني الرشيد الذي يُشرِّف البلد لشرف أهله من حيث السلوك والمعتقد النزيهين.

٤- ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

وهـذا عـذر أقبح مـن ذنـب! وذلـك لأن قوم لـوط عَلَيْهِ السَّلَامُ قد انقلبـت المفاهيم والأعـراف لديهم، حتى عدّوا الطهـارة والتطهر ذنباً ينبغي أن يعاقب عليه صاحبه.

وهـذه المقولة كانت اعترافاً صريحاً بطهارة بيت آل لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي شـهادة بسـمو مقامهم، الأمـر الذي كان يثـير في أنفس الضالين الفاسقين كوامن الحسد والضغينة.

ولقـد رأينا حالة مماثلـة لذلك في العتاة من قتلة الإمام الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهـل بيته وأصحابه.. إذ كانوا يُمعنون في الجريمة لعلمهم بأن سـيد الشـهداء من قوم قد أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً. فلأنّـه كان القمة في الطهـر من جهة، بينما كان أعداؤه في الحضيض من العبودية للشيطان، لذلك تراهم قد انهالوا عليه ظلماً وتقتيلاً.

بلى؛ إن أبا عبد الله الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان على طرف النقيض منهم، إذ كان القدوة الصالحة لمعسـكر الخير والنور.. بينما هم كانوا يعشـقون الشر والظلام، فسوَّلت لهم أنفسهم أن يقتلوه.

بصائر وأحكام

إن قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ قد انقلبت المفاهيم والأعراف لديهم، حتى عدّوا الطهـارة والتطهر ذنباً ينبغي أن يعاقـب عليه صاحبه. وما ذهبوا إليه إنما هو اعتراف صريح بطهارة بيت آل لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي شهادة لهم بسمو مقامهم، الأمر الذي كان يثير في أنفس الضالين الفاسقين كوامن الحسد والضغينة.

فأنجيناه وأهله

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾

هنالك أنجى الله تعالى نبيه صالحاً عليه السلام والذين آمنوا معه وكانوا يتقون، وهنا أنجى نبيه لوطاً وأهله، لأنه عليه السلام بقي وحيداً مع أهله باستثناء امرأته الخائنة.

ولنا أن نتصور مدى العظمة التي كان يتميز بها هذا النبي القديس بعد أن أحكم علاقته بالله سبحانه وتعالى وبما عنده من خير وهدى ونعمة، فصار لا يخشى الناس ولا يستوحش طريق الهدى لقلة سالكيه.

لقد أنجاه الله وأهله مرة إذ طهَّرهم من رجس قومهم الفاسقين، ومرة أخرى من العذاب الذي حل بساحة أولئك.

٢- ﴿قَدَّرۡنَـٰهَا مِنَ ٱلۡغَـٰبِرِينَ﴾

أي: جعلناها بفعل خيانتها لنبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمست كسالفتها امرأة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث شملها عذاب الطوفان والغرق لعدم اتِّباعها لزوجها.

إن امرأة لوط لم تكن من الذين آمنوا ولم تحظ بالتقوى، فكانت عاقبتها السوء بعد أن سارت في ركب الظالمين؛ حتى إنها لم تُوفَّق للتوبة، لإصرارها على خطيئة الخيانة، حيث كانت تعين الظالمين المنحرفين.

وليس من شك في أن هذا النص يهدف إلى تأكيد أن الشرير لا يتطهر لمجرد مجاورته الطيب، وإن كان ذلك الشرير زوجاً لنبي من أنبياء الله العظام.. بل إنه سبحانه وتعالى -كما ورد في سورة التحريم- قد ضرب للذين آمنوا مثلاً بهاتين المرأتين الخائنتين، ليتأكدوا أن من زوجات الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من قد تخونهم حيث لم يدخل الإيمان في أفئدتهن. والأمر بطبيعة الحال لا ينقص من شخص الرسول، وكذلك لا يمنح الاقتراب من الرسول حصانة، اللهم إلَّا أن يكون اقتراباً على أساس الإيمان.

بلى؛ إن الله تعالى قد اعتبر امرأة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ممَّن يحل بهم العذاب؛ بمعنى أن العذاب الإلهي بأنواعه وصوره لا ينزل إلَّا بحكمة وقدر.

بصائر وأحكام

إن الشرير لا يتطهَّر لمجرد مجاورته الطيب، وإن كان ذلك الشرير زوجاً لنبي من أنبياء الله العظام. بلى؛ إنّ الإيمان والمشايعة هو الصلة بين الفرد والأنبياء، حتى لو كان بعيداً جغرافيًّا أو زمنيًّا عنهم.

فساء مطر المنذرين

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا عَمِلَ قَوْمُ لُوطٍ مَا عَمِلُوا شَكَتِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى السَّمَاءِ أَنْ أَحْصِبِيْهِمْ، وَإِلَى الأَرْضِ أَنْ اخْسِفِي بِهِمْ**»[1].

تفصيل القول

لقد جاءت في القرآن الكريم مفردة المطر للإشارة إلى السوء النازل من السماء، بينما استعمل لفظ الغيث في مقام الرحمة والخير.

(١) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ج٢، ص٤٥٥.

ثم إن نهاية قوم لوط عليه السلام لم تكن عبثاً ودونها مقدمات، فهم قد أُنذِروا مراراً، فكان لا بد لهم أن يحذروا ما كانوا عليه من واقع مخزٍ ومرير؛ إذ لعل وراء الإنذار إتماماً للحجة وتمهيداً للانتقام. فلم يكن بين أيديهم تبرير لكل ذلك العناد والانسياق للشاذ من الشهوة.

وبالفعل، لقد طهَّر الله سبحانه وتعالى الأرض من رجس ونجاسة أولئك القوم.. طهَّرها بالانتقام لها منهم. وقد جاء عن أبي الحسن عليه السلام، أنه قال: «**حَقَّ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعْصَى فِيْ دَارٍ إِلَّا أَضْحَاهَا لِلشَّمْسِ حَتَّى تُطَهِّرَهَا**»[1].

بصائر وأحكام

إن نهاية قوم لوط عليه السلام لم تكن دونها مقدمات، فهم قد أُنذِروا مراراً، فكان لا بد لهم أن يحذروا ممَّا كانوا عليه من واقع مخزٍ ومرير.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٢٧٢.

اللَّه خير أما يشركون؟

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ نِعْمَةً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ تَعَالَى**»(١).

وروي عـن معمر بن خلاد قال: «سَـمِعْتُ أَبَا الحَسَـنِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ: **مَنْ حَمِدَ اللَّهَ عَلَى النِّعْمَةِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَكَانَ الحَمْدُ أَفْضَلَ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ**»(٢).

وروي عـن الإمـام الهادي أبي محمد الحسـن بن عـلي عليهما السلام، أنه

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج١، ص٥٠.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٩٦.

كتب إلى إسحاق بن إسماعيل: «**وَلَيْسَ مِنْ نِعْمَةٍ وَإِنْ جَلَّ أَمْرُهَا وَعَظُمَ خَطَرُهَا إِلَّا وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ عَلَيْهَا مُؤَدٍّ شُكْرَهَا، وَأَنَا أَقُولُ: الحَمْدُ لِلَّهِ مِثْلَ مَا حَمِدَهُ بِهِ حَامِدٌ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِ، بِمَا مَنَّ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَنَجَّاكَ مِنَ الهَلَكَةِ، وَسَهَّلَ سَبِيلَكَ عَلَى الْعَقَبَةِ**»(١).

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**وَأَمَّا قَوْلُهُ:** ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **قَالَ: هُمْ آلُ مُحَمَّدٍ** عليهم السلام»(٢).

تفصيل القول

تحوي هذه الآية الكريمة فيما تحوي ثلاث بصائر؛ تتمثل الأولى في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والثانية في قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، والثالثة في قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ولكن السؤال: لماذا ذُكِرت هذه البصائر بعد سياق الآيات الماضية، مع أن الحديث كان عن الأنبياء الكرام موسى ثم سليمان ثم صالح ثم لوط على نبينا وآله وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فجاء النهي عن الشرك، فما هي العلاقة بين الأمرين؟

إن الشرك والتوحيد يتداخلان في ثقافة الأمم وسلوكهم، وقد تكون نسبة أحدهما عالية في أمة أو منخفضة، ولكنهما موجودان. ولذلك نجد القرآن المجيد يُذكِّرنا عن الشرك وعن الإيمان أبداً باعتبارهما أصلان متعاكسان. فالشرك هو الانحراف عن خط توحيد الله عز وجل، والوقوع في بؤرة الفساد. وقد يكون هذا بفساد خلقي

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٤٨٤.
(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٢٩.

كما في قوم لوط، أو سياسي كما في قوم صالح، وقد يكون الانحراف بالاتجاه إلى عبادة الشمس كما في سبأ. وعلى العموم، فإن هذا نوع شركٍ، حيث تحكم مجموعة من البشر بغير ما أنزل الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون. إذ يقدِّسون ما ليس بمقدَّس، ويقودون البلاد والعباد إلى غير الحق والعدل. وهذا هو جوهر الشرك.

وفي هذا المجال روي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] فقال: «**وَاللَّهِ مَا صَلَّوا لَهُمْ وَلَا صَامُوا، وَلَكِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَاماً وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالاً فَاتَّبَعُوهُمْ، فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**»[2].

١- ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

الحمد لله على ما أنعم بالرحمة وآتانا من الحكمة.

لقد أنعم ربنا سبحانه وتعالى على طائفة وعذَّب أخرى. إنه قد أنعم على النبي موسى عليه السلام حين أوحى إليه بالرسالة، وأنعم على النبي سليمان عليه السلام إذ أرسله ووهب له ملكاً كبيراً، وأنعم على بلقيس إذ هداها للإسلام. ولكنه عذَّب قوم النبي صالح عليه السلام وقوم النبي لوط عليه السلام.. فالحمد لله، لأنه لم ينعم عبثاً ولم ينتقم جزافاً، إنما أنعم بحق وبفضل، وانتقم بحق وعدل، إذ أنذرهم من قبل وبعث إليهم الرسل وأنزل عليهم الآيات تلو الآيات.

(١) سورة التوبة، آية ٣١.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤٦.

وفعل الأمر ﴿قُلِ﴾ أمر بإظهار الحمد على اللسان تعبيراً عن الاعتقاد بوجوب عرفان الجميل.

٢- ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾

السلام هو محور علاقة الإنسان بالإنسان، ولذلك فإن الدين يريد إفشاء السلام بين بني آدم لضمان الأمان والألفة.

ثم إن السلام على الأنبياء والأئمة الذين اختارهم الله تبارك وتعالى لقيادة البشر والاقتداء بهم والاتصال بالله عبرهم، تعبير عن الإيمان بهم والاستقامة على خطهم في الخوف والأمن.

فالإنسان يبحث عن قدوة، فأين يجدها؟

لقد وفَّر الله سبحانه للبشر أفضل القدوات، وهم رموز التوحيد، لأنهم أدلَّاء على الله؛ فما عذر مَنْ يتركهم إلى مَنْ هم مظاهر الشرك؟

إن الذين اصطفاهم الله هم عباده الأقرب إليه سبحانه وتعالى، وهم عباد مكرمون، ولم يدّعوا ذات يوم شيئاً من الألوهية، وإنما الله تبارك وتعالى جعلهم أبواباً لرحمته بما يعلم من صلاحهم وكونهم خير أوعية لحمل الرسالة المباركة.

٣- ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

لله الحمد، إنه هو الذي اصطفى أفضل خلقه ليقودوا الناس إلى أفضل الغايات.. فهل هو خيرٌ، أمّن لا عقل ولا دين ولا فضيلة له من الظلمة والطغاة الذين لا همَّ لهم إلَّا أنفسهم ومصالحهم.

كلَّا؛ إنما هو الله تعالى خالق الناس الذي يختار القدوة الصالحة للناس.

بصائر وأحكام

إن الـشرك والتوحيـد يتداخلان في حركة الأمـم، ولذلك نجد حديـث القـرآن المجيد عن الـشرك وعن الإيـمان يتعاكـس باعتبارهما أصـلان؛ هذا في الصلاح وذاك في الفسـاد. وإذا كان الأنبياء هم رموز التوحيد ودعاة السلام، فإن الطغاة (أعداءَهم) هم أصنام الشرك. ولا خيار للإنسان إلّا باتِّباع رموز التوحيد.

بل هم قوم يعدلون

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**أَوَّلُ الْعِبَرِ وَالْأَدِلَّةِ عَلَى الْبَارِئِ جَلَّ قُدْسُهُ، تَهْيِئَةُ هَذَا الْعَالَمِ وَتَأْلِيفُ أَجْزَائِهِ وَنَظْمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ. فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْعَالَمَ بِفِكْرِكَ، وَخَبَرْتَهُ بِعَقْلِكَ، وَجَدْتَهُ كَالْبَيْتِ الْمَبْنِيِّ الْمُعَدِّ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ. فَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْفِ، وَالْأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالْبِسَاطِ، وَالنُّجُومُ مُضِيئَةٌ كَالْمَصَابِيحِ، وَالْجَوَاهِرُ مَخْزُونَةٌ كَالذَّخَائِرِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا لِشَأْنِهِ مُعَدٌّ، وَالْإِنْسَانُ كَمَالِكِ ذَلِكَ الْبَيْتِ، وَالْمُخَوَّلِ جَمِيعَ مَا فِيهِ. وَضُرُوبُ النَّبَاتِ مُهَيَّأَةٌ لِمَآرِبِهِ، وَصُنُوفُ**

الحَيَـوَانِ مَصْرُوفَةٌ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ. فَفِي هَـذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَقْدِيرٍ وَحِكْمَةٍ، وَنِظَامٍ وَمُلَائَمَةٍ، وَأَنَّ الخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ وَهُوَ الَّذِي أَلَّفَهُ وَنَظَّمَهُ بَعْضاً إِلَى بَعْضٍ»(١).

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعائه في وداع شهر رمضان: «**كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ، وَالْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ، وَالْمُدَّعُونَ غَيْرَهُ إِلَهاً؛ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً، وَخَسِرُوا خُسْرَاناً مُبِيناً**»(٢).

تفصيل القول

بسبب ضعف البصيرة أو إحاطة الجهالـة والغفلة، ترى الكثير مـن البشر يهتمون بالمسائل التفصيلية التي تُحيط بحياتهم اليومية وبما لها من علل وأسباب، وَيَدَعُوْن القضايا الأصلية التي تُقرِّر مصائرهم، وبالتالي تواجههم الأخطار الكبرى وتقضي عليهم. أترى من ركب السفينة فتعرَّضت لأمواج عاتية، إذا ترك الاهتمام بغرق السفينة واهتم بموقعه فيها، كيف يكون مصيره؟ كذلك الذي يحكم بلاده ظالم جبار، أو سفيه طائش، ثم لا يأبه بإنقاذ نفسه منه بقدر ما يهتم بيوميات حياته، كيف يعيش؟

وهكذا الذي يُخالف سُنن الله في خلقه، ويتحدَّى خالق السماوات والأرض الذي بيده مصيره في الدنيا والآخرة، ويُشرك به غيره فيخضع لعبد ضعيف ويُؤلِّه بشراً مثله؛ لا يملك له نفعاً ولا ضرًّا، ولا حياة ولا نشوراً.

(١) التوحيد، المفضل بن عمر الجعفي، ص١٢.
(٢) الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام، ص٣٠١.

وهكـذا ترى كتـاب ربنا يُذكِّرنـا بربنا المحيط بنـا علمه وقدرته وتدبيره لكيلا ننساه فنقع في شرك عبادة الأنداد. يقول الله سبحانه:

١ - ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

بما فيهـا من عظيم الآيـات، ولطيف التدبير، وواسـع القدرة.. إنـه الإله الذي ينبغي لنـا أن نعرفه ونعبده ونسـتعينه، أم هذا المخلوق الضعيف الذي لا يملك شيئاً من شؤون ذاته، فكيف بالآخرين؟

ألا ترى آثار رحمته في الرزق الذي يتنزل عليك من السماء؟

٢ - ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

فيـه كل المـواد الضروريـة لسـقاية الأرض، وبالتـالي لإخـراج النبات منها.

٣- ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾

إنهـا واحـات خـضراء فيها الكثـير من الـرزق، كما تنعـم علينا بالمزيد من البهجة بما فيها من تلطيف الهواء وروعة الجمال.

وهل كنا قادرين على إنبات تلك الأشجار من دون هذه النعمة، نعمة الماء؟ كلَّا.

٣- ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾

فأي مستوى ضعيف من التفكير هو الذي يزعم أن مع الله آلهة أخرى؟

٤ - ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾

يشاركه في زجر السحب من أعالي البحار، ثم نشرها إلى أواسط القفار، لتملأ الأرض زرعاً وضرعاً، ورزقاً حسناً وجمالاً.

٥- ﴿بَلْ هُمْ﴾

الذين يشركون بالله.

٦- ﴿قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

من الحق إلى الباطل.

بصائر وأحكام

عندما تُحيط الجهالة بالبشر ينسى ربه المحيط به خلقاً ورزقاً وعلماً وقدرة وتدبيراً، وينغمس في الاهتمام بمن دونه من الأسباب والمؤثرات. وهكذا يتواجه مع السنن الربانية، ويخسر كل شيء؛ إنه عقبى من يشرك بربه من لا يملك نفعاً ولا ضرًّا، سبحان الله عمّا يشركون.

بل أكثرهم لا يعلمون

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

* * *

من الحديث

روي عن أنس بن مالك أنه قال: «لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ الْخَمْسُ فِي طس ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ انْتَفَضَ عَلِيٌّ انْتِفَاضَ الْعُصْفُورِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: **مَا لَكَ يَا عَلِيُّ؟! قَالَ: عَجِبْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَحِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ**»(١).

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى:

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج١، ص٣٩٠.

«﴿بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ يقول: فَضَاءٌ»[1].

تفصيل القول

لو أُوتي الإنسان قدراً من الفهم واستوعب آيات ربه من حوله، لازداد عرفاناً ويقيناً. فهذه الأرض التي يعيش عليها مستقرة تحته بالرغم من أنها تتماوج مع حركات المجرَّة، والمنظومة الشمسية وحركتها هي نفسها في دوامة لا تهدأ وبسرعة خيالية في كل تلك الحركات، ولكن هل نحس بها؟

كلَّا؛ إن فيها من إنسيابية في حركتها ومن جاذبية لما فيها وحولها تجعلنا نحس بأقصى درجات الاستقرار، حتى زعم الأولون أنها مركز العالم ومن حولها الأفلاك تدور.

وفي تشققات الأرض تجري الأنهار بحكمة بالغة، ولولا اختلاف مستوياتها لتراكمت المياه في مواقع وحرمت منها مواقع أخرى.

والرواسي التي يستقر بها ميدان الأرض، التي هي مخازن للمياه ولما نحتاجه من معادن، ومأوى للمدن، إنها آيات عظمى.

وبالرغم من أن سطح الكرة مغطى بالبحار إلَّا أنها لا تطغى على اليابسة، ولا تتداخل مع المياه العذبة التي نحتاجها.

لا يرتاب عاقل في أن مُقدِّر كل هذه النعم هو العزيز الحكيم، ولكن ترى البعض لا يسمو بعقله إلى مستوى إدراك قدرة ربه وحكمته وعظيم تدبيره، فتراه يتّجه إلى عبادة غيره؟ فيتَّخذ من دونه

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٢.

آلهة لا يملكون له نفعاً ولا ضرًّا، ولا حياة ولا نشوراً.

حقًّا؛ لو كان الإنسان يفكر بموضوعية فيما يحيط به من آيات ربه، لاستوعب عبرتها الأبلغ؛ إن من يُعبد من دونه إن هم إلاّ أسماء فارغة.

حقاً؛ كم هي فائدة التدبر في آيات الله البالغة، ثم التأمُّل في آياته سبحانه في خلقه من حوله. وليتخذ الواحد منا حياته كلها مدرسة للتوحيد، ومعراجاً إلى معرفة الواحد الجبار سبحانه.

بصائر وأحكام

لو أُوتي الإنسان فهماً في كتاب ربِّه، واتَّخذ من آيات الذكر مفتاحاً للنظر العميق في آيات الله في خلقه، لأصبحت الحياة مدرسة لتنامي معرفته، وتسامي يقينه بإذن الله تعالى.

قليلاً ما تذكرون

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ**»(١).

وقال ﷺ: «**لَا تَعْجَزُوا عَنِ الدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَهْلَكْ مَعَ الدُّعَاءِ أَحَدٌ**»(٢).

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِالدُّعَاءِ مَا نَزَلَ مِنَ البَلَاءِ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ**»(٣).

---

(١) مكارم الأخلاق، الشيخ حسن بن الفضل الطبرسي، ص٢٦٨.
(٢) الدعوات، قطب الدين الراوندي، ص١٩.
(٣) الدعوات، قطب الدين الراوندي، ص٢٨٤.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ بَعْدَمَا أُبْـرِمَ إِبْرَامـاً؛ فَأَكْثِـرُوا مِنَ الدُّعَـاءِ، فَإِنَّهُ مِفْتَـاحُ كُلِّ رَحْمَـةٍ، وَنَجَاحُ كُلِّ حَاجَةٍ، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِالدُّعَاءِ**»[1].

تفصيل القول

كأن هـذه الآية تفسـير للآية السـابقة لهـا. فقد يضطر الإنسـان في موقـفٍ ما فيدعو الله، فيسـتجيب لـه بفضله ورحمتـه؛ وتارة تضطر الأمـة برمتهـا، فلا بـد أن يدعوا جميعاً لكشـف الضر كـما في قصة قوم نبـي الله يونس عليه السلام، حيـث لجؤوا إلى عالمٍ كان يعيش بينهم، فعلّمهم كيـف يدعون ربهم. وكذلك حينما تمنع السـماء مطرها عن أهل منطقةٍ مّـا، ينبغـي أن يخرجوا جميعاً إلى الصحراء ليدعـوا ربهم ويصلّوا صلاة الاستسقاء.

أقول: إن على الإنسـان فرداً كان أو أمة أن يضع في حسـبانه أن الله تبارك وتعالى هو الوحيد الذي يكشف السوء عن المضطر إذا دعاه، أما الآلهة المزيفة وما فيها من عوامل الجذب فإنها عاجزة عن ذلك.

وهـذا برهان وجداني يحس به كل فرد، فلماذا يتَّخذ البشر أولياء من دون الله، وهو عند حاجته لن يجد غير الله؟ قال الله سبحانه:

١ - ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾

ثم إن سُـنّة الاسـتخلاف في الأرض، حيث يهلك الرب ملوكاً ويسـتخلف آخرين، ويجعـل الأيام تتداولها الحـكام والأمم والأجيال بقدرته القاهرة، إنها آية أخرى تدعونا للتوجُّه إليه وحده وترك الجبابرة

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٤٧٠.

والطغاة الذين لا يلبثون أن يتغيروا عندما يشاء الرب. قال الله سبحانه:

٢- ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾

ومع كل ذلك تجد البعض يتَّخذ آلهة مع الله دون أن يتذكر واقعهم المهدد بالفناء. قال الله سبحانه:

٣- ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

فالحري بالإنسان، هذا المخلوق المضطر، والحري بالأمة كذلك المضطرة والرازحة تحت وطأة الظلم والحاجة؛ ألَّا يتَّجهوا لغير الله تبارك وتعالى، فيطلبوا منهم العون لأنقاذهم من واقعهم؛ لأن أولئك مثلهم في الضعف والمسكنة، إنما الله هو المجيب لهم إذا دعوه بإخلاص النية.

بصائر وأحكام

أفلا يتذكر الإنسان كيف أنه جأر إلى ربه، حينما عصف به الاضطرار، ونسي الأنداد الذين كان يرجو نصرهم؟ إنه برهان وجداني على أنه لا إله مع الله.

تعالى اللّـه عمَّا يشركون

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِذَا نَظَرْتَ إِلَى السَّمَاءِ فَقُلْ: سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً، وَجَعَلَ لَنَا نُجُوماً قِبْلَةً نَهْتَدِي بِهَا إِلَى التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ**»(١).

وقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام في دعاء له: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَرْجُوُّ إِذَا اشْتَدَّ الأَمْرُ، وَأَنْتَ الْمَدْعُوُّ إِذَا مَسَّ الضُّرُّ، وَمُجِيبُ الْمَلْهُوفِ الْمُضْطَرِّ، وَالْمُنْجِيْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**»(٢).

---

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٤، ص١٤٨

(٢) مفتاح الفلاح، الشيخ البهائي العاملي، ص١٦٣.

تفصيل القول

الناس يتفاوتون في جنب الله عز وجل؛ فمن كان ذا تقوى، وهو عارف بتعاليم الله، ملتزم بشرعه، مرتدع عن محارمه.. جعل الله له نوراً يمشي به بين الناس، وألهمه طريق الخلاص من مضلات الفتن.

أَوَليس الله تعالى يهدي من يشاء ويُضل من يشاء؟ فمن أين يلتمس الإنسان الهدى؟ أَوَليس من عنده؟

والنعم من لدنه، ذلك أنه هو الذي يُرسل الرياح بين يدي رحمته، فتخضرُّ الأرض، ممَّا يأكل الناس والأنعام.

فتعالى الله عمَّا يُشركون. فكيف يُشركون بالله وهم يعرفون أن الخير كله منه؛ فهو الرزَّاق الذي يُحيط بهم نعمه ظاهرة وباطنة، وماذا وجدوا عند غيره حتى ساووه به سبحانه؟

ولو تأمَّل الإنسان في أسباب معاشه الحقيقية، إذاً لما التمس باباً من دون الله في الرزق، ولما عبد الجبت والطاغوت، ولما خضع لسلطان القوة والثروة وربُّه القوي الغني والعزيز الرحيم.

بصائر وأحكام

إن الله تعالى هو المنعم بالهدى، وبكل خير؛ فمن التمس من دونه النور تاه في الظلمات، ومن التمس من دونه الرزق عاش عمره في فاقة.

هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلشَّاكِّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ، وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُكَذِّبِ بِالنَّشْأَةِ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى**»[(١)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الرِّزْقَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى عَدَدِ قَطْرِ الْمَطَرِ، إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُدِّرَ لَهَا**»[(٢)].

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤٢

(٢) قرب الإسناد، الشيخ عبد الله بن جعفر الحميري، ص١١٧.

تفصيل القول

١ - ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾

في الآيات السابقة استثارات لوجدان الإنسان لعله يزداد معرفة بربه.

فَلِمَ يلجأ البشر إلى غير الخالق للسماوات والأرض، المنزل للماء من السماء وبه حياة الحرث والنسل، وهو الذي قدَّر نظام الأرض بما يُلبي الحاجات، وهو الذي يكشف السوء، وهو الذي يهدي الإنسان في ظلمات البر والبحر، وهو المرسل للرياح لتسوق السحب بالغيث بشرى ورحمة؟

وهكذا تجلّى ربنا لخلقه وعرَّفهم نفسه بآيات خلقه، حتى يُوقنوا بقدرته على أن يُعيد الخلق كما بدأه، فيُؤمنوا بالساعة والجزاء.

ثم إن الله عز وجل هو الوحيد القادر على أن يُعيد الخلق بعد الممات كما بدأه في المرة الأولى.

ولا ريب في أن من المخزي للإنسان أن يُولّي وجهه غير خالقه الذي أبدع خلقه ثم يُعيده بعد الموت. فالرب القادر على العودة بالزمن، وهو مجرَّد مخلوق لله تعالى حري بأن يُطاع بالعبودية التامة، وأن يتحسس الإنسان بالرجاء في رحمته، وكذلك يحذر كل الحذر منه سبحانه؛ أَوَليس إليه مصير عباده حين يُوفِّيهم حسابهم؟

٢ - ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

رزق الإنسان مقرَّر في السماء ويناله في الأرض. هذا أولاً.

وثانياً: يبدو أن هناك حقيقة علمية وراء هذا النص، إذ من الخطأ

الظن بأن النبات يخرج من الأرض فحسب، وإنما النبات ينشأ بتزاوج بين السماء والأرض، حيث ينزل ماء السماء فيختلط به نبات الأرض، فينمو النبات. وكذلك أشعة الشمس والرياح ولقاحها وغير ذلك ممَّا لا نعرف منها الكثير، كتأثير النجوم والغلاف الجوي ونظام الجاذبية.

٣- ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

مرة أخرى يُكرِّر القرآن الكريم هذا التساؤل: هل هناك إله آخر مع الله سبحانه؟

كلَّا؛ لا يجد الإنسان إذا عاد إلى وجدانه شيئاً غير نفي أي إله، وإن تطاول أحد وادّعى بعد أن يسحق ضميره بجهل أو تجاهل وجود إله غير الله، فإنه يُطالَب بالدليل والبرهان، لأن العقيدة أمر لا بد أن تُقام على أساس الحجة البالغة؛ فالمعيار فيها البرهان دون الادِّعاء الأجوف.

بصائر وأحكام

١- إن الله عز وجل هو القادر على أن يُعيد الخلق بعد الممات كما بدأه في المرة الأولى.

٢- القرآن الحكيم يطالب الإنسان بالبرهان على أي ادِّعاء غير الحق، وهكذا يُوجِّهنا إلى ضرورة إقامة بناء العقائد على أسس عقلية راسخة.

قل لا يعلم الغيب إلا اللّه

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾.

***

من الحديث

روي عن فضل بن يسار قال: «سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُوْلُ: **الْعِلْمُ عِلْمَانِ؛ فَعِلْمٌ عِنْدَ اللهِ مَخْزُونٌ لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ، وَعِلْمٌ عَلَّمَهُ مَلَائِكَتَهُ وَرُسُلَهُ. فَأَمَّا عَلَّمَ مَلَائِكَتَهُ وَرُسُلَهُ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَا يُكَذِّبُ نَفْسَهُ وَلَا مَلَائِكَتَهُ وَلَا رُسُلَهُ، وَعِلْمٌ عِنْدَهُ مَخْزُونٌ يُقَدِّمُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ**»(١).

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص٢٤٣.

تفصيل القول

استنطق ربنا سبحانه وتعالى وجدان الإنسان وذكّره بالبرهان الذي يدل عليه، ووضع أمامه المنهج السليم للوصول إلى معرفته، هذا ما تناولته الآيات القليلة السالفة. أما في هذه الآية الكريمة وما يليها، فكأن ربنا المتعال يُبيِّن الأسباب الخفية التي تمنع البعض من أن يؤمنوا بالله العظيم.

إن هناك سببين لذلك:

الأول: احتجاب الإنسان عن علم الغيب.

والثاني: جهل الإنسان بالساعة.

أما الغيب، فهو ما يخالف الشهود؛ فما مضى أو ما سيأتي غيب، كما باطن كل شيء غيب.

فإذا عرفنا أن حادثة حدثت، كأن أطلق إنسانٌ ما النار على أحد، فإن الأسئلة تتوالى حول السبب والوقت والكيفية والدوافع.. وعشرات من الأسئلة، وهي بمجموعها دلالة على جهل الإنسان بالغيب الذي يحيط بحقائق الشهود، ولا يبلغ علم الإنسان إلَّا بجزءٍ بسيط من الحقائق، أما البقية فأين هي؟

ولكن من يعرف الغيب، ومن يدلنا عليه؟

إنّه الله سبحانه.

١ - ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾

الله وحده العالم بالغيب، لأنه المحيط بكل شيء، وهو عز

وجل الغني عن أن يُعلِّمه أحد، ولكنه سبحانه يفيض بعلمه للغيب على من يشاء من عباده بحكمته البالغة، وهو القائل: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾(١).

فهو تعالى غير بخيل عن أن يُكسبَ غيره العلم بالغيب، لأنه الفيّاض بالعطاء. وعلى هذا، فإنّ من ادّعى العلم بالغيب مستقلاً عن الله تعالى، فهو لا ريب كاذب في مدّعاه.

بلى؛ قد يعلم الغيب بتعليمه سبحانه.

وهكذا فمن لا يُؤمن بالله سبحانه وتعالى يظل محجوباً عن العلم الحقيقي، وإنما يعرف ظاهراً من الحياة الدنيا، وهو عن الآخرة أعمى.

والجاهل بالغيب يصطدم به؛ فمثلاً لأنه يجهل مستقبله ولا يعرف ماذا يحصل له غداً لا يعرف كيف يخطط له، أما الكافر بالله قولاً وعملاً فهو يتخبط في الحياة الدنيا كمن يتخبطه الشيطان من المس. وأما المؤمن؛ فهو يرجو الله تعالى أن يعرّفه ما لم يعلم.

وتتفرَّع من مشكلة الإنسان المتمثلة في عدم معرفته بالغيب مشاكل شتى؛ فهو إن خاض صراعاً، يجهل ما إذا كان سينجح أو سيفشل، لأنه يجهل بالأساس حاجته الماسة إلى الله تعالى خالقه، وهو الوحيد القادر على هدايته.

ولن يتعرَّف إلى الغيب سوى المؤمن برب الغيب الذي هو غيب الغيوب. ولا ريب في أن لمعرفة الغيب قواعده، ومن أهمها أن يكون الإنسان مصطفىً ومرتضىً للرسالة الإلهية.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

(١) سورة التكوير، آية ٢٤.

خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾(١).

فليكون وعاءً لعلم الغيب، ولما يفرضه هذا العلم من المسؤوليات الكبرى، لا بد أن يكون مرتضى للغيب من شأنه أن يُدلي بعلمه لمن شاء وارتضى من وصي وتابع، كل بحسب قربه من الله سبحانه.

وبما أن العلم ببعض الغيب يُؤدِّي دوراً هامًّا في إبلاغ الرسالة وفي تصديق الناس بها وبِمَنْ حملها إليهم، فإن ربنا سبحانه يُطلِع من يرتضيه من عباده على ما شاء من علم الغيب لما فيه من دور في إمكانية القيام بالمعجزة، حيث تتطلَّب المعجزة علماً بالسنن الحاكمة على الخلق.

وتأكيد حقيقة أن علم الغيب خاص بالله سبحانه يقتلع جذور الشرك عند الناس، حيث تراهم ينخدعون بما يعرفه البعض من فتات الغيب فيؤمنون بالجن وكهنة المعابد، إذ يُصوِّرون لهم أنهم قادرون على اجتياز الشهود ليأتوهم من بعض أخبار الغيب. وهناك من البشر من توسَّل بالجن، فزادوهم رهقاً وضياعاً، ذلك لأن من طبيعة الجن أن يُضلّ ابن آدم ويجرفه إلى الباطل، فلا يفتأ يُخبره بحدود علمه المحدود، فيُشوِّش عليه الرؤية ويسلبه البصيرة.

ولعل أحدهم يشرك بالله لفرط اتصاله بعالم الأرواح، فيبالغ في نوع اتصاله هذا، فيظن أنها تأتيه بما هو علمٌ وخير له. والحال أن الصالح من الأرواح ذاتها مقيدة بحدود خاصة لا يمكن تجاوزها أبداً، ناهيك عن الشرير منها التي لا تأتي بخير أبداً.

والاعتماد على الجن أو الأرواح باب من أبواب الشرك بالله سبحانه وتعالى، والنص القرآني الشريف هنا يحذِّر الإنسان من أن

---

(١) سورة الجن، آية ٢٦-٢٧.

يلجـه ويتـورط فيه، لأنـه لا ينتهي به إلى غير الـشرك والباطل والجهل المتراكـم. وإنـما الله عز اسـمه هـو القادر عـلى أن يأخذ بيـد مخلوقه إلى صراط الحـق والعلـم والخير، وذلك عبر وحيـه ويفيض عنه من العلم بالغيب بمقدار الحاجة.

٢- ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

ومـرة أخـرى يؤكّـد السـياق عـلى حقيقة جهـل الجميـع الجن والأرواح بموعـد بعثها ووقوع يوم القيامة، بما يدلل على عدم جدوى الاعتـماد عليهـا، وعليـه عوضاً عن ذلـك التوجه إلى الله تعـالى، وبهذا التوجـه يتـم اقتـلاع جذر كبير وأسـاسي من جذور الـشرك من أعماق القلب.

وفي الختام لا بد من الإشـارة إلى الفارق الكبير بين الاعتماد على هـذه الأباطيل بهـدف التعرف على أخبـار الغيب، وبين اتخـاذ الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين وسـائل إلى الله والتقرب منه، ذلك لأن هـؤلاء هـم الأبـواب التي شرعهـا الله تعالى لنا لنصـل من خلال عبورهـا والتمسـك بها إليـه، ولأن معرفتهم مقدمة حتميـة لمعرفته عز وجل.

بصائر وأحكام

١- من لا يؤمن بالله سبحانه وتعالى محجوب عن العلم الحقيقي، وإنما هو يعرف ظاهراً من الحياة الدنيا، وهو عن الآخرة من الغافلين.

٢- علم الغيب خاص بربنا وبِمَنْ يُطْلِعه على ما شاء منه بحكمة

بالغـة، والذيـن يدَّعون العلم به تماماً جهلة، والدليل أنهم لا يشـعرون أيان يبعثون.

٣- الأنبيـاء وأوصياؤهـم بحق هم أبواب شرعها الله سـبحانه لمن أراد معرفة الغيب، وهم وسائل قرب إليه.

بل هم منها عمون

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾.

* * *

من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ يقول: «**عَلِمُوا مَا كَانُوا جَهِلُوا فِيْ الدُّنْيَا**»[1].

تفصيل القول

١ - ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾

كثر الجدل في معنى هذه العبارة من الآية الكريمة بين المفسّرين.

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٢.

وأصل كلمة ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ تدارك؛ أي تلاحق.

ففسرها البعض بأن علم هؤلاء المشار إليهم في الآية قد بلغ أعلى مستوى، حيث اليقين بالآخرة، لأن الشيء إنما يسمى: أدرك إذ وصل محلاً رفيعاً ومستوى عالياً؛ مثل أن يقال: أدركت الثمرة، إذا نضجت وبلغت مستوى القطاف. فالعلم كذلك، إذا أدرك وبلغ المنتهى.

فقالوا: إن هذه الطائفة من الناس خالفت الدين مع اليقين بالآخرة.

وقال بعضهم: بل هذا التعبير استهزاء بهم؛ بمعنى: هل وصل علمهم إلى علم اليقين بالآخرة؟ والحال أن الأمر ليس كذلك قطعاً.

ولكننا نستوحي من السياق ما ذهب إليه المحققون من المفسرين قديماً وحديثاً وهو أن معنى ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ توقف واختلط بعضه ببعض، كما الماء إذا جرى وزحف وصل جدار السد، فإنه يدّارك، فيضرب بعضه بعضاً. وهذا يشير إلى توقف علمهم وتجمده واحتباسه عند هذا الحد؛ أي حد الدنيا وزخارفها كما قال ربنا المتعال: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[1]، بالنسبة إلى الآخرة، فلا علم لهم بها.

٢- ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾

وإن هؤلاء لم يدّارك علمهم بالآخرة إلّا لأنهم في شك منها، بل إنهم في عمى.

فهي إذن ثلاث مراحل يمر بها الإنسان، إذ يتساءل بدءاً عن كيفية إحياء الله الموتى، وكيف يحيي العظام بعد إذ صارت رميماً، ثم يقول في المرحلة اللاحقة: ومن يستطيع أن يثبت حتمية الآخرة، ثم يعمى في المرحلة الأخيرة عن علم الآخرة تماماً.

(١) سورة النجم، آية ٣٠.

فهم يمرون بمراحل التساؤل، ثم الشك، ثم الجحود.

ولكن ما مناسبة هذه الآية الشريفة من هذا السياق القرآني؟

المناسبة هي أن جذر مشكلة الإنسان تكمن في علم الغيب وموقفه من الغيب والإيمان به.. فهو ما دام غير معترف بالآخرة، فإن معيار المعرفة ينعدم لديه، ومن لا يعترف بالآخرة لا يعرف الدنيا، لأن نصف الحياة هنا ونصفها الآخر هناك، ولطالما حدّثنا القرآن عن الدنيا والآخرة باعتبارهما حقيقة واحدة. فإذا حدثنا عن مصير الكافرين في الآخرة قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

أي: إن إحاطة النار بالكافرين حقيقة راهنة.

أو كوصفه المتجاوزين على حقوق اليتامى بقوله العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2].

فما يأكلون بالظلم هو نار من نار جهنم تجسَّد في الدنيا بهيئة مالٍ أو طعام أو لباس وأمثال ذلك، بينما هي النار التي تستعر في الآخرة.

وإنما يتسافل الإنسان بمراحل كفره الثلاث هذه لشدة عناده وجهله وعدم استسلامه لإرادة ربه الحكيم، ولشدة جهله يعادي كل حقيقة مادام يجهلها أو يجهل تفاصيلها، إذ «**النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا**»[3] كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولأنه يجهل أمر الآخرة، ولأنه يرفض التسليم لخالقه والتواضع

(١) سورة التوبة، آية ٤٩.
(٢) سورة النساء، آية ١٠.
(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٧٢.

للحق، فإنه يزداد عناداً بمرور الأيام، وبعناده هذا يخرب دنياه أيضاً، فتراه يطرق كل باب سوى باب الهدى.

بلى؛ إن مشكلة البشر تكمن في المنهجية العلمية، حيث لا تتوفر لديه منهجية صحيحة، فتراه يعاني الفراغ والغفلة. ولا ريب في أن عدم العلم يؤذي ويضر. ومن الأذى والضرر الناتج عن الجهل أن المصريين القدماء كانوا يجهلون حقيقة الشمس ودورها المرسوم لها في الفضاء فظنوها إلهاً يتجدد ويولد في كل صباح، فاتخذوها إلهاً من دون الله الخالق جل وعلا.

وهكذا فعل الفلاسفة بالناس فأضاعوا عليهم فطرتهم، وحجبوا بالضلالات عقولهم.. إنك تراهم فسروا الحقائق بأوهام من نسج خيالهم، فضاعت فرصة كشف الحقيقة عندهم جراء غرورهم وجهالتهم.

نعم؛ قد يكون الشك وسيلة تُؤدِّي إلى العلم، كالشك الذي انتهجه النبي إبراهيم عليه السلام، إذ حرَّك به عقول المشركين التي استولى عليها الجهل المركب.. فاهتم صلوات الله عليه بأن ينقلهم من الجهل المركب إلى الشك (البسيط) هذا الشك الذي يمكن أن يأخذ بيد الإنسان إلى تحصيل الحقيقة. فرأيناه يخاطب الناس بأن الكوكب ربه أو القمر ربه أو الشمس ربه، ليثير فيهم أسئلة لعلها تنتهي بهم إلى عدم جدوى عبادة هذه كلها للنقص الواضح فيها.. فيضطرون في نهاية المطاف إلى التعرف على الرب الخالق الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله، وهو الذي ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى في الجلال والجمال والكمال.

إن القرآن المجيد، يريد أن ينقذ الضالين في المرحلة الأولى من الضلال المركب (العناد) إلى الضلال البسيط (الجهل)، ثم يذكِّرهم بآيات الله كسبيل إلى معرفة خالقهم.

ولكـن الشـك المركز الـذي يعـتري الكافرين، ينتـج عن هوى النفـس، حيث تراهم يفسرون الحياة وينسـبون سـببها وحركتها إلى ما تؤمـن مصالحهم، ذلـك لأنهم يجهلون الحقائق، أو يتجاهلونها بسـبب احتباسـهم في زنزانة أنفسهم ودائرة أهوائهم، فإذا بهم يفسرون الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بوساوس وأوهام.

وهذا النوع من الشك هو الشك الخبيث، لأنه يصدر عن هوى النفس ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾

بسـبب أن الإيـمان بالآخـرة يفرض عليهـم المسـؤولية والتقيد بقيود الشريعة.

﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ يصـل ابـن آدم وللأسـف إلى مرحلـة يصـاب فيهـا بالعمى؛ عمى البصـيرة وتهافت العقـل.. وليعلم أن الله تعالى يُعطي الإنسـان قدراً من العقل وقدراً من العلم ليبتليه، فإذا قرَّر عدم الخضوع لذلك النور، سُلب منه وعوقب لموقفه إزاءه.

بصائر وأحكام

إنّ جذر مشكلة الإنسان تكمن في موقفه من الغيب؛ فهو ما دام غير معترف بما وراء الشهود، فإن معيار المعرفة ينعدم لديه، إذ إن من لا يعـترف بالآخرة لا يعرف الدنيا، لأنها والآخرة حقيقة واحدة. فالدنيا محاطـة بالآخـرة، والآخرة هي جوهـر الدنيا، ومـن لا يعترف بنصف الحقيقة يجهلها تماماً.

أئنا لمخرجون؟

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ ﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ. وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ دَارٌ إِلَّا جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ**»[1].

وروي عن عمار بن موسى، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سُئِلَ عَنِ الْمَيِّتِ يَبْلَى جَسَدُهُ؟ قَالَ: **نَعَمْ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ لَحْمٌ وَلَا عَظْمٌ إِلَّا طِينَتُهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تُبْلَى، تَبْقَى فِي الْقَبْرِ مُسْتَدِيرَةً حَتَّى يُخْلَقَ مِنْهَا كَمَا خُلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ**»[2].

---

(1) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٧، ص٤٧.
(2) الكافي، الشيخ الكليني، ج٣، ص٢٥١.

تفصيل القول

من قـال لك: إني لا أعترف بالطائرة لأني لا أعرف كيف تُحلِّق، ولا بالصـاروخ لأني أجهل كيف ينطلق، ولا بالكمبيوتر لأني أسـتبعد احتـواءه لهـذا الكم الكبير مـن المعلومات.. إنه حقًّا إنسـان جاهل كما يعـترف، ولكنه أيضاً معاند. لمـاذا؟ لأنه يغلق على نفسـه منافذ المعرفة مسبقاً.

وهكذا قال الذين كفروا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾

إنهـم تصـوَّروا الموتـى حينـما يـأكل الـتراب أجسـادهم، كيف يعـودون كـما خُلِقوا أول مـرة، فإذا بهـم يخرجون مـن أجداثهم؟ أفلا نظروا إلى خلقتهم أول مرة كيف أحياهم الله من تراب ثم من نطفة ثم تقلَّبوا في يد القدرة الإلهية من طور إلى طور، أفلا يكفيهم ذلك شـاهداً على قدرة خالقهم ليعيدهم تارة أخرى، ولماذا لا؟

تصـوَّر نخلة تموت وتسـقط على الأرض ويـأكل التراب كلّ ما فيها من سـعف وجذع، ثم بعد حين تنبت نخلة باسـقة أخرى مكانها. كيـف؟ لأن نواة تمره كانت في تضاعيـف تلك النخلة وبقيت من حياة النخلة فيها باقية، وإذا بها تعود بعدما تتوافر شروط الإنبات لها من ماء وأشعة وأملاح.. أليس كذلك؟

وليـس مـن العجـب أن تجد في النخلـة الجديـدة كل خصائص النخلة السابقة، كأنها هي.

أفـلا يمكـن أن تبقى من الإنسـان خلية واحـدة تتحدى الموت بإذن ربها، وهي تمثل كل خصائص الإنسان، ثم تنمو يوم القيامة بإذن

الله حتى تصبح إنساناً سوياً؟ ألم تر مثل ذلك في عمليات الاستنساخ البشري؟

بلى؛ لقد خلق الله الإنسان خلية واحدة نمّاها، ثم إذا شاء أعادها إلى وضعها الأول، ثم يعيدها إلى الحياة كما كان خلقاً سويًّا.

وهذا ما قرأناه آنفاً في حديث شريف وبمعناه أحاديث أخرى، فلماذا العجب؟

بصائر وأحكام

لو استوعب الإنسان درساً من أصل خلقته، لما تساءل كيف يُعيده الرب بعد موته حينما يصير تراباً.

إن هذا إلا أساطير الأولين

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

***

تفصيل القول

يبقى الإنسان في صراع ذاتي فيما يتَّصل بالحقائق الكبرى، فهو من جانب يجدها ماثلة أمامه بما لها من أدلة وجدانية وعقلية وبما فيها من قناعة لدى الحكماء من الناس. بيد أنه من جانب آخر لا يريد أن يعترف بها، لما فيها من أعباء عليه أن يتحمَّلها. فَمَنْ يُؤمن بالساعة عليه أن يستعد لها بالتقوى، ومَنْ يُؤمن بالرسالة عليه أن يُطيع المرسلين، وإنها لكبيرة إلَّا على الصالحين.

من هنا قالوا:

١- ﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ ﴾

إذاً هـذه الحقيقة شـائعة، والدعوة إليها ليسـت جديـدة، وهذا بذاته حجة على صدقها.

٢- ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

لماذا قالوا: أسـاطير الأولين؟ هل لأنهم كانوا يعتبرون السابقين مُتخلِّفـين بينـما يعتـبرون أنفسـهم أفضـل منهـم؟ أم لأنهـم زعموا أن الأولـين أيضـاً أُنـذِروا بعودتهـم إلى الحياة فلـم يعودوا، حيـث تراهم حسب آيات أخرى طالبوا الأنبياء بإعادتهم؟

يبدو أن الأمم كانت تتبع الهوى. فإن دُعوا إلى الرسـالة الجديدة وكانـت تُخالف أهواءهم، تمسَّـكوا بأهداب التقليـد وقالوا: نحن نتبع آباءنا، وإذا كان آباءهم مستبصرين استهزؤوا بآبائهم، وقالوا للرسالة: إنها من الأساطير والخرافات.

بصائر وأحكام

لأن الإيمان بالحقائق الكبرى يُحمِّل الإنسـان مسؤوليات كبيرة، تراه يفر منها، ويُجادل فيما لها من الحجج البالغة.

فانظروا كيف كانت عاقبة المجرمين

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾.

***

من الحديث

سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: «**مَعْنَاهُ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي الْقُرْآنِ**»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (في حديث): «**وَمَنْ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ**»[2].

وقال عليه السلام أيضاً (في حديث): «**فَكُلُّ نَظَرٍ لَيْسَ فِيهِ اعْتِبَارٌ سَهْوٌ**»[3].

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٣٩٦.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٠٨.
(٣) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج٤، ص٤٠٥.

تفصيل القول

١ - ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

لقد فُسِّرت هذه الكلمة بقراءة التاريخ، والنظر في الحوادث الواقعة فيه، والتأمُّل في كتاب الله وما فيه من عبر.

حقًّا؛ هذا تأويل للآية، بينما الآية تأمر بالسير في الأرض، والسير بذاته مفيد ويُثاب الإنسان عليه إذا استهدف الحصول على العبر وحتى الرزق.

٢ - ﴿فَٱنظُرُواْ﴾

أقول: حينما تكون نظرة الإنسان إلى التاريخ والحوادث الطبيعية التي تترى حوله نظرة علمية، فإنه يزداد مع الزمن عرفاناً وإيماناً، حيث يبدأ بالتقاط إشارات الحوادث والظواهر، مضافاً إلى تبصُّرها بالحقائق، ممَّا تُورثه الرؤية الإيمانية إلى الأمور.

ثم النظر من الناحية اللغوية يدل على التعمُّق في الرؤية والدقة في الملاحظة. فالفرق بين النظر والإبصار، كما الفرق بين الاستماع والسماع؛ فالأول يدل على المزيد من التوجه.

٣ - ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

لم تقل الآية بدلاً عن ﴿كَيۡفَ﴾، ماذا كان عاقبة المجرمين. فالأكثر يعرفون أن عاقبة المجرمين كانت الهلاك والدمار.

وإنما النظر إلى الكيف، يعني التعرُّف إلى أسباب ما آلت إليه عاقبة المجرمين.

ولا ريب في أنهم لم تحل بهم حوادث السوء إلَّا بعد أن بلغوا

حافـة الانهيار، فبعث الله إليهم الأنبيـاء ليُعيدوهم إلى جادة الصواب، فلما لم يرعووا لتعاليم السماء ولم يلتفتوا إلى الآيات التي جاء بها الرسل، ذاقـوا وبال أمرهم. وهذا يعنـي أن المجرمين أوغلوا في الجريمة، فأملى لهم الله عز وجل شيئاً فشيئاً حتى أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

بلى؛ إن النظر في عقبى المجرمين يُورث العبرة؛ وما لم يتعظ المرء بما يراه، فإنه لن يكون مصيره خيراً من مصير السابقين.

ثـم إن النظر الأنفع هو الذي يكون وفق منهج الدين وحسـب قواعـده، وما حدَّدته تعاليم القرآن ووصايـا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام، بهدف التعرُّف إلى سـنن الله تعالى في خلقه، وعوامل الصلاح، وأسباب الخسران.

ولـما كان واجـب النظر إلى عاقبة المجرمـين متوجهاً إلى المؤمنين أيضـاً، ليزدادوا وعياً وثباتـاً، فإن على النخبة المثقفـة أن تمارس دورها في دراسـة التأريخ وفق المنهج القرآني، ليؤدّوا دورهم الهام والخطير في هـذا المجال، وليُضيّقوا الفسـحة على الذين لا تزيـد كتاباتهم إلَّا جهلاً وتحريفاً لحقائق التاريخ وطمساً للسنن الإلهية الحاكمة على الخليقة.

بصائر وأحكام

إن النظـر لعواقب المجرمين يسـتدعي اكتسـاب التجربة وأخذ العـبرة منهـا، لأن النظر هو رؤية الأمـور بتعمّق؛ ومـا لم يتَّعظ المرء بما يراه، فإنه لن يكون مصيره خيراً من مصير من سبقه من المجرمين.

ولا تحزن عليهم

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ٧٠﴾.

***

تفصيل القول

١ - ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾

يـا أيهـا النبي، ويا أيهـا المؤمن التابـع للنبي، المقتدي بـه.. حينما تسـير في الأرض وتنظر إلى عاقبة المجرمين السـابقين، فلا تحزن عليهم لما أصابهم من الدمار.

بـلى؛ إذا ما تمت قراءة التاريخ وفـق الرؤية القرآنية، فقد يُصاب المؤمن بصدمة حيال ما يراه من تعرُّض الأمم الغابرة لأسـوأ العواقب بمخالفتهم للحق وجحودهم برسالات الله تعالى.

ولكن هذه الصدمة لا ينبغي أن تُؤثِّر في المؤمن (الناظر) إلى حد

الحـزن عليهم، لأنهـم قد حفروا قبورهـم بأيديهم ودمَّروا أنفسـهم بما كسـبوا.. فهم لا يستحقون المواساة بالحزن عليهم، كما لا ينبغي الحزن على الكفار المعاصرين الذين سوف يُلاقون ذات المصائر.

٢- ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

أمـا مكرهـم وتكذيبهـم، فربما يسـتوجب شـيئاً مـن الوجل في قلوب المؤمنين.

كلَّا؛ ينبغـي ألَّا نُصـاب بالحرج ممَّا يحيكون مـن مؤامرات، لأنه قـد يُكبِّل حركـة المؤمنين. إذ المؤمنـون متوكِّلون عـلى الله تعالى، الذي يعرفون أنه محيط علماً وقدرة على ما يمكر الأعداء، مهما كان هذا المكر دقيقاً. إذ إن هذا المكر هو الذي سيُؤدِّي إلى دمارهم، كما هو شأن الأمم المكذِّبة السالفة، وهو يُعجِّل بهزيمتهم أمام مكر الله بهم.

بصائر وأحكام

إن المُكذِّبـين بالحـق لا يسـتحقون أن يحزن الرسـول والمؤمنون لأجلهم، وإنّ مكرهم لا ينبغي أن يسـتوجب لهم شيئاً من الحرج، لأنّ المكر السيّئ لا يحيق إلَّا بأهله.

متى هذا الوعد؟

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

***

تفصيل القول

يتساءل الكفار عن الوعد الذي يتحدَّث عنه الله تعالى؛ الوعد بحتمية قيام الساعة، حيث يتحقَّق العدل الإلهي.

وسؤالهم هذا لم يكن للاستفهام بقدر ما كان استنكاراً، رغبة من الكافرين بالعيش مع تجاهل مصير البشر والحكمة من وجود الخلق برمته، وهو استهزاء أيضاً بالقائلين بحقيقة العقاب والثواب، كما أنه يجسد سلوكاً كافراً يقضي باستعجال العذاب إنكاراً منهم له.

بلى؛ من المهم جدًّا في معالجة الانحرافات أن نعالج جذورها في النفوس، والتي تتمثَّل في عدم التفكير في المستقبل؛ ومن المعالجة

استحضار يوم القيامة في الذهن، وشحذ قوة التصوّر والتخيُّل، لا سيما وأن الله تعالى لم يُنعم على الإنسان بنعمة الخيال إلَّا لكي يستفيد منها في تقريب الحقائق، فيستثمرها دون الأباطيل؛ فيستحضر القبر والقيامة والميزان وحوض الكوثر والنار لطرد سبات الغفلة والكسل عن نفسه، وشد عزمات إرادته للعمل الجاد بمسؤولياته.

بصائر وأحكام

المهم جدًّا في معالجة الانحرافات أن نُعالج جذورها في النفوس، والتي تتمثَّل في عدم التفكير في المستقبل، وذلك بطرد سبات الغفلة عبر استحضار مشاهد الموت والقبر والقيامة وما فيها من ميزان وصراط وجنة ونار، نعوذ بالله منها.

ردف لكم بعض الذي تستعجلون

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

لعل الكثير من قناعات الإنسان وسلوكياته تتغير إذا ما علم بأمرين أساسين:

الأمر الأول: أن عمله لن يذهب سدى، وأنه محفوظ بذاته وبما يقابله من جزاء، سواء كان خيراً أو شرًّا.

الأمر الثاني: أن علم الله تعالى محيط بعمله، وأنه محاط من قبل الحفظة الكرام الكاتبين، وأن الكتاب الذي سيلقاه يوم القيامة لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها.

والقرآن المجيد يُشير من خلال تعبير آخر في هذه المنظومة من

الآيات إلى هاتين الحقيقتين الرئيستين، حيث يقول:

١ - ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾

يبدو أن كلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ تُستعمل في القرآن تارة بمعنى التأكيد، وليس بمعنى الرجاء، ولكنها في الوقت ذاته تحمل الإنسان وإن كان معانداً كل العناد على العمل، لماذا؟

لأن هناك من الحقائق تقتضي العمل بمجرد احتمال وقوعها؛ مثل المخاطر الكبرى. وهكذا فإن مجرَّد الخوف من حقائق القيامة يدعو البشر إلى المزيد من الحذر.

وفيما يتعلَّق بكلمة ﴿رَدِفَ﴾ فيمكن القول بأنها تُعطي معنى اللحوق بعد الإعداد والتنجُّز؛ أي إن الكفار الذين كانوا يُحاولون تحدي أنبياءهم والوعيد الذي كانوا يُحذِّرونهم منه، وأولئك الذين كانوا يستهزئون بالمرسلين ويسألونهم إحلال العذاب الدنيوي بهم.. هؤلاء يجب أن يعلموا أن العذاب قد هُيِّئ لهم فعلاً وأنهم قريبون منه.

٢ - ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾

ما كان الكافرون يستعجلونه، هو عذاب الدنيا والآخرة، ضمن صخب دعائي هدفه الإنكار والاستهزاء. ولكن الله سبحانه يُؤكِّد لهم على أن العذاب حالّ بهم لا محالة. وأشد من ذلك؛ هو أنه تعالى قد أعده لهم منذ كفرهم ومنذ استهزائهم واستعجالهم، على أن أعمالهم السيئة ذاتها سوف تتحوَّل في يوم القيامة إلى عذاب أليم، نظراً لأن الجزاء هناك سيتخذ لنفسه شكلين:

الأول: عقاب الفعل السيِّئ، باعتباره معصية لله وتحدٍّ لإرادته.

الثاني: الفعل السيّئ ذاته يكون جزاءً بعد أن تظهر حقيقته، كمن يأكل مال اليتيم ظلماً، حيث سيكون الأكل نفسه ناراً يصلى سعيراً.

ولكـن جهل الكافرين وغرورهم يحـول بينهم وبين إدراك هذه الحقيقـة، ألا وهي أن العذاب الذي يسـتعجلونه يُحيـط بهم في كل آن، ولكنهم لا يشـعرون به، كمن يفرّ من الموت ولا يُريد مواجهته، ولكنه لا يشعر بأن كل خلية من خلايا جسمه مقرونة ومقيدة منذ أن خُلقت بالمـوت، لأن المـوت قد جعل جـزءاً من كيانها وأصـل وجودها.. فلا تُولـد حقيقـة إلّا بمـوت غيرها، وما من سـاعة تمر على البـشر إلّا بعد انتهاء سـاعة سـابقة. فالبشر في حالة دائمة من تنـاوب الموت والحياة. ويكفـي الكافر أنه يسـمع بالعذاب ويحتمل تعرّضه له ولو على سـبيل الافتراض المحال أن يتوقّف عنده، ومن ثَمَّ يُؤمن به.

بصائر وأحكام

جهـل الكافرين وغرورهم يحول بينهم وبين إدراك الحقيقة، ألا وهـي أن العذاب الذي يسـتعجلونه لا يـزال يلاحقهم وأنه محيط بهم، ولكنهم لا يشعرون به.

وإن ربك لذو فضل على الناس

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**شَرُّ النَّاسِ مَنْ لَا يَشْكُرُ النِّعْمَةَ، وَلَا يَرعَى الحُرْمَةَ**»(١).

تفصيل القول

١ - ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ ﴾

إن الله ذو فضل على الناس، ومفردة ﴿رَبَّكَ﴾ تتناسب هنا ومفردة ﴿فَضْلٍ﴾ لما تُوحي به من الرعاية واللطف، مع أن بني آدم لا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٣٢٢، حديث ٧٤٨٨.

يفتؤون عن ممارسة المعاصي.

٢- ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾

يُقدِّم الرب الحليم للناس بحكم عدم عصمتهم الفرصة بعد الفرصة، لئلَّا يخرجوا عن دائرة الإيمان ويقعوا في مستنقع الفسوق والعصيان؛ أي إن الفضل الرباني يتجسد هنا في المهلة وتقديم الفرصة للإنابة والتكفير عن الذنب.

٣- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

شكرُ كل شيءٍ بحسبه؛ فشكر الفرصة اغتنامها، وشكر العمر الاستفادة منه، وشكر المال بذله، وشكر العلم نشره وتعليمه.

ولكن طبع البشر هو الغفلة عن الشكر. ولا ريب في أن عدم إبداء الشكر صفحة مظلمة من صفحات الكفر.

فالشكر هنا هو الاستفادة من الفرصة واستثمارها بالشكل الصحيح.

بصائر وأحكام

١- إن الفضل الرباني يتجسَّد للإنسان في المهلة وتقديم الفرصة للإنابة والتكفير عن الذنب.

٢- شكرُ كل شيءٍ بحسبه؛ فشكر الفرصة اغتنامها، وشكر العمر الاستفادة منه، وشكر المال بذله، وشكر العلم نشره وتعليمه.

وإن ربك ليعلم..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**وَرَبُّكَ يَعْلَمُ** (يعني يا محمد) ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ **مِنْ بُغْضِ الْمُنَافِقِينَ لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ**، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ **بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْحُبِّ لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ**»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِنْ قُلْتُمْ سَمِعَ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ**»[2].

(١) الطرائف في معرفة الطوائف، السيد ابن طاووس، ص٩٧.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٢٦٩، حديث ٥٨٤١.

تفصيل القول

العمل الظاهر للإنسان يُدعى الشهادة، فيراه البشر والملائكة والطبيعة من حوله، وقبل هؤلاء كلهم يعلمه الله عز وجل بكل تأكيد.

وأما ما تَكِنُّ الصدور، فإن النوايا قد تتناقض وظاهر العمل، ولكن الله مُطَّلع على حقيقة النية قبل أن تُترجم إلى فعل، وعلينا أن نتذكَّر هذه الحقيقة، لماذا؟

أولاً: لأننا إذا راقبنا ما في أنفسنا من نية، فلا نسمح بالوساوس أن تغزوا محيط أنفسنا، فنتَّخذ القرارات الخاطئة.

ثانياً: لدحض الإيحاءات الشيطانية القائلة بأن الله أجل من أن يعلم بكل شيء، وأن علمه لا ينفذ إلى كل الأشياء والأرجاء.. كلَّا؛ إن الله تعالى يعلم بأصغر الجزئيات كما يعلم بأكبر الكليات، ذلك لأن إرادته قد تجلَّت في وجود الجميع، ولا فرق لديه بين كبيرها وصغيرها، وهو الذي لم يُعْيِهِ خلقهن، فلا يحول دون علمه بكل شيء حائل. ومع علمه الواسع والشامل والدقيق بالغيب والشهادة والسر والعلن، إلَّا أنه مع ذلك لا يحاسب المذنب من فوره، وإنما يقدم له الفرصة تلو الفرصة، ليضمن الإنسان فرصة الاستدراك، ذلك لأن الله تبارك وتعالى في علمه حليم.

بصائر وأحكام

الإيمان بأن الله تعالى يعلم ما تَكِنُّ به الصدور وما هو معلن، يدعونا إلى دحض الوساوس الشيطانية، لكيلا نتخذ القرارات الخاطئة.

إلا في كتاب مبين

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾.

***

من الحديث

عن إبراهيم، عن أبيه، عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: «قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وَرِثَ عِلْمَ النَّبِيِّينَ كُلِّهِمْ؟

قَالَ: **نَعَمْ**.

قُلْتُ: مِنْ لَدُنْ آدَمَ، إِلَى أَنِ انْتَهَى إِلَى نَفْسِهِ؟

قَالَ: **نَعَمْ**.

(إلى أن قال عليه السلام:) **فَقَدْ وَرِثْنَا نَحْنُ هَذَا الْقُرْآنَ، فَعِنْدَنَا مَا يُقَطَّعُ بِهِ الْجِبَالُ وَيُقَطَّعُ بِهِ الْبُلْدَانُ، وَيُحْيَا بِهِ الْمَوْتَى، وَنَحْنُ نَعْرِفُ مَا تَحْتَ الْهَوَاءِ. وَإِنْ كَانَ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَآيَاتٌ مَا يُرَادُ بِهَا أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ**

الَّتِي أَعْطَاهَا اللَّهُ المَاضِينَ؛ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ، إِلَّا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ ذَلِكَ كُلَّهُ لَنَا فِي أُمِّ الْكِتَابِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1] فَنَحْنُ الَّذِينَ اصْطَفَانَا اللَّهُ، فَقَدْ وَرِثْنَا عِلْمَ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ»[2].

تفصيل القول

علم الله ربنا سبحانه بالغيب والشهادة مستقر في كتاب مبين، فلا مناص للبشر أن يُراقب حركات سلوكه، ونفثات صدره، وخلجات إرادته مراقبة شاملة. فليس من السهل أن يُمحى عن الإنسان ما يرتكبه من خطايا ممَّا أحصي منه في كتاب مبين وإمام مبين.

١- ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾

كل حقيقة غائبة عن البشر، حاضرة في كتاب الرب.

٢- ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

في أقصى مديات هذا العالم الرحيب؛ من أبعد مجرة، وفي أدنى مجالات الأرض، حتى داخل الذرة وما أصغر منها، وحتى في عمق روح البشر وما فيها من وساوس.. كل ذلك مسجَّلٌ.

٣- ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

وهذا الكتاب عند الإمام المبين، الذي قال عنه ربنا سبحانه في

---

(١) سورة فاطر، آية ٣٢.

(٢) بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفار، ص١٣٤.

آية أخرى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ﴾(1).

ولقد قال عن هذا الكتاب: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(2).

بصائر وأحكام

لأن كل شيء قد استقر في كتاب مبين، فعلينا أن نراقب أبداً حركات سلوكنا، وخلجات قلوبنا، وعزمات إرادتنا، ألَّا تكون خارجة عن حدود الشريعة وما أمر الله سبحانه به.

(1) سورة يس، آية 12.
(2) سورة فاطر، آية 32.

القرآن يقص على بني إسرائيل

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

***

تفصيل القول

ليس لنا حينما نقف على شاطئ البحر سوى النظر مدّ البصر إلى أبعد الأفق من سطحه، وحينما نلاحظ الشمس لا نشهد منها إلَّا موجات من أشعتها الدافئة.. كذلك حينما نستشرف القرآن الكريم وهو العالم الرحب والبحر العميق والشمس المشرقة، ولكن ماذا لنا منه؟ ليس لنا إلَّا ما نستفيد منه بما لا يُقاس وطبيعة فوائده كقطرة من محيط. من هنا كان المفروض بنا قراءة القرآن والاستماع إليه وتدبره، لنوسِّع أفق معرفتنا به، وكلما اتّسَع هذا الأفق اتّسعت الفائدة، ومن هنا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِنَّ هَـذِهِ الْقُلُوبَ**

أَوْعِيَـةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا»[1]؛ أي أوسـعها وأقدرها على الاسـتفادة من العلم. ولذلك؛ فإن القرآن الكريم حمَّال ذو وجوه، وله ظاهر وباطن، ولباطنه باطن إلى سبعين بطناً، وليس له تفسير واحد ولا تأويل واحد، ولا يسـتطيع مُفـسِّر أن يقـول: إنّ هذا هـو مراد ربنا على سـبيل القطع والشـمول، لأن كل الآيـات القرآنيـة محكمات ومتشـابهات؛ محكمات فيما يفهمه القارئ، ومتشـابهات في الآفاق الواسعة التي لا يبلغها علم القارئ. إذ لا يستطيع إنسان باستثناء المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو الذي أوتي علم الكتاب، أن يدَّعي فهم كل ما تعنيه الآية.

١- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾

ذلك الكتاب المبين الذي احتوى حسـب الآية السـابقة على كل غائبة، انعكس على القرآن الكريم الذي فيه علم كل شيء.

وهذا القرآن يقص (أي يُبيِّن جانباً من الحقيقة).

٢- ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

ولكـن لماذا خـصّ القرآن هـؤلاء القوم هنا، بينـما الحديث كان عامًّا؟

الجواب هو: لأن سورة النمل ابتدأت بقصة النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثـم النبي سـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبالتالي فإن الحديث القـرآني هنا مرتبط ببني إسرائيـل، وهم الذين بُعـث إليهم النبيان العظيمان موسـى بن عمران وعيسى بن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ أي إنّ وعاء الرسالات قبل الرسالة المحمدية كان يتمثل في بني إسرائيل، وكانوا آنذاك ذروة المؤمنين، حيث فضَّلهم الله تعـالى عـلى العالم، ولكنهـم انحرفوا مـن بعد ذلك بسـبب جهلهم

(١) نهج البلاغة، رسالة رقم ١٤٧.

وتعصّبهم الأعمى الذي ابتلوا به. فكان القرآن المجيد فرصة ذهبية لهم لعلهم يتخلصون من الجهل والعصبية.

٣- ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

لِيُنقذهـم من الاختـلاف بالباطل، وهو آية صدق الرسـالة، إذ إنهـم لم يُفلحـوا في حل خلافاتهم في الحقائق الكـبرى، بينما جاء القرآن لحلها وبيـان وجـه الصـواب فيهـا. وليس مـن الـضروري أن يحدّث القـرآن بـكل اختلاف بنـي إسرائيل، إذ لا بـد أن تبقى بعـض الأمور خفيـة، وخاصة بعلم الله سـبحانه وتعالى، كما هو علم السـاعة، لذلك عبَّر القرآن هنا بـ(أكثر).

بصائر وأحكام

إن القـرآن هو ذلـك العالَم الرحـب، وتلك الشـمس المشرقة.. وليـس لنـا إلَّا مـا نسـتفيد منه، ممَّا يفـرض علينـا المزيد مـن التدبر فيه وتلاوته بتفكر، لنُوسِّع أفق معرفتنا به، وكلما اتّسع هذا الأفق تضاعفت الفائدة.

وإنه لهدى ورحمة

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَتِبْيَانٌ مِنَ الْعَمَى، وَاسْتِقَالَةٌ مِنَ الْعَثْرَةِ، وَنُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَضِيَاءٌ مِنَ الْأَحْزَانِ، وَعِصْمَةٌ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَرُشْدٌ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَبَيَانٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَبَلَاغٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، وَفِيهِ كَمَالُ دِينِكُم»(١).

وقال ﷺ: «يَا سَلْمَانُ؛ الْمُؤْمِنُ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ»(٢).

(١) تفسير العياشي، الشيخ محمد بن مسعود العياشي، ج١، ص٥.
(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٤، ص٢٥٨.

تفصيل القول

هنا اختص الله تعالى الرحمة والهدى بالمؤمنين.

أما الهدى؛ فقد يكون بمعنى الإرشاد العام (كالذي نجده في كتاب ربنا الذي أُنزل للعالمين نذيراً). وهذا غير مقصود في هذه الآية، لأن هذا الإرشاد يشمل الجميع. وقد يكون الإيصال إلى الحقيقة، وهذا خاص بالمؤمنين، لأن غيرهم لن يبلغ الحقيقة.

والهدى رحمة أيضاً، لأن الإنسان إذا اهتدى إلى الحق وعمل به، تحوَّل هداه إلى رحمة. بينما القرآن نفسه يُمسي بالنسبة إلى الظالمين خسارة، ولا يزيدهم إلَّا طغياناً وكفراً.

ثم الهدى والرحمة مفردتان وردتا بصيغة النكرة في هذه الآية للدلالة على العموم، لأن النكرة أوسع مدى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1].

فقال أهل الأدب: يعني أن كل عسر يُقابله يُسران، لأنّ اليسر جاء بصيغة النكرة، فيما العسر ورد بصيغة المعرفة. ولذلك كان الهدى والرحمة شاخصين متسعي الأفق، وللإنسان أن يرفل في ظلهما الظليل بقدر ما شاء، تبعاً إلى أن الرحمة الإلهية قد وسعت كل شيء.

بصائر وأحكام

إن الإنسان إذا اهتدى إلى الحق وعمل به، كان هداه رحمة له، وهدى الله ورحمته للمؤمنين ذات آفاق واسعة.

(١) سورة الشرح، آية ٥- ٦.

إن ربك يقضي بينهم بحكمه

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

* * *

تفصيل القول

١ - ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ ﴾

ثـمّ أفق ثالث في كتاب الله بعد أفقي الهدى والرحمة، إنه القضاء بحكم الله، ذلك لأن المشكلة الحادة في بني إسرائيل وفي كل أمة مشابهة تتمثل في الاختلافات التـي تنخر في كيانهم، لأنها تهـد الحضارة هدًّا، حيث يتحولون إلى عناصر هدّامة في المجتمع الإنساني برمته.

بـلى؛ إن ميـزة القرآن أنـه يقضي بينهـم بني إسرائيـل بمن فيهم المدَّعـين الانتـماء إلى التـوراة، أو الذيـن يدّعـون الانتـماء إلى الإنجيـل خصوصـاً وأن الاختلاف قائـم بينهم إلى يوم القيامـة. والقرآن فرصة متاحة للقضاء بينهم بالحق لحل الخلافات.

٢- ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾

واضح أن الذي يحكم لا بد أن يكون عادلاً، لكن القرآن لا يأتي هنا بمفردة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لوحدها، بل يُصرِّح بأن الرب (عزيز) وأنه يحكم بعزته وقوته، لأن العلم لوحده غير كافٍ في الحكم والقضاء. إذ القرآن إنما أُنزل لكي يُطبَّق، لا لِيُقرأ فقط. والله يقيم الحق والعدل بقوته. بلى؛ قد يُعطي للناس مهلة، ولكن الرب يفرض حكمه في نهاية المطاف، وسيشمل نوره كل الأرض، باعتباره التعاليم المحفوظة بحفظ الله تبارك وتعالى، حتى تتم حجته على البشر حين يظهره على الدين كله؛ وفي الآية الكريمة التالية تأكيد على هذه الحقيقة الربانية.

بصائر وأحكام

إن الرب يُذكِّرنا أولاً بعزته، لأن العلم لوحده غير كافٍ في إقامة الحق والعدل، وقد وعد سبحانه أن يُظهر دينه على الدين كله.

إنك على الحق المبين

﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

***

من الحديث

سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم جبرئيل عن تفسير التوكل، فقال: «**اليَأْسُ مِنَ المَخْلُوقِيْنَ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ المَخْلُوقَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفُعُ، وَلَا يُعْطِيْ وَلَا يَمْنَعُ**»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ذَلَّتْ لَهُ الصِّعَابُ، وَتَسَهَّلَتْ عَلَيْهِ الأَسْبَابُ، وَتَبَوَّأَ الخَفْضَ والكَرَامَةَ**»[2].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَا يُغْلَبُ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ لَا يُهْزَمُ**»[3].

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١١، ص٢١٨.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٩٧، حديث ٣٨٨٨.
(٣) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١١، ص١٢٧.

تفصيل القول

ترى ما هو التوكل الذي أمر الله به الإنسان؟ وما هي آثاره؟

لا بد أن نعلم أولاً أن الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وأودع فيه قوى كثيرة جدًّا، وبطاقاته المودعة فيه خُلِقَ ليُسخِّر ما في الأرض جميعاً، كما أُمِر بأن يستعمر الأرض لصالحه، إلَّا أن تفعيل هذه الطاقات في نفسه بحاجة إلى الإرادة؛ إنه أشبه ما يكون بسفينة ربانها إرادته. وهكذا الإرادة هي أصل الإنسان، ولكن المشكلة الكبرى التي تعصف به، أن إرادته هذه محاطة بوساوس شيطانية يقذفها إبليس في روحه لإضعافها، ويوهم له أنه لا شيء أمام قوى الطبيعة. وهكذا يسعى الشيطان في قتل الإرادة في الإنسان.

ولكن كيف يتسنَّى له الخلاص من ضغوط الشياطين ووساوسهم حتى يعتمد إرادته؟ إنما بعد أن يعرف أن وراءه قوة هائلة مهيمنة على هذا العالم الرحب، إنها قوة الله الرحمن الذي على العرش استوى، ويدبر الأمر ويجري السنن.

فإذا اعتمد الإنسان على هذه القوة واستشعر أنه في محضرها وأنها ترعاه، وبالتالي إذا توكل على ربه القادر وعرفه ودعاه واستعاذ به، فإنّه يُخلِّصه لا محالة ليس من القوى الظاهرية وحسب، وإنما أيضاً من الضغوط الباطنية؛ أي من إبليس وجنوده.

وهكذا تشتد عزيمته، وتتضاعف قوة إرادته، وينطلق في تفجير طاقاته الباطنة وتسخير ما في الأرض، لا يلوي على شيء بإذن الله تعالى.

وهكذا فإن من يتوكل على الله فهو حسبه؛ إنه يستغني بالله

تبارك وتعالى عن أن يحتاج إلى معونة أخرى، لأن الله هو الذي سيُسخِّر له كل شيء ويكفيه عن كل شيء، فلا يستطيع مجابهته شيء.

أما آفاق التوكل فهي شتى، منها: أن الله ذو قوة لا تُقهر، وهي مهيمنة على كل شيء، وحكمه وتدبيره جارٍ على كل شيء، وهذا ما نستفيده من قوله تعالى السابق: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أَوَليس اسم العزة يعني القوة والهيمنة؟ فحري بأن يكون التوكل عليه، ولذلك جاءت العبارة ومعها فاء التفريع؛ أي إنه مادامت العزة لله، فجدير بأن يتوكل الإنسان المكتسب لأسباب الفلاح منه؛ عليه.

ومنها: أن الله يُحب المتوكلين عليه، ويفيض من هذه المحبة حب الملائكة له وحب كل مخلوق عاقل. وهكذا يحظى المتوكل بالحق، وقوة الحق لا يمكن أن تضاهى بشيء.

بصائر وأحكام

لأن الله قد أودع البشر طاقات هائلة ليُسخِّر بها ما في الأرض، وجعل الإرادة محور قدراته.. فإنّ التوكل على الله يضاعف قدرة الإرادة، ويزيد من فرص تسخير قوى العالم المحيط به، ويقهر وساوس إبليس الذي يُشكِّكه في نفسه.

إنك لا تُسمع الموتى

﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠﴾.

***

من الحديث

عن جابر، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: **إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَدْعُو أَصْحَابَهُ؛ مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْراً سَمِعَ وَعَرَفَ مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ شَرًّا طَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ فَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَعْقِلُ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[1]. وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾[2].**

---

(١) سورة محمد، آية ١٦.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج٢، ص١٣٩.

وقـال أمـير المؤمنين علي بـن أبي طالب عليه السلام: «**سَـمْعُ الأُذُنِ لَا يَنْفَعُ مَعَ غَفْلَةِ القَلْبِ**»(١).

وقال عليه السلام أيضاً: «**وَمَا كُلُّ ذِيْ قَلْبٍ بِلَبِيْبٍ، وَلَا كُلُّ ذَيِ سَمْعٍ بِسَمِيْعٍ، وَلَا كُلُّ ذِيْ نَاظِرٍ بِبَصِيْرٍ**»(٢).

تفصيل القول

هل تُعين قوة الأشعة من لا يبصر، أو قوة الأمواج الصوتية من لا يسمع؟

كلَّا؛ كذلـك لا تُعين قوة الإرشـاد لمن لا قلب واعٍ له. أما الذي يولّي وجهه عن الدعاة إلى الله، فإن صوت الداعية مهما ارتفع لا ينفعه.

مـن هنـا كان على الإنسـان أن يُطهِّر قلبـه أبداً ممَّـا ران عليه من سبات الغفلـة، ويُزكّـي نفسـه ممَّـا تراكمـت عليها مـن آثـار الذنوب ودواعـي الهوى وحجب الشـهوات.. فـإن لم يفعل فإن قـوة النداء لا تغنيه شيئاً.

وهكـذا المنادي بالحق إذا صادف صدوداً من بعض الناس، فلا يأبـه به ولا يتَّهم صفاء دعوته، وإنما يعلـم أن ليس كل قلب بواعٍ، ولا كل عين ببصيرة. ولا كل أذن بسميعة.

* * *

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٦٧، حديث رقم ٩١١.
(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٦٤.

بصائر وأحكام

لأن شرط الاستقبال أهم من قوة الإرسال؛ فعلى الإنسان ألَّا ينسى تطهير قلبه ليكون واعياً، وتنظيف بصيرته لتكون قادرة على استقبال أشعة الإيمان.

وما أنت بهادي العمي

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**نَظَرُ البَصَرِ لَا يُجْدِي إِذَا عَمِيَتِ البَصِيْرَةُ**»[1].

تفصيل القول

دليلنا إلى الحقائق علاماتها وسماتها وصفاتها، وبتعبير دقيق آياتها. فإذا لم يُؤمن أحد بها، فبماذا يستدل عليها؟

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٤١، حديث رقم ٨.

الضوء هـو دليلنا إلى الصور والأحجام.. فـإذا فقدنا الضوء أو العين التي تُبصره، فأي دليل لنا إلى المبصرات؟

وهكـذا الإيمان بالآيات، والقناعة بأنها تكشـف الحقائق لنا هو السـبيل إليها، والآيات شـتى.. فمـن آية مبصرة في الخليقة كالشـمس والقمـر وحـركات الليـل والنهـار، ومـن آيـة داعية كـما النبي ﷺ وأوصيـاؤه عليهم السلام والدعـاة إلى الله، ومـن آيـة هادية كالقـرآن الكريم والكلمات المسـتوحاة منه. كل هذه الآيات لا ينتفع بها إلّا من آمن بها، أو بتعبير آخر من لم يكفر بها، أما من اتَّخذ موقفاً سلبيًّا سلفاً منها فكيف ينتفـع بهـا؟ إنما مثله كالذي يسـد منافذ عينه وسـمعه وكل أحاسيسـه ويتولَّى هارباً عن الحقائق.

١- ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾

إنهـم موغلـون في تيه الضلالة، وقد اسـتحبوها على الهدى، فلا يفتحون أعينهم على آياتها، فأنى لهم الهدى؟

٢- ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾

وينفتح عليها ويتلقّى ما فيها من سمات وإشارات.

٣- ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

قـد عقـدوا العزم عـلى معرفة الحـق والإذعـان له والتسـليم لما يُوجبـه عليهم، إنهم وحدهم الذين ينتفعون بالهداية. فإذاً للاهتداء إلى الحقائق شرطان:

أولاً: وجود الهادي.

ثانياً: تقبُّل المهتدي.

بصائر وأحكام

دليلنـا إلى الحقائق آياتها، فَمَـنْ عَمِيَ عنها كيف يصل إليها؟ إنما الذين يتقبَّلون الآيات بلا جحود مسـبق ويُسلِّمون للحق إذا جاءهم، هم المستفيدون من هداية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

بآياتنا لا يوقنون

﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «انْتَهى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِلى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَهُوَ نائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ قَدْ جَمَعَ رَمْلًا وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَيْهِ فَحَرَّكَهُ بِرِجْلِهِ ثُمَّ قالَ لَهُ: قُمْ يا دابَّةَ اللَّهِ. فَقالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحابِهِ: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَنُسَمِّي بَعْضُنا بَعْضاً بِهذَا الاِسْمِ؟ فَقالَ: لا وَاللَّهِ ما هُوَ إِلَّا لَهُ خاصَّةً، وَهُوَ الدَّابَّةُ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتابِهِ ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾. ثُمَّ قالَ: يا عَلِيُّ؛ إِذا كانَ آخِرُ الزَّمانِ أَخْرَجَكَ اللَّهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَمَعَكَ مِيسَمٌ تَسِمُ بِهِ أَعْداءَكَ. فَقالَ الرَّجُلُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِنَّ

النَّـاسَ يَقُولُونَ هَذِهِ الدَّابةُ إنَّما تُكلِّمُهمْ؟ فقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: كَلَّمَهُمُ اللَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، إنَّما هُوَ يُكلِّمُهُمْ مِنَ الْكَلَامِ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذَا فِي الرَّجْعَةِ قَوْلُـهُ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **. قَالَ: الْآيَاتُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَئِمَّةُ** عليهم السلام **فَقَالَ الرَّجُلُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ** عليه السلام**: إِنَّ الْعَامَّةَ تَزْعُمُ أَنَّ قَوْلَهُ:** ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ **عَنَى فِي الْقِيَامَةِ. فَقَـالَ أَبُو عَبْـدِ اللَّهِ** عليه السلام**: أَفَيَحْشُرُ اللَّـهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِـنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً وَيَدَعُ الْبَاقِينَ؟ لَا، وَلَكِنَّهُ فِي الرَّجْعَةِ، وَأَمَّا آيَةُ الْقِيَامَةِ فَهِيَ:** ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾»[1].

وقـال أبـو عبـد الله عليه السلام: «قَـالَ رَجُلٌ لِعَـمَّارِ بْـنِ يَاسِرٍ: يَـا أَبَا الْيَقْظَـانِ؛ آيَـةٌ فِي كِتَابِ اللَّـهِ قَدْ أَفْسَـدَتْ قَلْبِي وَشَـكَّكَتْنِي. قَالَ عَمَّارٌ: وَأَيَّةُ آيَـةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُ اللَّـهِ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ الْآيَـةَ، فَأَيُّ دَابَّةٍ هِيَ؟ قَالَ عَـمَّارٌ: وَاللَّهِ مَا أَجْلِسُ وَلَا آكُلُ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّى أُرِيكَهَا. فَجاءَ عَمَّارٌ مَعَ الرَّجُلِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَهُوَ يَأْكُلُ تَمْراً وَزُبْداً، فَقالَ لَهُ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ؛ هَلُمَّ. فَجَلَسَ عَمَّارٌ وَأَقْبَلَ يَـأْكُلُ مَعَـهُ، فَتَعَجَّبَ الرَّجُلُ مِنْهُ، فَلَمَّا قَامَ عَمَّارٌ قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: سُـبْحَانَ اللَّـهِ يَـا أَبَا الْيَقْظَانِ؛ حَلَفْـتَ أَنَّكَ لَا تَأْكُلُ وَلَا تَـشْرَبُ وَلَا تَجْلِسُ حَتَّى تُرِيَنِيهَا. قَالَ عَمَّارٌ: قَدْ أَرَيْتُكَهَا إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ»[2].

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«وَاللَّهِ مَا لِلَّهِ آيَةٌ أَكْبَرُ مِنِّي، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى الدُّنْيَا يَعْرِفُهُم أَعَدَاؤُهُمْ إِذَا رَأَوْهُمْ فِي الدُّنْيَا»**[3].

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٠-١٣١.
(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣١.
(٣) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٢.

تفصيل القول

١- ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾

سبق أن بيّنا أن هذه الآيات الكريمة تدلنا على القيامة الصغرى التي ستجري فوق الأرض، وذلك أن إبليس حينما طلب منه الله تعالى أن ينظره إلى يوم البعث، جاءه الرد الإلهي بطريقة أخرى، إذ أمهله الله إلى يوم الوقت المعلوم. وهناك فرق بين يوم القيامة وبين الوقت المعلوم، إذ هذا الأخير يُشار به إلى القيامة الصغرى التي ستشهدها الأرض، وما ذلك على الله تعالى بعزيز.

ومن آيات الوقت المعلوم، أن الله تعالى يأذن للقائم من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ أي الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، الذي يعتبر الإيمان به وبحتمية ظهوره ضرورة من ضروريات الدين لدى كافة المسلمين، يأذن له بالظهور، وإذ ذاك يُخرج ربنا للناس دابة من الأرض تكلمهم.

وقد أشارت الروايات الكريمة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام أن الدابة الوارد ذكرها في الآية موضع التفسير يشار بها إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وهو أشرف من يدب (يسير فوق الأرض) في مقابل شر الدواب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ويعيشون في الأرض شرًّا وفساداً.

وخروج الإمام إلى العلن إنما هو -كما يظهر من الأحاديث- من أجل أن يعلن بأن المهلة التي قدَّمها الله تعالى للبشرية طيلة قرون مديدة قد انتهت، وأنهم وصلوا إلى حافة التغيير الذي طالما انتظره المؤمنون وبشَّر به الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين.

بـلى؛ هـذه الآية الشريفـة تتحدَّث للنـاس عن واقعة مسـتقبلية ينبغـي أن تُصـدَّق، كما ينبغي أن تُصدَّق الوقائـع الأخرى التي هي من السـموّ إلى درجة يسـتصعب قبولها؛ مثلاً الكرامـات والمعاجز التي لا تستقر معرفتها إلّا في القلوب المسلّمة والموقنة بربها.

إن ذلك يفرض على الإنسـان إصلاح الخلل في نفسـه ليكون ذا بصيرة وعلم، ويتسـامى إلى مستوى اليقين بالحقائق كلها. ولذلك تجد أن ربنا المتعال يقول في خاتمة هذه الآية:

٢- ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

ما هي هذه الآيات؟

قـد تكـون النصـوص القرآنيـة الشريفـة، وقـد تكـون المعاجز والكرامـات، وقـد تتمثَّل وهـو الأهم في النبـي وأهل البيـت الطيبين الطاهرين الذين لاقوا أشد الإنكار من أعدائهم.

ثـم إن تعبير الآية نص على أن الناس كانوا لا يُوقنون بآيات الله تعـالى، مع أن منهم مـن هو مؤمن بالآيات. بـلى؛ ولكنهم لم يصلوا إلى حد اليقين.

وهكـذا تجد هذا المقطع في الآيـة الكريمة يصعقنا ببصيرة قرآنية هامة جدًّا، وهي أن على الإنسان أن يبلغ اليقين، إذ ما قبل اليقين يكمن احتمال الزلل. أما إذا طوى الإنسان درجات اليقين، فإنه يضحى بعيداً عن الانزلاق في مهاوي الخطيئة.

* * *

بصائر وأحكام

١- إن عـلى الإنسـان في الدنيـا أن يبلغ درجة اليقـين، إذ ما قبل اليقين يكمن احتمال الزلل. أما إذا طوى الإنسان درجات اليقين، فإنه يضحى بعيداً عن الانزلاق في مهاوي الخطيئة.

٢- واليقين بالرجعة (القيامة الصغرى) ممَّا يصعب على الإنسان كما الإيمان بالساعة (القيامة الكبرى)، إلَّا أنها حقيقة دينية لا ريب فيها.

فهم يوزعون

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

***

من الحديث

روي عن المفضل عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قُتِلَ إِلَّا يَرْجِعُ حَتَّى يَمُوْتَ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَّا مَنْ مَحَضَ الإِيْمان مَحْضاً وَمَنْ مَحَضَ الكُفْرَ مَحْضاً**»[1].

تفصيل القول

تُعدّ هذه الآية الشريفة من الآيات الخاصة بالرجعة في عصر

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣١.

ظهور الإمام الحجة عجّل الله تعالى فرجه الشريف، حيث يعيد الله تعالى الحياة لمجموعات خاصة من الناس، وهم ممَّن محض الإيمان محضاً، ومن محض الكفر محضاً.. لتتجسَّد قيامة صغرى. إذ يُثاب الذين مُحضوا الإيمان بشرف رؤية وصحبة إمام الزمان عليه السلام، ويتنعموا بالحياة التي سيُقيمها الإمام في ظل حكومته الربانية، فيفرح المؤمنون بنصر الله. وحيث يُعاقب أئمة الكفر والنفاق عقوبة الدنيا قبل الآخرة، فيتأكد للناس بطلان مذاهب هؤلاء الذين تسببوا في تأخُّر الحكومة الربانية التي هي مصداق الاستخلاف الإلهي في الأرض.

ثم إن من ديدن الحديث القرآني أنه أقرب إلى الإنذار منه إلى التبشير، لأن مشكلة الإنسان وفي كثير من الأحيان أنه شديد الاهتمام بدفع الضرر عن نفسه قبل الاهتمام بجلب النفع.

ولذلك؛ نجد أن ربنا المتعال يُبين مصير هؤلاء الذين طالما كذبوا بآيات الله وبراهينه، وهم على درجات، وأسوأ تلك الدرجات التكذيب بالآيات العظمى المتمثلة بالقرآن وبالنبي وبأهل البيت عليهم السلام وإنكار ولايتهم ومراتبهم التي رتبهم الله تعالى فيها.

ويُخطئ من ينسب عملية الحشر هذه إلى يوم القيامة، ذلك لأن الحشر في يوم القيامة سيكون حشراً عامًّا شاملاً لا يُغادر أحداً.

ولكن حشر الرجعة عند الظهور ليعرف أئمة الهدى على حقائقهم، كما ليفضح أئمة الضلال على حقيقتهم.

وهذا الإعلان القرآني يُراد منه الإنذار بفضح الحقائق التي يحرص أئمة الضلال وأعوانهم على طمسها. والإنذار بطبيعة الحال مقطع من مقاطع العدل الإلهي في المحاسبة وإثبات الجرم وإنزال العقوبة بعد ذلك.

بصائر وأحكام

إن من ديدن الحديث القرآني أنه أقرب إلى الإنذار منه إلى التبشير، لأن طبيعة الإنسان أنه شديد الاهتمام بدفع الضرر قبل الاهتمام بجلب النفع.

أمّاذا كنتم تعملون؟

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

***

تفصيل القول

حتى إذا جاؤوا إلى تلك الآية المتمثلة في إخراج الدابة التي تُكلِّمهم، وإلى واقع حشر أفواج خاصة من الأمم، هنالك سيُسألون عن سبب تكذيبهم بآيات الله، ولا سيما الآيات الكبرى منها.

والإنسان عادة له ثلاثة مواقف تجاه الحقائق الكبرى؛ إما موقف الإيمان والتصديق، وإما موقف الكفر والرفض، وإما موقف الارتياب.

فلو كان يعلم ما كان له إلّا أن يؤمن بالحقائق، ولكن لمّا كان يجهل فلا يحق له أن يكذِّب مادام لم يُحط علماً بها.

حقًّـا؛ إن لم يُكـذِّب الجاهل بالآيات وإنـما بقي يبحث عن مدى صدقهـا، فإنه سـيهتدي بإذن الله إليهـا عاجلاً أم آجلاً. إنـما التكذيب المستعجل الناشئ من حب البشر للراحة وتقاعسه عن البحث وخشيته من أعباء الإيمان بالحقائق لو أنه عرفها وصدَّق بها.. كل أولئك عوامل للتكذيـب، لا بـد أن يكافح الإنسـان ضدها حتى يسـهل عليه الإيمان ويسمو بإذن الله بعدئذٍ إلى درجة اليقين.

بصائر وأحكام

للإنسان أساسـاً ثلاثة مواقف تجاه الحقائق؛ إما موقف الإيمان، وإما موقف الكفر والرفض، وإما موقف الارتياب. وعلى الإنسـان أن يكافـح ضد عوامل التكذيب المسـتعجل من حـب الراحة والتقاعس عن مؤونة البحث والخشـية من أعباء الإيـمان. فإذا لم يُكذِّب يرجى له التسامي إلى درجة الإيمان ثم اليقين بإذن الله تعالى.

فهم لا ينطقون

﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ٨٥﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في عهده إلى مالك الاشتر حينما ولاه مصر: «**وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ. وَ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ؛ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ**»[1].

***

(١) نهج البلاغة، رسالة رقم ٥٣

تفصيل القول

١- ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾

أي: أُدينوا واستحقوا العذاب بما ظلموا.

والظلم في الحقيقة ليس منحصراً في أن يظلم الإنسان نظيره أو أخاه، إنما هو في معناه الأدق الانحراف عن الطريق القويم. وأعظم الظلم هو الشرك بالله عز وجل، وبمجرد أن يصل المرء إلى درك الشرك، فهو يظلم نفسه ويظلم الآخرين، لأنه سيفتقر إلى المعيار الحق والبوصلة السليمة، فراح يجهل كيف يتصرف من دون هدى ولا وازع ممَّا يوقعه في المهالك.

ولا ريب في أن أنواع الظلم وأقسامه كثيرة؛ منها الظلم للنفس أو للأسرة أو للأصدقاء.. وأكثرها انتشاراً ظلم الحاكم للمحكوم بدافع غريزة حب السلطة ورذيلة التكبر والرغبة في استعباد الآخرين.

ولو أننا درسنا وحققنا في مفهوم الظلم في القرآن المجيد، لوجدنا أن هذه الكلمة حملت من المفاهيم ما جعلها محوراً أساسيًّا لعلاقة الإنسان بنفسه وبما حوله من أشخاص أو أشياء.

٢- ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾

إنهم ولفرط ظلمهم وأبعاد تكذيبهم، قد جنوا على موهبة التفكير الصحيح، فتراهم لا يزدادون إلَّا انحرافاً.

إن الظالم لا يستطيع أن يدافع عن نفسه إذا ما سُئل من قبل محكمة العدل الإلهي عن سبب تكذيبه بآيات الله؛ فلا يسمح له أن يُبرِّر

تكذيبه هناك كما يبرره هنا، وقال ربنا سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1].

بصائر وأحكام

ليس الظلم يتمثَّل فقط في أن يظلم الإنسان نظيره، إنما هو في معناه الأوسع الانحراف عن الطريق القويم، وأعظم الظلم هو الشرك بالله عز وجل، ثم يتسلسل الظالم في الظلم حتى تراه يظلم نفسه وما يُحيط به من أشخاص وأشياء.

(١) سورة القصص، آية ٧٨.

إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «**فَخَلَقَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ مِنْ حَرَكَاتِ التَّعَبِ وَنَهَضَاتِ النَّصَبِ، وَجَعَلَهُ لِبَاساً لِيَلْبَسُوا مِنْ رَاحَتِهِ وَمَنَامِهِ فَيَكُونَ ذَلِكَ لَهُمْ جَمَاماً وَقُوَّةً وَلِيَنَالُوا بِهِ لَذَّةً وَشَهْوَةً. وَخَلَقَ لَهُمُ النَّهَارَ مُبْصِراً لِيَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ، وَلِيَتَسَبَّبُوا إِلَى رِزْقِهِ، وَيَسْرَحُوا فِي أَرْضِهِ، طَلَباً لِمَا فِيهِ نَيْلُ الْعَاجِلِ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَ دَرَكُ الْآجِلِ فِي آخِرَتِهِمْ**»[1].

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٢٤٥.

تفصيل القول

١ - ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾

هل يمكن للإنسان أن يتَّخذ من الحياة مدرسة للأخلاق والسلوك الطيب، وفسحة للاستزادة من البصائر القيمة؟

بلى؛ ولكن كيف؟

حينما يدور هذا الإنسان بنظره في عمق الحياة، يجد أن هذه الحياة أتقن صانعها قدرها، وهدى كلًّا إلى رشده.. فإذا عرف المرء أن كل شيء مقدَّر ومنظَّم بحكمة بالغة، ستنعكس فيه هذه المعرفة، فينظِّم سلوكه ويوجِّه حركته ضمن ذلك السلوك، وبالتالي؛ سيرتقي مع الزمن بأخلاقه وزكاة نفسه وتنظيم حياته بصورة عامة، ويردم ما هناك بين المعرفة والسلوك من فجوة، لأن كثيراً من الناس يعرفون، ولكنهم لا يسلكون حسب معرفتهم وعلمهم، ولذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في دعاء له: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ**»[1]، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**عِلْمٌ بِلاَ عَمَلٍ، كَشَجَرٍ بِلَا ثَمَرٍ**»[2].

ترى كيف نردم إذاً هذه الفجوة؟

إنما بالإيمان. فإذا كان علم الإنسان عرفاناً بحقائق الطبيعة والخليقة، رفعه هذا العلم إلى الإيمان الصادق بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٥، ص٧٠.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص١٥٢، حديث رقم ٢٨١٨.

١ - ﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ﴾

إذا نظر الإنسان إلى السماء وإلى مواقع النجوم التي هي أعظم آية من النجوم نفسها وإلى الشمس والقمر، وإلى الترتيب بين الليل والنهار، وإلى ما يفرضه هذا الترتيب من أدوار.. فإن هذا النظر الحاذق يعرج به إلى معرفة الله. وإذا عرف ربه، عرفه أسماءه وآياته وسننه، فينعكس ذلك على سلوكه.

وهكذا هو المؤمن الواقعي، يقوم لصلاة الليل فينظر متفكراً في آية الليل وآية النجوم، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(١).

ولدى التسبيح والتنزيه والمعرفة الواعية تُردم الفجوة بين العلم والعمل، إذ يطلب المؤمن الوقاية من النار، بعد يقينه بعدم عبثية الخليقة، وأن هناك حساباً دقيقاً وجزاء عادلاً يخشى أن تصيبه نفحة من عذاب ربه، فيستعيذ بالله من النار.

في هذه الآية يتساءل القرآن المجيد باستنكار: لماذا لا يرى هؤلاء آية الليل والسكن فيه وآية النهار المبصرة؟

فهم قد رأوا، ولكن رؤيتهم كانت ساذجة، فلم ينظروا إلى ما وراء تلك الظواهر ليفهموا حكمتها وغاية خلقها ثم ليوصلوا ذلك إلى سلوكهم.

ولكن هذه الحالة ليست العلة الوحيدة لهذا التراجع، إذ ثمة علة أخرى أعمق منها، ذلك أن لكل شيء في الخليقة ظاهراً وباطناً؛ شهوداً وغيباً.

(١) سورة آل عمران، آية ١٩١.

والليـل بكمونـة وسـكونه يعقبـه ظهـور النهار بحركتـه، وهما يُحرِّضان المرء على التفكُّر والتعمُّق ليصل إلى حكمة التفاوت والتكامل بين الظاهر والباطن؛ بين الشهادة والغيب.

٢- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

إن المؤمنين وحدهم يعون حكمة التفاوت، ثم التكامل بين الليل والنهار وما فيهما من ظواهر شـتى. أما الكافرون الظالمون لأنفسـهم، فإنهم يمارسـون التكذيب عمداً، لأنهم يُكذِّبون بربهم، فكيف يؤمنون بآياته أصلاً سبحانه وتعالى؟

بصائر وأحكام

إذا نظر الإنسان إلى السماء وإلى مواقع النجوم فيها، وإلى الشمس والقمـر، وإلى الترتيب بين الليل والنهـار، وإلى ما يفرضه هذا الترتيب من أدوار.. فإن هذا النظر الحاذق يعرج به إلى معرفة الله، وإلى التسليم بأن هناك مقدِّراً ومهيمناً. وإذا عرف ربه، عرَّفه أسـماءه وآياته وسـننه، فينعكس ذلك على سلوكه.

وكل أتوه داخرين

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**يَا عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ بَعْدَ الْبَعْثِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْقَبْرِ؛ يَوْمَ يَشِيبُ فِيهِ الصَّغِيرُ، وَيَسْكَرُ فِيهِ الْكَبِيرُ، وَ يَسْقُطُ فِيهِ الجَنِينُ، وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ. يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ، وَيَوْمَ كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً. إِنَّ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَيُرْهِبُ المَلَائِكَةَ الَّذِينَ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، وَتَرْعُدُ مِنْهُ السَّبْعُ الشِّدَادُ وَ الجِبَالُ الْأَوْتَادُ وَالْأَرْضُ المِهَادُ، وَ تَنْشَقُّ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ، وَتَتَغَيَّرُ فَكَأَنَّهَا وَرْدَةً كَالدِّهانِ، وَ تَكُونُ الجِبَالُ سَرَاباً مَهِيلًا بَعْدَ مَا كَانَتْ صُمًّا صِلَاباً، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَفْزَعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ**»[1].

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص٢٨.

وفي رواية أبى الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ قال: «صَاغِرِيْنَ»(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: وقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ قال: «خَاشِعِيْنَ»(٢).

تفصيل القول

الرجعة حق، والساعة حق. ففي يوم الرجعة حيث يبعث الله من كل قوم فوجاً، ويوم يخرج الله لهم دابة من الأرض تكلمهم، ذلك اليوم يهتز ضمير البشر هزًّا عنيفاً، لأنه قد يكون هو من الفوج. فإذاً ليكن عبداً صالحاً عندما تبلو سرائر العباد.

كذلك الساعة حين يأتي الربَّ الكلُّ داخرين؛ إنها صاعقة عظمى في روع من يعيها، تقض مضاجعه، فلا يقر له قرار حتى يتَّقي ربَّه ليقيه الرب شرّ ذلك اليوم العظيم.

١- ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾

تلك النفخة التي يرتاع لها كل من في السماوات والأرض، من الأنس والجن والملائكة.

٢- ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾

وهم الذين يأتون آمنين يوم الفزع الأكبر بما قدَّموه في حياتهم الدنيا من برّ. قال الله سبحانه عنهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٣.
(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣١.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[1].

وهكذا كان على الإنسان أن يُعدَّ كل العدَّة للساعة التي هي بداية يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممَّا يعده هنا. فإن أيام الدنيا وإن طالت لا تعد شيئاً في موازاة ذلك اليوم الرهيب، وإنما العاقل هو الذي يصبر هنا يسيراً ليدفع عن نفسه هناك شر ذلك اليوم العسير.

٣- ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾

خاضعين صاغرين بكل معنى الكلمة. فإذا كان الكبر في الدنيا يمنعهم من الإيمان بالحق، فإن جزاءهم الهوان في يوم القيامة.

بلى؛ فقط أولوا الألباب هم الذين اشتروا عزتهم وكرامتهم ذلك اليوم بتواضعهم في الدنيا للحق.

بصائر وأحكام

قيام الساعة كما يحقق الرجعة يعظ البشر بأبلغ الكلمات، ألَّا يتهاون في الدنيا في التصديق بالحق والتقوى، لكيلا يفزع يوم القيامة ولا يُفضح عند الرجعة.

(١) سورة الإنسان، آية ١٠-١١.

صنع اللّـه

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

* * *

من الحديث

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الله تعالى: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يقول: «**أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَه**»(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قال: «**فِعْلُ اللّـهِ الَّذِي أَحْكَمَ كُلَّ شَيْءٍ**»(٢).

---

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣٣.
(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج٢، ص١٣١.

تفصيل القول

١- ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾

هـذه الجبال التي يتحدَّث عن حركتها السـياق، هل هي الجبال الآن أم في الآخرة؟

أقول: كثيرة هي الآيات المتشـابهات في القرآن المجيد، فيحتمل هذا وذاك.

ولكـن؛ لمـاذا هـذه المتشـابهات القرآنية التـي قـد صرَّح القرآن بخصوصهـا قائـلاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[1].

الجـواب أولاً: لأننـا لا بد وأن نعود في فهـم القرآن الكامل وفي أبعاد تأويله إلى الرسول الأكرم ﷺ، لأنه هو الذي أُنزل إليه القرآن، وهـو الـذي أُمِر بأن يُبـيِّن للناس آياتـه المباركات. والقـرآن لم ينزل كما تنزل قطرات المطر التي يشـترك في تلقِّيها جميـع الناس، إنما القرآن نزل على الرسول الأعظم ليعكسه على الناس، وقد أُمِر بأن يتلو عليهم آياته ويُزكِّيهم ويُعلِّمهم الكتاب الحكمة.

وهذه المهمة العظيمة ألقاها النبي الأكرم ﷺ على أمير المؤمنين والأئمـة المعصومـين المطهريـن صلـوات الله عليهم أجمعين مـن بعده، باعتبارهـم أوصياءه الشرعيين، إذ لا كتاب بـلا إمام، لأنه إذا تجرَّد عن ترجمانه الرباني، سيتحوَّل الكتاب إلى مشروع تحريف وتأويل بالباطل.

ثانياً: إن القرآن الكريم لم ينزل ليكون بديلاً عن العقل، بل مستثيراً

(١) سورة آل عمران، آية ٧.

لـه (مفعِّلاً لـه) لأن ربنا المتعال يريد للإنسـان أن ينظر ويسـير في الأرض ليتعلَّـم ويعتـبر، وبالتـالي يعقل عـن الله، وإنما عبر اسـتثارة عقله يسـتنبط الحقائق؛ فيثير بالقرآن عقله، كما يستنبط الصادي الماء المعين من بئر عميقة.

١- ﴿تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾

يبـدو أن الأرض تفقـد يـوم القيامـة جاذبيتها، فـلا وزن يومئذٍ للجبال الراسيات.

والواقـع أن الجبـال الراسـيات تمرّ أيضـاً في الوقـت الراهن مرّ السـحاب، لأنهـا في حركـة كحركـة السـحاب ضمن حركـة الأرض والمنظومة الشمسـية، ولكن أعيننا لا تسـمح لنـا إلَّا برؤية الجبال ثابتة جامدة، على عكس حقيقتها.

كما أن السـحب تمر وهي تحمل أطناناً كثيرة من المياه وتنقلها إلى مناطق قد تبعد آلاف الأميال.

٢- ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾

ومـن آيات إتقان صنـع الجبال، حركتها الإنسـيابية التي لا يحسّ بها أحد، كما السحب حينما تمر في الفضاء وهي تقوم بمهام كبيرة دون أي خلل.

ولكـن ما هي علاقة الإتقان الإلهي في صنع كل شيء بالإنسـان وسلوكه؟

العلاقة هي أن يعرف ربه وأسماءه الحسنى، ويؤمن به وبأسمائه، ومنها أنه محيط علماً به وبأفعاله.

٣- ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾

وهـذا مـن المنهجيـة القرآنيـة في ربـط الحقائق الكبرى بسـلوك

الإنسـان.. ليعلم هـذا المخلوق المكرّم بأنه في محـضر الرب الذي خلق كل شيء، وأن تدبـير الـرب وعلمـه وقدرته وسـائر ما يتصل بأسـمائه الحسنى، كل ذلك يحيط به. فلماذا يعصيه، وأين يفر من حكومته؟

ولذلـك؛ كان لزامـاً علينـا أن نتَّخـذ من آيات الكتـاب العظيم ومـا تهدينـا إليها من آيات ربنـا في خلقه المحيط بنا، نتَّخـذ منها منهجاً للتفكير، وبصيرة للرؤية، ووسيلة للتزكية الذاتية.

ولعل الفرق بين العالِمِ والخبير، أن الخبرة تتَّصل بالجانب العملي مـن العلـم. فالخبـير علمه محيـط بالشيء إلى درجـة عالية، ممَّا تسـاعده خبرته في صنع الأشياء.

والتعبـير بالفعل هنا أبلغ من التعبير بالعمل. والفرق بين الفعل والعمـل؛ أن العمـل هـو الجانـب الظاهر مـن الفعل أو ما يـؤدي إليه الفعل، بينما الفعل هو الجانب الباطن من العمل؛ مثل حركة الإنسـان. ومن هنا جاء التعبير بالفعل لقربه من البشر، ولأن الله تعالى أقرب إليه من حبل الوريد، لأنه عليم به خبير بنواياه وبما يصدر منه من فعل.

بصائر وأحكام

ليـس القرآن الكريم بديلاً عن العقل، بـل هو مثير له ومُكمِّل، لأن ربنـا المتعال يريد للإنسـان أن يسـير في الأرض وينظـر إلى ما فيها ويعقل ليتعلَّم ويعتبر؛ فيسـتنبط الرؤى كما يستنبط الصادي الماء المعين من بئر عميقة.

وهم من فزع يومئذ آمنون

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾.

***

من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ إِلَى مُوسَى** عليه السلام: **أَنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالحَسَنَةِ فَأُحَكِّمُهُ فِي الجَنَّةِ. فَقَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ؛ وَ مَا تِلْكَ الحَسَنَةُ؟ قَالَ: يَمْشِي مَعَ أَخِيهِ المُؤْمِنِ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِ؛ قُضِيَتْ أَوْ لَمْ تُقْضَ**»(١).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**قَالَ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ إِلَى دَاوُدَ** عليه السلام: **إِنَّ الْعَبْدَ مِنْ عِبَادِي لَيَأْتِينِي بِالحَسَنَةِ فَأُبِيحُهُ جَنَّتِي. فَقَالَ دَاوُدُ: يَا رَبِّ؛ وَمَا تِلْكَ الحَسَنَةُ؟ قَالَ: يُدْخِلُ عَلَى عَبْدِيَ المُؤْمِنِ سُرُوراً**

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص١٩٦

وَلَوْ بِتَمْرَةٍ. قَالَ دَاوُدُ: يَا رَبِّ؛ حَقٌّ لِمَنْ عَرَفَكَ أَلَّا يَقْطَعَ رَجَاءَهُ مِنْكَ»(١).

وروي عن محمد بن زيد بن علي عليهما السلام، عن أبيه، قال: «سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: دَخَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِيُّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: **يَا عَبْدَ اللَّهِ؛ أَلَا أُخْبِرُكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:** ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿تَفْعَلُونَ﴾؟ قَالَ: بَلَى؛ جُعِلْتُ فِدَاكَ. قَالَ: **الْحَسَنَةُ حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، وَالسَّيِّئَةُ بُغْضُنَا»**(٢).

تفصيل القول

لماذا تتضاعف الحسنات لصاحبها، بينما لا تُجزى السيئة إلّا بمثلها؟

الأسباب شتى، ولكنها تعود بوجه عام إلى بصيرة هامة، هي أن رحمة الله تبارك وتعالى سبقت غضبه، وقد سبقت كلمته لعباده بالرحمة، وقد خلق الخلق برحمته.

والإنسان إذا عمل أو هَمَّ بالحسنة، فإن خلق الله جميعاً يُعينه في ذلك؛ أما إذا عمل السيئة، فإن الخلق لا يُعينه بل يقف ضده، والأسباب في ذلك كثيرة، منها:

أولاً: إن الإنسان إذا زرع نبتة، فهي تُصبح شجرة فيما بعد، ويكون لها ثمرتها وفوائدها الجمَّة. كذلك يطلق المرء كلمة طيبة، فتتحوَّل -من حيث يشعر أو لا يشعر- تياراً اجتماعيًّا واسعاً. وهكذا فإن لكل حسنة امتداداً زمانيًّا.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص١٨٩.
(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٧، ص٤١٠.

ثانياً: حينما يفعل الإنسان الحسنة، فإنها تنعكس في نفسه. ألم تر إلى الشجرة كلما ارتفعت طولاً تجذَّرت عمقاً؟ كذلك العمل الصالح، بقدر ما ينتجه الإنسان في الخارج، تتجذر في نفسه حتى يصبح فعل الخير عادة يستوحش من تركها. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته للإمام الحسن عليه السلام أنه قال: «**وَعَوِّدْ نَفْسَكَ السَّمَاحَ، وَتَخَيَّرْ لَهَا مِنْ كُلِّ خُلُقٍ أَحْسَنَهُ، فَإِنَّ الخَيْرَ عَادَةٌ**»[1]. وهكذا فإن لكل حسنة امتداداً نفسيًّا.

ثالثاً: إن الحسنات ذات أثر اجتماعي تحريضي؛ فمن فعل الحسنة كان له أثر تحريضي للآخرين، والثواب يضاعف له بذلك. فمن بنى داراً لفقير أو مسجداً أو مشفى أو مدرسة.. فإن من يمر به يتمنى لو أنه يبني مثله، فإذا قام بذلك، كان لصاحب المشروع الأول الأجر والفضل في السبق والمبادرة. ومعلوم أن للسبق والمبادرة أجراً عظيماً، وقد مدح الله السابقين في أكثر من نص قرآني كريم.

وهكذا من جاء بالحسنة ربما يتضاعف الأجر عليها عشر مرات أو مئة مرة أو سبع مئة مرة.. والله يضاعف لمن يشاء، وهو الذي لا تزيده كثرة العطاء إلَّا جوداً وكرماً.

كما أن الفاعل للحسنة يكون في يوم القيامة من الذين لا يفزعون، لأن حسناتهم ستكون ردءاً من أهوال ذلك اليوم، وستتمثل له حسناته المتأطرة بحب الله تعالى والرسول وأهل البيت عليهم السلام كائناً لطيفاً يبشره بالأمن والفلاح.

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص٨٦.

بصائر وأحكام

١ - الإنسـان إذا عمل أو هَمَّ بالحسـنة، فإن خلق الله جميعاً يُعينه في ذلك؛ أما إذا عمل السيئة، فإن الخلق لا يعينه بل يقف ضده.

٢- والحسنة تتنامى مع الزمن، لأنها تتناغم وسنن الله في خلقه، كما تتجذر في النفس بصورة عادات حسـنة وتنعكس على الآخرين فتشجِّعهم على المزيد، وتكون حصناً للبشر من أهوال يوم القيامة.

هل تجزون إلا ما كنتم تعملون؟

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَناتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَاتُهُ، فَذَلِكَ المُؤْمِنُ حَقًّا**»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**كَانَ فِيمَا وَعَظَ اللَّهُ تَبارَكَ وَ تَعَالَى بِهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ** عليه السلام**، أَنْ قَالَ: يَا عِيسَى؛ افْرَحْ بِالحَسَنَةِ فَإِنَّهَا لِي رِضًا، وَابْكِ عَلَى السَّيِّئَةِ فَإِنَّهَا لِي سَخَط**»[2].

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص١٧٩.
(٢) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٦١١.

تفصيل القول

١ - ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾

السيئة التي لا يستغفر صاحبها ربه منها ستكون عليه وبالاً في الآخرة، كما هي منشأ سوءٍ له في الدنيا.

٢ - ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾

مع أن العذاب في النار يتناسب وطبيعة السيئة، فإن القرآن الكريم يؤكد أن من يأتي بالسيئة سيُكَبُّ على وجهه في النار بشكل عام، فهل هي سيئة خاصة هذه التي يتحدث عنها، أم أنها إشارة قرآنية إلى ما سيلحق بالإنسان من عذاب وذلة في النار بفعل أية سيئة، ويكون وقوعه في النار على وجهه إشارة إلى أنه يُهان بوجهه الذي غالباً ما كان قد اجترح السيئات بالأعضاء التي فيه من عينين ولسان وأذنين، كما أن الوجه مظهر كرامة البشر؛ فإذا أهين سُحِقت كرامته.

٣- ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يُعبِّر القرآن عن الجزاء بكلمة: ﴿مَا كُنتُمْ﴾ للإشارة إلى العمل ذاته، وتارة بكلمة: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ للإشارة إلى جزاء العمل. ويبدو المعنى هنا أنهم سيُجزون بالعمل نفسه الذي جاؤوا به في الدنيا، وهو الذي يتجسَّد عقاباً؛ فهم سيدخلون النار التي هي حقيقة سيئاتهم.

***

بصائر وأحكام

السيئة التي لا يستغفر صاحبها ربَّه منها ستكون عليه وبالاً في الآخرة، كما هي منشأ سوءٍ له في الدنيا، وهي تتجسَّد في نار لظى كما أنها تسحق كرامة صاحبها حين يقع بوجهه على النار.

وأمرت أن أكون من المسلمين

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهِيَ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**»[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**إِنَّ قُرَيْشاً لَمَّا هَدَمُوا الْكَعْبَةَ وَجَدُوا فِي قَوَاعِدِهِ حَجَراً فِيهِ كِتَابٌ لَمْ يُحْسِنُوا قِرَاءَتَهُ حَتَّى دَعَوْا رَجُلًا فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ: أَنَا اللَّهُ ذُو بَكَّةَ حَرَّمْتُهَا يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ**

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٤، ص٢٢٦.

وَ وَضَعْتُهَا بَيْنَ هَذَيْنِ الجَبَلَيْنِ وَحَفَفْتُهَا بِسَبْعَةِ أَمْلَاكٍ حَفًّا»(١).

تفصيل القول

لـكل أمـة حرماتهـا التـي هـي في الأصل وسـائل لمعرفـة الرب ولعبادتـه. والعـرب الذين خصهم الله بالكعبة والمسـجد الحرام والبلد الحرام والمشاعر، كان عليهم أن يتَّخذوا منها وسيلة لمعرفة ربهم وعبادته وحـده. ولكنهـم -كما سـائر الأمـم التي ضلَّـت- لوثوهـا بالأصنام، وتحوَّلت الوسيلة عندهم إلى هدف، وكفروا برب الكعبة وهم يطوفون حولهـا. وقـد جلجـل الوحي في جبـال مكّة إيذانـاً ببـدء مرحلة تطهير المسجد من الأوثان، وتطهير أهل مكة من عبادتها، وقال ربنا سبحانه:

١- ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾

فمكة محرمة شرعاً ومحاطة بحفظ الله ورعايته بأمر الله سـبحانه، فهـو الـذي ينبغـي أن يعبد، وإنما الكعبة وسـيلة، وإنما الحج سـبيل إلى الارتقاء إلى الله سبحانه.

٢- ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾

وهو الذي أرسـل طـيراً أبابيل عندما سـعى أصحاب الفيل إلى خرابها.

٣- ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾

وإنما تكتسـب كل حرمة قداسـتها من ربها، ولا فرق بين حرمة وحرمة.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٤، ص٢٢٥.

٤ - ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

فمـن حرَّم مكة، هو الذي حرَّم دمـاء البشر وأعراضهم.. ومن حـرَّم مكـة، هو الذي حـرَّم الخبائث. وهكذا علينا أن نكون مسـلمين لشرائـع الله، وليـس لما تهـواه أنفسـنا، فنؤمـن ببعض الكتـاب ونكفر ببعض.

بصائر وأحكام

لـكل أمـة حرمات هـي وسـائل إلى الله تعـالى، ولكـن البعض يتخذهـا غايات وينسـى رب الأرباب، وإنما أمـر الله عباده أن يُخلصوا له العبادة وأن يُسلموا له وليس للأنداد من دونه.

إنما أنا من المنذرين

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «**أَفْضَلُ العِبَادَةِ، قِرَاءَةُ القُرْآنِ**»(١).

وقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «**وَعَلَيْكَ بِتَلَاوَةِ القُرْآنِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «**عَلَيْكَ بِتَلَاوَةِ القُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ كَثِيْراً، فَإِنَّه ذِكْرٌ لَكَ فِيْ السَّمَاءِ، وَنُوْرٌ لَكَ فِيْ الأَرْضِ**»(٣).

---

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج٦، ص١٦٨.
(٢) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج١، ص١٧.
(٣) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٥٢٥.

وقـال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ دَرَجَاتِ الجَنَّةِ عَـلَى عَدَدِ آيَاتِ الْقُرْآنِ. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لِقَارِئِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ. فَكُلَّمَا قَرَأَ آيَةً رَقَى دَرَجَةً**»[١].

وقـال أمير المؤمنين علي بن أبي طالـب عليه السلام: «**وَتَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ أَحْسَـنُ الحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْـفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلَاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ**»[٢].

وقـال أمير المؤمنين علي بن أبي طالـب عليه السلام: «**وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ؛ زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى**»[٣].

وقال عليه السلام: «**مَنْ اهْتَدَى نَجَا**»[٤].

تفصيل القول

من وسـاوس الشـيطان أن دعوة الرسـول إنما هي في مصلحته، وهكذا دعوة كل مبلغ للرسـالة. ويُكثِر إبليس من اللغط حول الدعاة إلى الله ليصرف الناس عن جوهر دعوتهم، ولذلك تجد الأمم الغابرة لم تكن تفتأ من تهمة الرسل عليهم السلام بحب السيطرة أو بالسحر أو بالجنون وما إلى ذلك من التُّهم التي يلوكها الطغاة وأذنابهم أبداً ضد المصلحين.

كلَّا؛ إن الهدى والضلال يعودان إلى الإنسان نفسه، وإنما الرسول مبلِّغ عن الله رسالته المتمثلة في كتاب الله العزيز الذي يتلوه على الناس؛

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٤٤٠.
(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٠.
(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦٧.
(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الآمدي، ص٩٣، حديث رقم ١٦٤١.

وهنـاك تتم مهمته وتبدأ مهمة الناس أنفسـهم، فعليهم أن يختاروا بين السـعادة بالاهتـداء بالقـرآن أو انتظار الشـقاء إن هم لم يهتـدوا. وهذا يعني أن عليهم السعي من أجل الهداية، وإلَّا فإن مصيرهم الضلال.

١- ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ ﴾

فـإن ضلالته تعـود عليه بأسـوأ النتائج، والرسـول ليس كفيلاً لهم ولا يتحمل شـيئاً من مسؤولية ضلالتهم بعد أن بلَّغ رسالته بتلاوة الكتاب.

٢- ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

فكما لم يتحمَّل أحد من الرسل فيما سبق شيئاً عن الأمة الضالة؛ فلـما نزل العـذاب أنجى الله الرسـل، ثم أنزل العـذاب على المجرمين، كذلك نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لا يتحمل وزر ضلالة قومه.

بصائر وأحكام

على الإنسـان أن يسـعى جاهداً من أجل الهداية، لأنها سـعادته ومن دونها الضلالة التي لا يتحمل مسؤوليتها الداعية إلى الله.

وما ربك بغافل عما تعملون

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

***

من الحديث

روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِذَا وَرَدَ عَلَيْـهِ أَمْـرٌ يَسُرُّهُ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَإِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ أَمْرٌ يَغْتَمُّ بِهِ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[1].

وروي عن محمد بن مروان قال: «**قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ** عليه السلام: **أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ؟ فَقَالَ: أَنْ تَحْمَدَهُ**»[2].

وروي عن معمر بن خلاد، قال: «**سَـمِعْتُ أَبَا الْحَسَـنِ صَلَوَاتُ**

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج٣، ص٢٤٨.
(٢) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج٢، ص٥٠٣.

اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ: **مَنْ حَمِدَ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةٍ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَكَانَ الحَمْدُ أَفْضَلَ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ**»[1].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**وَاللَّهِ مِا لِلَّهِ آيَةٌ أَكْبَرُ مِنِّي، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى الدُّنْيَا يَعْرِفُهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ إِذَا رَأَوْهُمْ فِي الدُّنْيَا**»[2].

وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام (في حديث): «**وَلَا دِيْنَ لِمَنْ دَانَ بِجُحُوْدِ شَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**»[3].

تفصيل القول

١ - ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

تعد كلمة ﴿الْحَمْدُ﴾ من أفقه الكلمات وأبلغها في ميزان معاني الكلمات، فما هي أبعادها وما مدى انعكاسها على النفس؟

إن الإنسان قد فُطِر على معرفة الله، وهذه الفطرة لا ريب عميقة في جذور النفس الإنسانية، إلَّا أنها مغمورة في أمواج من الغفلة والوساوس، وإنما آيات القرآن الكريم وكلمات النبي وأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين، وبالذات المأثور من الأدعية عنهم، تستأدي هذه الفطرة وتبعثها وترسمها في كلمات. وهكذا تعلمنا كيف نخاطب ربنا المتعال، وكيف نناجيه ونتحبب إليه.

أولاً: إننا نعرف أن ربنا اللطيف الخبير هو الذي يُسبغ علينا

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٩٦.
(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهم القمي، ج٢، ص١٣٢.
(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٧٣.

نعمـه ظاهرةً وباطنة، ونعرف أيضاً أن ما يدفـع عنا ربنا من النقم أكثر من النعم التي لا نُحصيها عدداً ولا تأثيراً.

ومن النعم علينا؛ إتاحة الفرصة لنا بأن نشكره، إذ مهما شكرناه احتجنـا لِقوةٍ ولِلسـانٍ وقلـبٍ، ممَّا يُوجب علينا شـكراً جديـداً، وثناءً طارفاً، لأنْ نشكر ربنا المتعال على كل ذلك.

ثانيـاً: حينـما نحمـد الله تعـالى لمـا نعـرف مـن أن الخليقـة التي فطرهـا الله، فطرها على أفضل حال، فمنحهـا النظم والحركة والهدفية والصلاح. ولذلك؛ كلما رأينا نعمة حمدنا الله عليها، وكلما وجدنا لطفاً ونظاماً حمدناه واستحضرنا ما يستحقه من الصفات.

وثالثـاً: إنّ حمدنـا لله تعـالى يتضمَّـن اتهامنا لأنفسـنا بالنقص أو بسـبب النقـص. فالعيب من النفـس والصلاح من الله تبـارك وتعالى. فالمرض -مثلاً- من انحراف الإنسان عن جادة الصحة، ولكن الشفاء من الله. والله أصلح نظام خلقه، وما ظهر فيه من فسـاد فإنما بما كسبت أيدي الناس. قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١).

وقـد يتحوَّل هذا الانحراف الصحـي إلى ابتلاء وامتحان، لكن يبقـى الانحـراف في الطبيعـة من صنـع المخلوق نفسـه، فَيُبتلى بفسـاد النظام الاجتماعي والاقتصادي والبيئي وغير ذلك.

إذن؛ فنحن نحمد الله تعالى لئلَّا نتَّهمه بما نحن علَّته وسـببه من فساد في أي بُعدٍ من أبعاد حياتنا. إنّ من أشد وساوس إبليس فتكاً التي تجلَّت في الإنسان، تبرئة نفسه وإلقاء مسؤولية أفعاله على الآخرين.

(١) سورة الروم، آية ٤١.

وهكذا بحمد الله نواجه هذه الوسوسة، ولا نتهم ربنا سبحانه، بل نعود إلى تحمّل المسؤولية تمهيداً لإصلاح واقعنا.

ومن نعم الله تعالى أنه يُعرفنا نفسه؛ مرة بالوحي، ومرة بالآيات المبصرات، وباستجابة الدعوات، حين يُري الرب نفسه لعبده عند البأساء والضراء.

ولذلك يقول سبحانه:

٢- ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾

أي: تعرفون الآيات.

ولكن؛ مصيبة الإنسان تكمن في طبعه بعدم وفائه للمنعم والمتفضل عليه، إذ ما أن يتخلَّص ممَّا وقع فيه، ينسى ما وعد الله تعالى به بأن يخضع له ويعرف جميله، وإذا به سرعان ما يتمرَّد على ربه ويعود إلى سابق عهده في الغفلة.

قال تعالى بهذا الصدد:

٣- ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

فالله تعالى ليس بعيداً عنكم، بل إنه يعرف عنكم منذ البدء أن القليل منكم سيفي بوعده، ولكنه يتلطف ويرحم وينعم في الدنيا ليلقي عليكم بالمزيد من الحجة، ويُعرِّضكم للحساب والعقاب يوم القيامة.

لقد قال عز من قائل في مطلع هذه السورة المباركة: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

(١) سورة النمل، آية ١-٢

وفي الخاتمـة يُحدِّثنـا عن الآيـات مؤكداً أنه سـيرينا إياها، وذلك لنبقـى على الدوام في حالة عرفانية. وهذا ما لا يتم بغير التوجُّه لكتاب الله الصامـت والناطـق بالحق، فتـزول عن قلوبنـا الحُجُـب التي طالما فصلتنـا عـن الحقائق. وهكذا نلمـس التناغم بكل وضـوح بين مطلع السورة وخاتمتها، ليتأكد أنه قد أُنزِل من لدن لطيف خبير.

بصائر وأحكام

إذا راجع الإنسـان نفسه وحمد الله، يكون قد أحدث فيها تغييراً جذريًّا، لأنه يتَّهم نفسه ومن ثَمَّ يسعى لإصلاحها ويعيش وفق المنهج الإلهي المرسوم له.

هذا الكتاب:

إن آيات الله تعالى تتجلى في كتابه الحكيم الذي يُسقط الحجب التي تحول بين الإنسان وربه، كما أن بلاغته النافذة تهز الضمائر بما تُبشر به من الثواب أو تُنذر عن عظيم العقاب. وهكذا ترى القرآن المجيد كله كتاب هداية بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن أمثلة هذه الحقيقة ما نجد في سورة النمل المباركة، التي تتمور حول تجلٍّ الرب لعبده النبي موسى عليه السلام، ثم تُبيِّن قصة النبي سليمان عليه السلام.

فكما هي لحظة التجلي لموسى بن عمران عليه السلام عند الشجرة المباركة، واصطفائه بالرسالة، وتكليفه بأعباء النبوة، وأمره بمواجهة فرعون.. كذلك لحظة التجلي للنبي سليمان بن داود عليه السلام، وهي لحظة تواصل السماء والأرض، والغيب والشهود، حيث اختير سليمان -كما كان أبوه من قبل- ممثلاً للحكم الإلهي في الأرض.

والقصة بمجملها تُبيِّن أن القرآن -بكل ما يحمل من حكمة وموعظة وتعاليم، كما سائر الكتب الإلهية -لم ينزل لكي يُقرأ ثم ليوضع على الرفوف، وإنما ليُطبق في واقع الحياة البشرية ويتحول إلى نظام اجتماعي وثقافي وسياسي بإذن الله تبارك وتعالى.

دار المحجة البيضاء

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

info@daralmahaja.com www.daralmahaja.com